لينين والامبريالية

اديب اللجمي

ما من كلمة شاع استعمالها في جميع لغات العالم، وعلى جميع الألسنة، ككلمة «امبريالية». ولأنها كلمة ذات مدلول خاص تماماً، فقد انتقلت كما هي الى اللغات المختلفة. وحاول بعض الناس، في وقت ما، ايجاد مرادف لها في بعض اللغات، ومنها العربية، فلم ينجحوا. إن «الامبريالية» ليست، كما قد يخطر على البال، اشتقاقاً للنزعة الامبراطورية، وهي ليست ابداً امتداداً امبراطورياً بمعنى الحكم أو التسلط على بلاد واسعة.

والامبريالية ليست هي الاستعمار . لهذا الأخير خصائص تختلف عن تلك التي تميز الامبريالية . وقد يكون بين الاستعمار والامبريالية وشائج قربى ، وتأثير متبادل . بل ان هذا صحيح تماماً . فالأمبريالية تتضمن الاستعمار ، ان صح التعبير ، أو هي تتضمن على الأقل شكلا من أشكال الاستعمار . بيد أنها أكثر شمولاً منه ، وأكثر تعقيداً .

والامبريالية ليست سيطرة الأقوياء على الضعفاء وحسب ، فالبرتغال تسيطر على شعوب آنغولا وموزامبيق ومواردهما . والبيض في جنوب أفريقيا يسيطرون على الأفارقة السود والملونين . ومع ذلك فان دقة التعبير لاتسمح لنا باستعمال كلمة « امبريالية » بصدد هذين الشكلين من أشكال السيطرة .

والامبريالية اخيراً ليست مجرد الاحتكار والاستيلاء على الموارد والارباح ومصادر الثروة . فكثيرون من المحتكرين في بعض البلاد ، وخاصة بلاد العالم الثالث ، لايمكن وصفهم بالامبرياليين ، بسبب بسيط جداً هو أنهم هم واحتكاراتهم والشعوب التي ينتمون اليها وجميع ثروات هذه الشعوب ، واقعون في شرك الامبريالية ، هذه القوة الطاغية التي لاتعرف الرحمة ولا تعترف بأية قيمة انسانية ، والتي ينبغي أن نحدد أبعادها وخصائصها .

حقاً ان الامبريالية هي الرأسمالية ، ولكنها رأسمالية بلغت « أعلى مراحل نموها » على حد تعبير لينين . ولاريب في أن هذا العبقري الكبير هو الذي تمكن ، أكثر من أي مفكر آخر ، من تطويقها كمفهوم شامل ذي خصائص محددة ، تتمايز عن تلك التي تسم الرأسمالية ، رغم مابينهما من وجوه شبه .

ذلك أن أكثر من مفكر سياسي ، وأكثر من باحث اقتصادي واجتماعي قد تصدوا للموضوع . وكان الماركسيون في طليعة من عالج الظاهرة ونظر اليها ، دون أن يتمكنوا ، قبل لينين ، من رؤيتها بشمولها . ونظراً لأهمية الموضوع في الفكر الماركسي ، وفي النضال الثوري الاشتراكي ، فقد خصص له لينين

كتاباً يعتبر من أروع ما ألف، عنوانه: «الامبريالية، أعلى مراحل الرأسمالية»، إضافة الى العديد من المقالات والرسائل والتقارير في الموضوع ذاته.

* * *

إن الامبريالية قد نشأت في أحضان الرأسمالية، بل إن هذه الاخيرة قد تطورت في بعض وجوهها فأصبحت أمبريالية، بمعنى أن الامبريالية شكل متطور عالٍ جداً من الرأسمالية. تتميز بخمس خصائص كبيرة هي:

١ - تركز الانتاج ورأس المال، تركزاً بلغ في تطوره درجة من الارتفاع ولد معها الاحتكارات التي تلعب دوراً فاصلا في الحياة الاقتصادية.

٢ - اندماج رأس المال المصرفي برأس المال الصناعي، ونشوء الطغمة المالية على أساس رأس المال المالي هذا.

٣ - اهتمام خاص بتصدير رؤوس الأموال - في سبيل استثمارها في الخارج - أكثر بكثير من الاهتمام بتصدير البضائع.

٤ - تشكل اتحادات عالميـــة من الرأسماليين الاحتكاريين، تتقاسم العالم فيما بينها.

٥ - الانتهاء من اقتسام مناطق الأرض من قبل كبريات الدول الرأسمالية.

هذه الخصائص الخمس متلازمة، بنسب متفاوتة، وهي التي تسم الامبريالية. فالأمبريالية عالمية في تطلعاتها ومجالاتها، تلك احدى صفاتها، وليس هنـاك من امبريالية «محلية» أو «قارية» في مقابل «امبريالية عالمية».

واذا كان لابد لنا من تعريف الامبريالية، قلنا مع لينين، انهـا «هي الرأسمالية عندما تبلغ من التطور درجة ترسخت فيها سيطرة الاحتكارات ورأس المال المالي، واكتسب فيها تصدير رؤوس الأموال أهمية بالغة، كما بدأ فيهـــا اقتسام العالم بين التروستات العالمية، وانتهى ايضاً اقتسام جميع بقاع الأرض

بين كبرى البلاد الرأسمالية... ان الامبريالية بهذا المفهوم هي - بلا ريب - مرحلة خاصة في تطور الرأسمالية»[1].

فلكي نفهم الامبريالية لابد لنا اذن من أن نعود الى منبعها، الى الرأسمالية.

ماهي الرأسمالية؟ يرى لينين أولاً «ان نمو الصناعة الهائل، والسرعة الكبرى في سير تمركز الانتاج في مشاريع متزايدة الضخامة، هما أبرز خصائص الرأسمالية». ويعطي مثالاً على ذلك الولايات المتحدة التي كانت الى جانب ألمانيا، منذ مطلع القرن العشرين، أبرز نموذج للرأسمالية، لأن حوالي نصف انتاجها يقدمه $\frac{1}{100}$ من مجموع المشاريع، أي أن ثلاثة آلاف مشروع تشرف على ٢٥٨ فرعاً من فروع الصناعة، هذا مع العلم أن عدد المشاريع كانت في ذاك الحين تبلغ ٢٦٨٤٩١ مشروعاً. فيمكن القول اذن إن «التمركز حين يبلغ درجة معينة من تطوره، يؤدي من تلقاء ذاته، مباشرة ان صح التعبير، الى الاحتكار. ذلك أن بضع عشرات المشاريع العملاقة قادرة على أن تتفق بسهولة فيما بينها». ان الرأسمالية كانت في البدء منافسة حرة، سرعان ما تحولت الى احتكار، أصبح اليوم هو الظاهرة الاولى من ظاهرات الاقتصاد الرأسمالي. أي أن المنافسة الحرة، كما أشار الى ذلك ماركس نفسه، تسبب تمركز الانتاج، فاذا بلغ هذا درجة معينة من التطور، آل الى الاحتكار.

من هنا اكتشف لينين القانون العام لتطور الرأسمالية في اتجاه نشوء الاحتكارات نتيجة لتمركز الانتاج.

ان أكبر معبر عن الاحتكارات وقوتها هي المصارف وما تقوم به من دور في الهيمنة على الحياة الاقتصادية كلها، فثمة تمركز مصرفي رافق تمركز

(١) الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية — ص ٨٠ (الطبعة الفرنسية — دار النشر الاجتماعية — باريس).

الانتاج ، في ألمانيا والولايات المتحدة وسواهما من البلاد الرأسمالية ، لأن «تمركز رؤوس الأموال وانتشار الاعمال بيدلان بصورة جذرية أهمية المصارف». فحين تزدهر أعمال المصرف ، يضطر هــذا الى معرفة وضع الرأسماليين كل على حدة ، ثم الى الاشراف عليهم ثم الى التحكم في مصيرهم .

وقد بين بيير جاله هذه النقطة التي كشفها لينين من قبل . ففي كتابه «الامبريالية سنة ١٩٧٠»[1] ، أوضح كيف تطورت هيمنة المصارف الأمريكية على اقتصاد الولايات المتحدة، وفي الوقت ذاته على الاقتصاد العالمي ، وذلك وفق الجدول التالي :

تطور زيادة فروع المصارف الأمريكية في الخــارج
بين السنوات ١٩٥٠ – ١٩٦٠ – ١٩٦٧

عدد فروع المصارف الأمريكية

	سنة ١٩٦٧	سنة ١٩٦٠	سنة ١٩٥٠
في بلاد أمريكا اللاتينية	١٣٤	٥٥	٤٩
في أوروبا	٥٩	١٩	١٥
في افريقيا	٤	١	..
في الشرق الأوسط	٧	٤	..
في الشرق الأقصى	٦٣	٢٣	١٩
في البلاد التابعة للولايات المتحدة	٣١	٢٢	١٢
المجموع	٢٩٨	١٢٤	٩٥

ويبين بيير جاله أن هناك ٢٥٩ فرعاً من فروع هــذه المصارف تنتمي الى مصارف رئيسية في الولايات المتحدة وهي : مصرف First National City Bank ومصرف شيس مــانهاتان Chase Manhattan Bank ومصرف أمريكا Bank of America .

(١) راجع بيير جاله : الامبريالية سنة ١٩٧٠ – الفصل التاسع : الامبريالية والعالم الثالث والعالم الاشتراكي . – Pierre Jalée - L' impérialisme en 1970 - Editions Maspéro

من هنا فان تبعية الرأسمالية الصناعية للمصارف تتزايد باستمرار . الأمر الذي يؤدي بالتالي الى « اتحاد المصارف والمشاريع الصناعية والتجارية الكبرى في شخص واحد ، واندماج إحداها بالأخرى ، وذلك بامتلاك الأسهم وتعيين مديري المصارف أعضاء في مجالس إدارة المشروعات الصناعية والتجارية » .

هكذا تتكون الاحتكارات الرأسمالية والتي تتحول بدورها الى سيطرة الطغمة المالية ، بعد أن تحول رأس المال المصرفي ، أي النقدي ، الى رأس مال مالي يستخدمه الصناعيون ، أي يستخدمه مديرو المصارف لإخضاع الصناعة بدورها الى الطغمة المالية . « ان تفوق رأس المال المالي على سائر اشكال رأس المال يعني سيطرة مالك الأسهم ، والطغمة المالية ، ويعني قيام وضع خاص لعدد قليل من الدول القوية مالياً بالنسبة لسائر الدول الأخرى » .

ولكي تتم صورة الامبريالية ، لا بد من توضيح السمة الثالثة التي تتصف بها ، أعني تصدير رؤوس الأموال . لقد لاحظ لينين أن نمو الرأسمالية الاحتكارية النقدية يستتبع فائضاً ضخماً من رؤوس الأموال . ماذا تفعل الرأسمالية بهذا الفائض ؟ هل توظفه في داخل البلاد المتقدمة ؟ ولكن هذه قد بلغت ، في أيام لينين، مرحلة كبيرة من الاشباع ؟ ماذا تفعل به إن لم توظفه في الخارج ؟ إن هذا بالضبط هو ما يحدث . فقد لاحظ لينين استناداً الى الأرقام أن تصدير رؤوس الأموال لم يبلغ حداً مذهلاً الا في بداية القرن العشرين . فثمة ضرورة لهذا التصدير يمليها « النضج المفرط للرأسمالية في بعض البلاد ، إذ يفتقر رأس المال فيها الى توظيفات مُجزية » .

وقد ظن بعض الشارحين لفكرة لينين في طغيان تصدير رؤوس الأموال على تصدير البضائع أن لينين يعني حلول الأولى محل الثانية . وفي ذلك تطرف بل مبالغة من جانب الشارحين . ذلك أن لينين يرى فقط أن تصدير رؤوس الأموال يكتسب « أهمية خاصة » ، بل انه ذهب الى أبعد من ذلك

حين أوضح أن « تصدير رؤوس الأموال الى الخارج يصبح في أغلب الأحيان وسيلة لتشجيع تصدير السلع . » ذلك أن تصدير هذه الأخيرة قد أصبح أكثر صعوبة بسبب انتشار التعرفات الجمركية الواقية وارتفاعها .

فاذا أخذت رؤوس الأموال بالانتشار في الخـارج ، فمعنى ذلك أن الأمبريالية - ترمي شباكها على العالم وتجره اليها ، وتأخذ في اقتسامه فيا بينها ، بل لا بد من حدوث هذه الفسحة لكي تتمكن رؤوس الأموال المصدرة من تحقيق أكبر ربح ممكن، ولكي لاتدخل في صراعات مع بعضها ، لأن الرأسمالية هي التي أنشأت السوق العالمية منذ وقت طويل » ، ولأن على هذه الرأسمالية أن تشكل المجموعات الاحتكارية الكبرى (الكارتلات) العالمية . هذا ما حدث سنة ١٩٠٧ حين اقتسمت العالم في مجال الكهرباء مجموعتان من التروستات الألمانية والأمريكية . وقيام مثل هذه الاتفاقات لا يمنع من حدوث تطور بشأنها ، نتيجة تبدل علاقات القوى . فاقتسام العالم هو حصيلة صراع مستمر ، لذا يمكن اعادة النظر به دوماً بحكم نتائج هذا الصراع . ذلك ما حدث مثلاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، حين انحسرت الأمبريالية الانكليزية والفرنسية لحساب الأمبريالية الأمريكية . وعلى أية حال « ان الرأسماليين يتقاسمون العالم فيا بينهم لا بسبب نزعتهم الشريرة ، بل لأن درجة التمركز التي بلغوها تحملهم على أن يستخدموا هذه الطريقة لكي يحققوا أرباحاً . وهم يتقاسمون العالم بصورة تتناسب ورؤوس الأموال ، كما تتناسب والقوى » الموجودة » .

* * *

ان اقتسام العالم لا يعني اقتسام النفوذ الأمبريالي فيه على صعيد اقتصادي وحسب ، بل يعني بصورة خاصة اقتسام مناطق العالم ، وبقاعه وأقطاره ، بين قوى الأمبريالية. ذلك أن الموضوع الكبير هو احتكار مصادر الثروة، أي المواد الأولية التي ينتجها العالم ، ان اقتسام العالم اقتصادياً من الشركات الرأسمالية يرافقه توطد « بعض العلاقات بين الشركات السياسية » بـين الدول ، وتقوم

هذه العلاقات على اقتسام مناطق العالم ، وعلى الصراع من أجل المستعمرات، ومن أجل المنطقة الاقتصادية ».

بل أن لينين يذهب الى أكثر من ذلك ، حين يرى ان السياسة الاستعمارية للبلاد الرأسمالية قد انتهت من اقتسام العالم في بداية القرن العشرين ، أي أنه لن يحدث في المستقبل سوى اقتسام من نوع خاص ، تنتقل بموجبه بعض البقاع من « مالك » لآخر . فالقضية بالنسبة للأمبريالية وتوطدها هي قضية صراع على اقتسام العالم . « ان هذه الاحتكارات قوية خاصة حين تستولي على جميع مصادر المواد الأولية . فكلما ازداد نمو الرأسمالية ، ازدادت الحاجة الى المواد الأولية ، وازدادت المنافسة ، وارتفعت بالتالي حمى السباق على مصادر المواد الأولية في العالم ، واشتدت معها ضراوة الصراع على الاستيلاء على المستعمرات » .

هذا ما يسميه بيير جاله بـ « نهب العالم الثالث » . وهو يرى أن « البلاد الأمبريالية ليست هي التي تساعد العالم الثالث ، بل ان هذا الأخير هو الذي يساعد البلاد الأمبريالية » .

تلك هي صفة « الطفيلية الخاصة بالأمبريالية » ، وقد ندد بها لينين ، وأولاها عناية خاصة لم يسبقه اليها أحد من الباحثين . « ان الامبريالية هي تراكم هائل لرأس المال النقدي في عدد قليل من البلدان . فاذا أخذنا مثال بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر ، تبين لنا بالأرقام مايلي : في سنة ١٨٩٣ بلغ رأس المال البريطاني الموظف في الخارج نحو ١٥٪ من كامل ثروة المملكة المتحدة . وبلغت عائدات أصحاب المداخيل خمسة أضعاف عائدات التجارة الخارجية . وبينما ازداد الدخل القومي في بريطانيا بنسبة الضعف بين ١٨٦٥ - ١٨٩٨ فان الدخل الآتي من الخارج قد زاد خلال المدة نفسها تسعة أضعاف . هكذا « تنمو بصورة خارقة طبقة ، أو على الأصح فئة أصحاب المداخيل أي اولئك الذين يعيشون من قص الكوبونات وهم منعزلون تماماً عن المشاركة في أي مشروع ، فهم أشخاص مهنتهم الفراغ » .

وفي كتاب «مكانة العالم الثالث في الاقتصاد العالمي»(١) يأخذ بيير جاليه مثال الولايات المتحدة من بين أمثلة عديدة أخرى، ليبين هذا النمو الطفيلي للأمبريالية الأمريكية:

الاستثمارات الخاصة المباشرة للولايات المتحدة في الخارج

المداخيل المسترجعة بملايين الدولارات

	١٩٦٠	١٩٦٢	١٩٦٣
من كندا	١١١٩٨	١٢١٣٣	١٣٠٤٤
من أوروبا	٦٦٨١	٨٩٣٠	١٠٣٤٠
من استراليا	٩٩٤	١٢٧١	١٤٦٠
من أمريكا اللاتينية	٨٣٨٧	٨٤٢٤	٨٦٦٢
من افريقيا	٩٢٥	١٢٧١	١٤٢٦
من آسيا	٢٢٩١	٢٥٠٠	٢٧٩٣
من بلاد أخرى	٨٨٤	١٠٥٠	١٢٢٩
المجموع	٣٢٧٧٨	٣٧٢٢٦	٤٠٦٨٦

ماذا يعني ذلك؟ يرى لينين «ان المقادير الهائلة من رأس المال المتمركز في عدد ضئيل من الايدي والذي ينشيء شبكة كثيفة في منتهى السعة من العلاقات والصلات، لايخضع له فقط جمهور المتوسطين والصغار من الرأسماليين وأصحاب الأعمال، بل الصغار جداً. ثم ان النضال العنيف ضد جماعة الماليين من الأمم والدول الأخرى لاقتسام العالم والسيطرة على البلدان الأخرى، ان ذلك كله يسبب انتقال جميع الطبقات المالكة أفواجاً الى جانب الأمبريالية».

* * *

الامبريالية في جوهرها الاقتصادي اذن هي رأسمالية احتكارية، فهل يمكن تغيير أسسها بالطرق الاصلاحية؟ هل ينبغي السير الى الامام في اتجاه زيادة حدة التناقضات التي تنشأ عنها وتعميقها، أم السير الى الوراء في اتجاه تلم حدتها؟

(١) بيير جاليه - مكانة العالم الثالث في الاقتصاد العالمي - الترجمة العربية - منشورات دار البعث - دمشق ١٩٧٠ (الفصل الخاص بالاستثمارات الخاصة الامريكية).

ان تساؤلات لينين حول هذه النقطة قد فرضتها مواقف فريق من الاصلاحيين أو المناهضين « للثورة الجذرية » من أمثال هوبسون وكاوتسكي ، ويرى لينين أن « خواص الامبريالية السياسية هي الرجعية على طول الخط ، واشتداد الظلم القومي بسبب استبداد الطغمة المالية ، وازاحة المزاحمة الحرة » . لذا فانها تفضي الى التبعية والى تفاقم الظلم القومي ، وبالتالي الى اشتداد المقاومة .

ان الامبريالية بحكم هذه الخصائص هي مرحلة تاريخية ، ذلك أن الاحتكار هو « انتقال من النظام الرأسمالي الى نظام اقتصادي اجتماعي أعلى . » وهناك في رأي لينين أربعة أنواع من الاحتكارات الرئيسية ، تميز فترة النصف الاول من القرن العشرين ، أو بالاحرى « العهد الذي نحن بصدده » على حد تعبيره .

أولاً : نشأ الاحتكار عن تمركز الانتاج البالغ درجة عالية جداً من التطور . وتلك هي اتحادات الرأسماليين الاحتكارية (أي الكارتلات والتروستات) .

ثانياً : أدت الاحتكارات الى تعجيل الاستيلاء على أهم مصادر الخامات ، ولا سيما خامات الصناعات الرئيسية في المجتمع الرأسمالي ، واحتكار حيازة أهم مصادر المواد الخام بحيث زادت سلطة رأس المال الضخم .

ثالثاً — نشأ الاحتكار عن المصارف ، وقد تحولت هذه من مؤسسات وسيطة متواضعة الى محتكر لرأس المال المالي .

رابعاً — نشأ الاحتكار عن سياسة الاستيلاء على المستعمرات . فرأس المال المالي قد أضاف الى بواعث السياسة الامبريالية ، الصراع من أجل مصادر الخامات ، ومن أجل تصدير رؤوس الاموال ، ومناطق النفوذ .

لذا فان « الاحتكارات والطغمة المالية ، والنزوع الى السيطرة ، بدلاً من النزوع الى الحرية ، واستثمار عدد متزايد من الامم الصغيرة أو الضعيفة من قبل حفنة من الامم الغنية أو القوية ، كل ذلك قد خلق السمات المميزة للامبريالية » .

* * *

ماذا بقي في هذا الربع الاخير من القرن العشرين من التحديدات التي قدمها لينين عن الامبريالية ؟ هل تبدل وضعها اليوم بالقياس الى ما كانت عليه في مطلع القرن ؟ ان فئة كثيرين من الكتاب الماركسيين يرون أن الامبريالية لم

تتحسر ، بل زادت شراسة ، كما زادت في هيمنتها وتصفيتها لصيغ الرأسمالية القديمة . واذا صح أنه كان في عهد لينين صراع بين امبرياليات متعددة ، فمن الراجح أن الامبريالية الامريكية قد ابتلعت منافساتها الاخرى .

أن الامبريالية الحديثة قد قسمت العالم وفق منظارها الى فريق « البقرة الحلوب » ، وفريق المتنعم بحليب البقرة . « ان نصف العالم يسحب من أرضه ويستخرج من باطنها كل ما يمكن استخلاصه منها ، لكي يرضي حاجات خمس العالم الذي يخضع هذا النصف لسلطانه »[1].

لقد زاد جشع الأمبريالية إزاء العالم الثالث . وتفاقم بالتالي التناقض بين أغراض الامبريالية وأهداف الشعوب التي تستغلها الامبريالية . ففي خطاب ألقاه أيزنهاور حين كان رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٩٥٣ قال : « نحن نعرف أن ما يربطنا بجميع الشعوب الحرة ليس مثلاً أعلى نبيلا وحسب ، ولكنه أيضاً وبكل بساطة الحاجة . فبالرغم من كل قوتنا المادية ، فاننا نحتاج الى أسواق في العالم لنصرف فائض انتاجنا الزراعي والصناعي ، ونحن بحاجة ايضا الى مواد أولية ومنتجات حيوية توجد في البلاد البعيدة من أجل زراعتنا ومن أجل صناعتنا » . بذلك يمكن القول ان استغلال ما في العالم الثالث من ثروات ، وبخاصة من مواد الطاقة والمواد الاولية هو بالنسبة للامبريالية ضرورة حيوية . ولئن نتج عن هذا الاستغلال ازدياد تبعية الامبريالية للعالم الثالث ، فان العالم الثالث بدوره موجود الآن وسيستمر اكثر فاكثر في حال تبعية للنظام الامبريالي ، إذ أن اقتصاده تابع أو جزء من الاقتصاد الامبريالي .

حقاً ان الامبريالية لا تستطيع ، كما يقول لينين ، ان تصبح اصلاحية ولا ان تتحول الى نقيضها . فسيطرتها على العالم الثالث واستغلالها إياه هما بالنسبة لها ، أمران جوهريان ضروريان . وإذا كان الجوهر ، بحكم التعريف ، غير قابل للتغيير فان الضرورة تتفاقم الى حد انها أصبحت اليوم حيوية جداً ، وستصبح في المستقبل أكثر حيوية في مجال الطاقة والمواد الأولية . ان التنمية الاقتصادية لبلاد العالم الثالث يكبحها الاستغلال الامبريالي . ولا يمكن التحرر من هذا الكبح إلا بتعويض الاستغلال .

(١) بيير جاليه — مكانة العالم الثالث في الاقتصاد العالمي — الترجمة العربية — ص ١٨٤

فليس اذن أمام شعوب العالم الثالث من خيار سوى الكفاح لتقويض الامبريالية وظاهراتها . وبالمقابل ليس للأمبريالية نفسها الخيار أيضاً ، إذ علينا أن نصارع هذا الكفاح الذي يهدد وجودها كلياً . ومعنى ذلك أن ما هو بالنسبة للفريق الأول (العالم الثالث) الباب الوحيد المفتوح على الحياة ، هو بالنسبة للفريق الثاني نذير الموت . ولا مجال للصلح أو للهدنة بينهما .

ان جميع الدراسات والاحصاءات التي جرت منذ خمسين سنة حتى اليوم تشير الى شراسة سيطرة الأمبريالية على موارد العالم واقتصاده . فالاستيلاء على العالم الثالث واستغلاله هما الشرط المادي الأول لحياة الأمبريالية . وواضح أن على المنظمات السياسية التقدمية في العالم الثالث أن تقطع كلياً هذه الروابط مع الأمبريالية ، وذلك بنضال تحرري سياسي واقتصادي يحمل اسماً واحداً هو : الاشتراكية .

ومن المؤكد أن الشروط الموضوعية للثورة متوفرة الآن وغداً في هذا الجزء من العالم ، أعني العالم الثالث . ففيه بلغ سلب الانسان حداً لا مثيل له في أي مكان آخر . انه صارخ في مستويات التغذية ، والثقافة ، والعمل ، والحياة اليومية . لذا فان التناقض الأساسي في هذه الفترة الأخيرة ، فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، هو التناقض بين الأمبريالية والعالم الثالث .

ان الابقاء على المصالح الأمبريالية هو الذي يدفع بالامبريالية ذاتها الى أن تقوم بعملية « دمج » تضم جميع قوى الأمبريالية ، وتخفف من صراعاتها الى حد كبير . هذا لأن النضال التحرري العالمي قد اشتد واحتدم في السنوات الأخيرة ؛ وما من أحد يستطيع أن يشكك في الثورة العارمة التي تشتعل في قارات امريكا اللاتينية ، وأفريقيا ، وآسيا . بيد أن من المؤسف القول ان هذه الثورة ما تزال مجزأة الى حد ما ، وإنها تتطلب وحدة من العالم الاشتراكي والعالم الثالث تقف في وجه « وحدة قوى الشر » . ويخطىء كثيراً ، بل يغمض عينيه عن الواقع ، كل من يتصور أن الامبريالية قادرة على إصلاح ما أفسدت او يتصور أن بالامكان تعايش انظمة امبريالية وأنظمة اشتراكية . لقد ثبت حتى الآن أن التعايش السلمي بين الاثنتين قد عاد بالفائدة على الامبريالية وحدها ، لأنه أدى الى انقسام لا مبرر له في داخل القوى الاشتراكية . وكان أولى بهذه أن تزيد وحدة وتضامناً .

نظرية لينين في المعرفة

د. كامل عياد

في سنة ١٨٤٤ كتب (كارل ماركس)، وكان مايزال شاباً في السادسة والعشرين من العمر، بعد دراساته عن الاشتراكية الطوباوية والتاريخ والاقتصاد السياسي، وبعد مشاهدته احتدام المنازعات الطبقية في أوروبا كلها، وبعد اشتراكه بنفسه في الحركة الثورية في باريس، كتب يحدد الأهداف المشتركة بين الفلسفة والعمل الثوري فقال : « إن البروليتاريا التي شعرت بوجودها وقامت تناضل في سبيل حياتها هي القلب في حركة التحرر، بينما الفلسفة هي رأس هذه الحركة. ولا يمكن للبروليتاريا أن تهدم النظام الاجتماعي الراهن وتلغي نفسها إلا عندما تحقق الفلسفة ذاتها، أي عندما تتخلص من الأساطير القديمة لتصبح الشعور الحي، اليقظ، الواعي، هذا الشعور الذي لا يمكن ان يقوم نضال بدونه ... » .

كذلك قال (ماركس) في كتابه عن (فويرباخ) في سنة ١٨٤٥ : « إن الفلاسفة لم يقوموا حتى الآن إلا بتفسير العالم . على أن المهم هو تغييره » .

ترجع أهمية (لينين) التاريخية الى أنه حقق فكرة (ماركس) هذه، فجمع بين الثورة والفلسفة وجعل منها عملاً واحداً . انه كان ذلك الفيلسوف الفذ الذي تخلى عن مفهوم الفلسفة القديم ، فلم يقتصر على التأمل والتفكير المجرد، بل شارك الجماهير في كفاحها وسعى الى الافادة من تجاربها وجعل من الفلسفة المادية - الديالكتيكية طريقة للبحث والتفكير العلمي قادرة على تحليل الواقع المتجدد وعلى معرفته معرفة موضوعية -وبالتالي صالحة للتأثير في هذا الواقع- وايجاد الحلول لمشاكله المعقدة ثم تغييره . . . وقد استطاع (لينين) أن يقود الثورة الاشتراكية الكبرى، ويؤسس الاتحاد السوفياتي، ويضع الأسس لبناء الاشتراكية، ويصبح استاذاً ومرشداً للطلائع الثورية في العالم ومنارة لجميع الشعوب في طريق التحرر والتقدم . فهو لم يكن مجرد ثائر ، مثل غيره من الثوار ، بل كان في الوقت نفسه مفكراً نظرياً صاحب فلسفة خاصة عرفت باسم « اللينينية » . ولما كانت نظريته قد بنيت على أساس تعاليم (ماركس) التي جاءت لايضاحها وتعميقها ومتابعتها ، فان الاصطلاح السائد لايفصل بين الاثنين وانما يتكلم بحق عن « الماركسية - اللينينية » ليس كمذهب سياسي - اجتماعي فحسب ، بل فلسفي أيضاً .

كان (لينين) يدعو الاحزاب الثورية الطليعية في البلدان المتخلفة الى اعتناق الاشتراكية العلمية، واتخاذها سلاحاً ايديولوجياً حتى تستطيع التحرر من الامبريالية والاستعمار والاقطاع وتقضي على الرأسمالية المتفسخة . وقد قال : « ان النظرية الطليعية ينبغي أن تنير طريق الممارسة العملية وأن تساعد القوى

التقدمية على فهم المهام الثورية الملقاة على عاتقها فهماً أعمق فتقوم بدراسة الواقع على أساس علمي وتعمل على ايجاد الوسائل لتحقيق أهدافها : انه بدون نظرية لايمكن ان توجد ثورة . » [راجع رسالة لينين : مالعمل ؟ صفحة ٢٦] .

واذا كان (لينين) قد برهن على أنه قائد الثورة العالمية ورجل العمل السياسي والتنظيم الحزبي فقـــد كان أيضاً فيلسوفاً من نوع جديد ، فريد . ولا نستطيع أن ندرك أهميته التاريخية ، إلا بالرجوع الى نظريته الفلسفية وطريقته في التفكير ...

عندما انضم (لينين) ، منذ أول شبابه ، الى الحركة الثورية في روسيا القيصرية ، كان طبيعياً ان يندفع الى دراسة مؤلفات (ماركس) و (أنجلز) : على أنه لما بدأ في قراءة كتاب (رأس المال) لاحظ بأنه لا يستطيع فهمه إلا بالرجوع الى المبادىء الفلسفية التي اعتمد عليها (ماركس) ، وفي الدرجة الأولى نظرية (هيجل) في الديالكتيك .

هكذا أخذ (لينين) منذ سنة ١٨٩٥ يطالع كثيراً من المؤلفات الفلسفية ويسجل في كراريس خاصة مذكراته عنها . وعلى الرغم من أن (لينين) لم يكن يعد هذه المذكرات للطبع - وانما كتبها لاستعماله الشخصي - فقد تبين ، بعد نشرها لأول مرة في روسيا سنة ١٩٣٣ ، أن لها قيمة كبيرة لما تمتاز به من قوة ونضج ولأنها تعرض علينا أفكاره في عفويتها وبكل حرارتها كما خطرت له في حينها ولأنها تبرز منها شخصيته المتوقدة ، الخصبة ، المتدفقة حيوية . [وقد نشرت ترجمتها الفرنسية في باريس سنة ١٩٥٥] ومن أهم الكتب التي طالعها (لينين) مؤلفات (هيجل) في المنطق وتاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ ؛ ثم كتاب « العائلة المقدسة » (لماركس وانجلز) و كتابان (لفويرباخ) هما : « دروس

في جوهر الدين » و « فلسفة لايبنتز » ثم كتاب (لاسال) عن « هيرقليطس » وكتاب (أرسطو) في « ما بعد الطبيعة » وكتاب (آبل ري) في « الفلسفة الحديثة » .

لقد لخص (لينين) هذه الكتب ، ونقل عن بعضها مقاطع قصيرة لا تزيد أحياناً على جملة واحدة ومقاطع طويلة تبلغ عشر صفحات أحياناً أخرى . ونراه في الغالب يضع خطاً - أو عدة خطوط - تحت بعض العبارات ، اشارة الى أهميتها . وهناك ، على هامش النصوص المنقولة ، كثير من التعليقات والملاحظات . فكان (لينين) يقتصر في بعض الحالات على تسجيل كلمة واحدة تعبر عن التهكم أو الغضب أو التعجب ، وفي مرات أخرى كان يشرح نظرية المؤلف أو يحلل أفكاره بالتفصيل ثم يضيف رأيه الشخصي .

وقد لاحظ (لينين) في مذكراته ان (ماركس) قد طبق في كتاب (رأس المال) قواعد المنطق والديالكتيك ونظرية المعرفة التي اقتبسها عن (هيجل) ، بعد ان حررها من الزيف المثالي . على ان (ماركس) و (انجلز) ، لم يخلفا عرضاً كاملاً لفلسفتهما ومفهومهما عن العالم . فقد مات (ماركس) سنة ١٨٨٤ دون ان يتم كتابه الاساسي (رأس المال) ، عدا انه لم تسنح له الفرصة لكتابة ما كان صمم عليه من مؤلفات خاصة بالمنطق والطريقة الديالكتيكية وتاريخ الفلسفة . واذا كان (انجلز) قد اكمل الشروح عن الماركسية في كتابيه : « ضد دورينغ » و « ديالكتيك الطبيعة » ، فهو إنما فعل ذلك بقصد الجدل وتعليم الشعب عن طريق ضرب الأمثلة عوضاً عن صياغة المبادىء والقوانين والغوص في اعماق القضايا الصعبة .

ومن جهة اخرى يقول « لينين » : « ان (ماركس) و (انجلز)

قد وجها اهتمامها الرئيسي ، بطبيعة الحال ، الى اغناء الفلسفة المادية اي المفهوم المادي للتاريخ لا الى نظرية المعرفة المادية . وتبعاً لذلك فانها في مؤلفاتها المادية – الدياليكتيكية قد أبرزا الدياليكتيك اكثر من المادية ؛ وأما ، حين عالجا المادية التاريخية ، على الجانب التاريخي اكثر من الجانب المادي . »(١)

ثم يتابع (لينين) كلامه قائلاً : « الا اننا دخلنا في عصر مختلف كلياً ، تخصصت فيه الفلسفة البورجوازية بشكل خاص في نظرية المعرفة والمنهجية العلمية ، كما انها اقتبست بعض عناصر الدياليكتيك بصورة ضيقة ومشوهة (مثل نظرية النسبية) .. وقد أخذ الفكر البورجوازي يسعى لامتصاص الدياليكتيك واحتكارها موجهاً جهده ضد المادية ليصل الى اعادة بناء المثالية من « تحت » أو ايجاد نوع جديد من المثالية تشبه المادية شكلاً . . » (٢).

ويمكن القول أن الماركسية قد تعرضت في أواخر القرن التاسع عشر الى هجمات قوية من الخارج ، وأصيبت بالجمود والاضطراب من الداخل ، فأخذت تظهر في صفوف الماركسيين الاشتراكيين علامات التفسخ والانشقاق من انتهازية وتلفيقية وتحريفية . وكان (لينين) يرى أن الاتجاهات المختلفة في الحركة الاشتراكية تعبر عن مصالح طبقات وفئات اجتماعية متعددة ، كما أنها تدل على تأثير الفلسفة البورجوازية في تفكير الماركسيين . وكانت الفلسفة السائدة إذ ذاك في الجامعات الأوروبية عبارة عن مزيج من مذهب (كنط) المثالي ومذهب (كونت) الوضعي ، أطلق عليه اسم الانتقادية الجديدة . وكان الهدف الأول لهذه الفلسفة مكافحة المادية والدعوة الى مبادىء الغيبية والغائية وحرية

(١) هنري لوفيفر – فكر لينين – ترجمة ومراجعة د . كمال الغالي وأديب اللجمي وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٩ ص ١٥٠

(٢) » » » » » »

الاختبار. وقد سيطرت في فرنسا حوالي سنة (١٩٠٠) فلسفة (برغسون)، وهي تمثل الاتجاه اللاعقلاني الذي أخذ ينتشر في سائر البلدان الغربية ويؤيد النزعة الرجعية للسياسة الامبريالية.

كان من الطبيعي أن تجد هذه الاتجاهات صدى في روسيا القيصرية. وقد أخذ بعض المثقفين الاشتراكيين يتخلون عن الماركسية، بعد فشل ثورة (١٩٠٥ - ١٩٠٧) في روسيا وازدياد الإرهاب القيصري على أثر ذلك. فاعتنق قسم منهم المذاهب المثالية والصوفية والغيبية، بينما قام آخرون يدعون الى «إصلاح» الماركسية وتعديلها و «عصرنتها». واستند هؤلاء في الظاهر، الى المبدأ الصحيح القائل بأن المادية - الديالكتيكية يجب أن تتطور مع الاكتشافات العلمية الجديدة والأحداث التاريخية المتغيرة. ولكنهم في الصميم كانوا مندفعين مع ميولهم البورجوازية يسعون الى تحريف الماركسية و «تصفيتها» والسير في طريق الفلسفة الوضعية - المثالية في شكلها الجديد الذي دعا اليه الفيزيائي والفيلسوف النمساوي (أرنست ماخ) والذي عرف باسم «التجريبية - الانتقادية»...

قال (انجلز): «مع كل اكتشاف علمي كبير ومع كل تحول أساسي في العلوم الطبيعية، ينبغي على المادية أن تراجع نفسها وتعمق ذاتها وتحقق من مفاهيمها الأساسية وتوسعها»[1].

وفي الواقع فقد تمت، منذ موت (انجلز) سنة ١٨٩٥ وفي الفترة حتى سنة ١٩٠٥، تطورات علمية عظيمة مثل اكتشاف الالكترون (الكهرب) أشعة (رونتجن) والنشاط الاشعاعي، كما ظهرت نظرية «الكم» لـ «بلانك» والنظرية النسبية لـ «آينشتاين». ومن المعروف أن الفيزياء الكلاسيكية كانت

(١) الصفحة نفسها من المرجع السابق.

منذ عهد (ديموقريطس) و (أبيكوروس) تتصور العالم كمجموع جزئيات مادية هي الذرات التي تتحرك بصورة آلية « ميكانيكية » ، حسب قوانين ثابتة اكتشفها (نيوتن) في أواخر القرن السابع عشر . وكانت النظرة الميكانيكية تتضمن فلسفة عن المــادة هي في جوهرها فلسفة ثبوتية ، مطلقة ، تقريرية (دوغماطية) أي فلسفة مادية - ميتافيزيائية . ولكن الاكتشافات الجديدة كانت تناقض مبادىء الفيزياء الميكانيكية . فقد ظهر أن جسماً بسيطاً مثل (الراديوم) كان « ينفتت » ، وأن الذرة كانت « تنشطر » و « تتحطم » الى حبيبات كهربائية ، وأن كتلة (الالكترون) تكون صفراً ما دام لا يتحرك ، ولكنه عندما يسافر ، يذوب وينحل الى حقل مغناطيسي ضمن المكان المحيط كلــه ...

بالاستناد الى هذه الظواهر ، أخذ الفلاسفة الوضعيون والمثاليون يعلنون أن الذرة « تتجرد » عن المادة وأن المادة « تتبخر » و « تتلاشى » . وقــد استنتج هؤلاء أن الذرات ليس لها نصيب من الحقيقة والواقع ، وأنها لا تختلف عن الفيل المقدس الذي كان الهنود القدماء يعتقدون بأنه يحمل الأرض على ظهره . ثم قالوا بأن العالم - كله - ليس سوى محصول الفكر الانساني الذي خلقه . وذهب عالم كبير مثل (هنري بوانكاريه) في كتابه (قيمة العلم) الى أن مفهومي الزمان والمكان لا تفرضها الطبيعة علينا ، وإنما نحن الذين نفرضها على الطبيعة . وبذلك اتبع رأي الفلاسفة المثاليين في دعواهم بأن المقولات ليست مستمدة من الطبيعة ، وإنما هي من انتاج شعور الانسان وتفكيره .

وقد رأى (لينين) من واجبه أن يدرس القفزة الثورية التي حققها علم الفيزياء منــــذ عهد (أنجلز) ، وأن ينتقد الاستنتاجات التي حاولت استخلاصها

التيارات الفلسفية الوضعية والمثالية ، وأن يرد بصورة خاصة على مذهب (ماخ) التجريبي - الانتقادي الذي شاع إذ ذاك وأصبح خطراً على التفكير الماركسي ، فأقدم على تأليف كتابه « المادية والتجريبية - الانتقادية » .

كان (لينين) يعيش منفياً في (جنيف) . فعكف منـــذ أول سنة ١٩٠٨ على دراسة أكثر من (٢٠٠) كتاب في العلوم الطبيعية والفلسفة ، وسافر لبضعة أشهر الى (لندن) لمراجعة الكتب الـــتي لم يعثر عليها في (جنيف) . وقد تركز اهتمامه على الفيزياء النظرية ، وطالع بالأخص مؤلفات (ماخ)و (اوستوالد) و (هرتز) و (بولتزمان) و (هنري بوانكاريه) و (آبل ري) . وانتهى في آخر السنة من تأليف كتابه الذي نشر في (موسكو) في أيار ١٩٠٩

يهدف (لينين) في كتابه الى شرح النظرية المادية - الديالكتيكية، وتعميقها بالاستناد الى التطور العلمي الحديث . وقد وجه انتقاداته ، في الدرجة الأولى ، الى فلسفة (ماخ) التجريبية - الانتقادية . وكان (ماخ) يزعم بأن تطور الفيزياء الحديثة يدفعه الى اتخاذ موقف وسط ، محايد بين المادية والمثالية . ولكنه كان في الواقع ، كما أوضح (لينين) ، ينكر وجود المادة . ويدعي بأن ما نسميه مادة ليس سوى علاقة معينة ، منتظمة بين الاحساسات . إنه كان يسعى الى تجريد الذرات من ماديتها ، وقلبها الى مجرد مراكز قوة كأنها « أرواح مصغرة » . وموضوع العلم في نظره ليس البحث في العلاقة بين الأجسام ، بل في العلاقة بين الإحساسات أو « العناصر » . كذلك أنكر (ماخ) السببية الفعلية واستبدل بها مفهوم « التطابق الوظائفي » ، كما حاول أن يحطم المفاهيم الأساسية في الميكانيك (مثل القوة والكتلة) مدعياً أنها لا تعكس الواقع الموضوعي ، بل هي فرضيات لتسهيل البحث .

وقد كشف (لينين) عن أن (ماخ) يرجع في فلسفته ليس الى (كنط) ، بل الى ما قبله ، الى (بركلي) الذي أنكر وجود المادة بالمرة وقال إن الأشياء موجودة في فكرنا فقط وليس لها أي كيان خارج شعورنا . ومن الواضح أن فلسفة (بركلي) المثالية - الذاتية كانت تهدف الى خدمة العقيدة ، وإثارة الغموض والالتباس في سبيل الدفاع عن مصالح الطبقات الرجعية . وينقل (لينين) عن الفيلسوف الفرنسي (ديدرو) عبارة يصف فيها مذهب (بركلي) قائلاً : « إنه من الصعب جداً مكافحة هذا المذهب رغم انه أسخف المذاهب كافة وأبعدها عن العقل »(١) .

وقد خصص (لينين) عدة صفحات للبحث في فلسفة (بركلي) ثم قال : « لم يأت أحدث الفلاسفة المثاليين بأي حجة ضد المادية ، الا ونجدها لدى الأسقف (بركلي) »(٢) .

يرى (لينين) أن الخطأ الأساسي في مذهب (ماخ) هو أنه يجهل الفرق بين المادية الميتافيزيائية والمادية الديالكتيكية ، وأنه لذلك وصف « العناصر » التي يتألف منها جوهر الأشياء بأنها لا تتبدل . ثم يطلق (لينين) كلمته المشهورة : « لئن لم تتجاوز المعرفة في الماضي حدود الذرة ولم تتجاوز اليوم الأثير أو الالكترون ، فإن المادية الديالكتيكية تلح على الطابع الانتقالي والنسبي والتقريبي لجميع صوى المعرفة المتزايدة عن الطبيعة بواسطة علم الانسان . فالطبيعة لا نهائية والإلكترون لا ينضب معينه ، شأنه شأن الذرة » . ويضيف قائلاً : « إن الفيزياء المعاصرة في حالة انتقال .... وعلماء الطبيعة يتجهون نحو المادية الديالكتيكية رغماً عنهم ولو بطرق ملتوية ، خطوة الى الأمام وأخرى الى الوراء »(٣) .

---

(١) لينين، المادية والتجريبية - الانتقادية، موسكو ١٩٥٢ الطبعة الفرنسية ص ٢٦
(٢) » » » » » » » ص ٢٩
(٣) فكر لينين ص ١٧٣ - ١٧٤

وقد أشار (لينين) الى أن الأزمة التي حدثت في العلوم الطبيعية كانت نتيجة لانحراف بعض الباحثين نحو الآراء الوضعية والاتجاهات الفلسفية المثالية أو اللاأدرية ، وأوضح أن الاكتشافات الحديثة في الفيزياء لا تنقض المادية ، بل على العكس تؤيد المادية الديالكتيكية . وأهمية كتاب « المادية والتجريبية - الانتقادية » ترجع الى أن (لينين) قد شرح فيه المادية الديالكتيكية بشكل جديد يتلاءم مع مستوى التطور الذي بلغته العلوم الطبيعية في أوائل القرن العشرين، كما بين أن المادية - الديالكتيكية هي الطريقة الوحيدة التي تصون الباحثين من الجمود والانحراف وتساعدهم على التقدم في المعرفة . ومما يؤيد ذلك أبحاث علماء عظام مثل (لانجوان) و (جوليو - كوري) و (برنال) . وقد صرح (لانجوان) بأنه لم يفهم تاريخ الفيزياء في العقود الأخيرة الا بالاستناد الى المادية - الديالكتيكية .

يستدل من « المذكرات الفلسفية » أن (لينين) قد انصرف الى مطالعة كتب (هيجل) من جديد ، والى تسجيل ملاحظاته وتعليقاته عليها بين أيلول سنة ١٩١٤ وأيار ١٩١٥ ، أي في الفترة التي اشتعلت فيها نيران الحرب العالمية الأولى وانساق فيها عمال البلدان الامبريالية الى قتل بعضهم بعضاً في سبيل مصالح أعداء طبقتهم . أليس في منتهى الغرابة أن نرى في هذا الوقت العصيب بالذات رجلاً مثل (لينين) ، المناضل عن الكادحين ، يعتكف في منفاه بجنيف ، في عزلة تامة بعد انهيار الأممية الثانية ليقرأ مؤلفات فيلسوف مثل (هيجل) ، هو أكثر الفلاسفة مثالية وغموضاً وأن يركز اهتمامه على علم المنطق الذي هو أكثر مؤلفاته تجريداً ؟

إننا لا نجد في « المذكرات » ذكراً للحرب أو الامبريالية ، وإنما يدور

البحث حول نظرية المعرفة والديالكتيك . ولكننا ، اذا أمعنا النظر ، نلاحظ أن (لينين) إنما كان يدرس آراء (هيجل) دراسة دقيقة ، انتقادية ليستخلص منها المبادىء التي يمكن أن تساعده على تحليـــل الوضع التاريخي الراهن تحليلاً صحيحاً . ان هذا الوضع هو الذي كان يشغل فكره باستمرار .

وعندما نراه يستنسخ كلمات (هيجل) التي تقول : « ليس كل تجاوز للحدود يعني التحرر » فهو إنما يقصد انتقاد الأحلام الرومانتيكية ، الطوباوية ، الفارغة كنظرية الزعيم الاشتراكي (كاوتسكي) التي تدعي امكانيـــة قلب الامبريالية الى نظام عالمي للاقتصاد يتغلب على جميع التناقضات ويقضي على الأزمات والحروب . وقد أوضح (لينين) في مقالات كتبها إذ ذاك ، أن هذه النظرية بعيدة عن الحياة الواقعية وأنها لا تهدف الا الى صد العمال عن الكفاح الحقيقي ، الثوري ضد الامبريالية . ثم أشار الى أن المجتمع الرأسمالي قد تجاوز حدوده في الفوضى وبحور الدم ، ولكنه أضاف قائلاً : « ان ذلك وحده لا يعني الثورة والتحرير ، لأنه لا يمكن حدوث ثورة الا إذا اقترن وجود أزمة موضوعية ، اقتصادية واجتماعية ، مع وجود عنصر ذاتي مثل الوعي الجماهيري والقيادة الطليعية أو عجز الطبقات الحاكمة .

حقاً ، لقد أخذ (لينين) يقرأ مؤلفات (هيجـل) وبعيد قراءتها في وقت برزت فيه كل تناقضات المجتمع الرأسمالي . وبينما كان غيره من السياسيين لا يرى في نشوب الحرب العالمية سوى فوضى دموية أو تصادم بين حقوق الدول المختلفة ، أدرك (لينين) أن الأمر عبارة عن انفجـــار للتناقضات الباطنية . وللتحقق من صحة نظريته في التناقض ، عاد (لينين) الى دراسة واضع الطريقة الديالكتيكية . وقد استخلص من أقوال (هيجل) أن مرحلة التمزق التي يبدو

فيها ان الاصطدام بين العناصر المتناقضة لا مفر منه ، يمكن أن تكون أيضاً هي مرحلة بزوغ الحل وبدء مرحلة جديدة تتطلبها الأوضاع التاريخية وتتوق اليها الجماهير البشرية . وبعبارة أخرى فإن (لينين) كان يريد مراجعة (هيجل) للتحقق من صحة نظريته الخاصة القائلة بأن « مرحلة الامبريالية والحروب العالمية هي مرحلة الثورات أيضاً » ، كما شرح ذلك في كتابه المشهور : « الامبريالية أعلى مراحل الاستعمار » .

وهكذا فإن التأمل الفلسفي لم يكن جهداً عبثاً ووقتاً ضائعاً لرجل العمل الثوري ، لأنه من هذه التأملات كان يستمد النور والقوة اللذين سوف يرافقانه عند تحقيق أهدافه العظيمة في سنة ١٩١٧ . فالنظرية والممارسة العملية متلازمتان في المادية — الديالكتيكية ، تتمم احداهما الأخرى . وقد بدأ (لينين) منذ خريف سنة ١٩١٤ النضال وحيداً ، معارضاً التيار العام ، كما قال في عنوان سلسلة المقالات التي نشرها إذ ذاك ، لأنه كان يعرف أن هناك تياراً آخر أكثر عمقاً هو التيار الثوري ...

إن الديالكتيك التي اتبعها (لينين) ، مثل (ماركس وأنجلز) قبله ، تقول إن كل شيء في الطبيعة والمجتمع بحالة تطور وتجدد لا ينقطعان وإن حركة التطور ليست حركة نمو بسيطة ، بل هي معقدة تقدمية ، صاعدة ، تنتقل من الأدنى الى الأعلى ومن التغيرات الكمية الى التغيرات الكيفية وإن هــذه التغيرات الحتمية سريعة ، فجائية ، وتحدث بشكل قفزات من حالة الى أخرى كنتيجة للتناقضات الباطنية والنضال بين المتضادات ..

ان أول فيلسوف حديث كشف عن أهمية الديالكتيك هو (هيجل) ، الذي انتبه الى التطور في العلوم والتاريخ وأراد أن يعرف ماهية الحركة والتغير

في الكون وقوانينها . وقد رجع (هيجل) الى الفيلسوف اليوناني القديم (هيرقليطس)، الذي اعتقد في الواقع بأن هذا العالم الذي نشاهده انما هو مظهر لمادة كونية حية . وتصور أن المادة الأصلية يجب أن تكون النار . وهو يقول: «إن هذا العالم لم يخلقه أحد الآلهة أو البشر ولكنه كان منذ الأبد وسوف يبقى حتى الأزل، إنه نار حية لا تنطفىء يشتد لهيبها أحياناً ويخبو أحياناً . » وقد وجه (هيرقليطس) اهتمامه الى التغير الدائم في هذا العالم وذهب الى أننا لا نستطيع ادراك حقيقة الأشياء إلا اذا عرفنا كيفية حدوثها ونشأتها، وهو يؤمن بوحدة الضدين وارتباط النقيضين ويقول : « ان الأضداد ، مثل الموت والحياة ، الخير والشر ، الشباب والشيخوخة ، ليست سوى مراحل في حركة مستمرة وتغير غير متناه ، وان كل واحد من الضدين ضروري لوجود الآخر ولإدراك معناه . والوجود انما هو الوحدة ، والانسجام بين الأضداد . »

وقد علق (لينين) في مذكراته الفلسفية على كلام (هيرقليطس) بقوله : « ياله من شرح رائع لمبادىء المادية الديالكتيكية ! »

على أن (هيجل) ، الذي أخذ مبدأ الديالكتيك عن (هيرقليطس) و (زينون الايلي)، قد بحث في ماهية الديالكتيك وقوانينها بالاستناد الى فلسفته المثالية . فذهب الى أن الفكرة المطلقة هي المبدأ الأول والواقع الوحيد ، وهي بذاتها خالقة الطبيعة وصانعة التاريخ . وكان (هيجل) يعتقد أن التطور في الفكر ، هو الذي يحدث التغيرات في المادة . والكون في نظره، انما هو تجسيد للفكرة . وقد اقتبس (ماركس) من ديالكتيك (هيجل) « نواتها العقلية وطرح قشرتها المثالية » ، أو كما قال (أنجلز) : « كانت الديالكتيك قائمة على رأسها ، فقلبها (ماركس) ووضعها على قدميها . »[1]

---

(١) هيجل ، ضد دوورينغ ص ٤١٦

أما (لينين) فقد تعمق في دراسة (هيجل) ، الذي لايجد كلمات تكفي للثناء عليه ؛ وتابع البحث في طريقته الديالكتيكية . وهو يعترف بأن ديالكتيك (هيجل) مقلوبة من وجهة نظر مادية ، ويضيف قائلاً : « ان اكمال عمل (هيجل) و (ماركس) ينبغي أن يقوم على الإنضاج الديالكتيكي لتاريخ العلوم والتقنية والتفكير البشري »[1] .

لقد أدرك (هيجل) ما لم يدركه غيره من الفلاسفة قبله : أدرك أن التفكير ليس شيئاً جامداً يقتصر عمله على تلقي الانطباعات . ان التفكير في نظره عبارة عن « فعالية حية » و « عملية منطقية » تتضمن الكشف والنمو والتقدم . فالفكر « يتحرك » بصورة تطورية ، تدريجية ، وينتقل من البسيط الى المركب ، من القضية الى نقيضها ، ثم يجمع بين النقيضين في تركيب أعلى يصبح بدوره قضية تستدعي نقيضها ثم التركيب والخ . وقد تتبع (هيجل) في كتاب (الفينومنولوجيا) تطور شعور الانسان ، من مظاهره البدائية الأولى حتى مرحلة الوعي في المعرفة العلمية وطرائق البحث العلمي . والى جانب النظرة التاريخية التي امتاز بها (هيجل) والتي ساعدته على استعراض نشأة الفكر البشري وتطوره ، يتضمن الكتاب أيضاً المبادىء الأساسية للديالكتيك وبيان التطابق والوحدة بين الفكر والوجود . وفي كتاب (المنطق) بحث (هيجل) مفصلاً في الديالكتيك فتكلم عن قانون انقلاب التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، وعن مبدأ التناقض باعتباره الحافز الأساسي لكل تطور . كما عرف قانون « نفي النفي » وديالكتيكية الصورة والمحتوى ، والكلي والجزئي ، وشرح مقولات الواقع والحتمية والصدفة . والى (هيجل) يرجع الفضل في أنه حرر المقولات من الجمود الميتافيزيائي ، ومن

(١) فكر لينين ص ٢٤٤

تصنيفها في أنواع ينحصر كل واحد منها ضمن قفص معزول. فهو الذي ادرك ترابطها العضوي الديناميكي ، وحركتها الضرورية التي تجعلها تتحول بعضها الى بعض . . .

وقد رأى (لينين) أنه ، لأجل الاستفادة من ميراث (هيجل) الفكري» يجب عليه أن يقلب طريقته الديالكتيكية ، كما فعل (ماركس) ، وأن ينظر اليها من الوجهة المادية فيبعدها عن المثالية و «الصوفية» ، ويعود بها الى بيئتها الأصلية ، الى الطبيعة . وهو يلاحظ بأنه اذا كان الفكر البشري «ديالكتيكياً» فذلك لأن الطبيعة ذاتها هي ديالكتيكية . .

ان نظرية (لينين) في المعرفة ، لا يمكن فصلها عن نظرته المادية الى الكون . والمنطق الديالكتيكي ، في رأيه ، لا يجوز أن يقتصر على دراسة قوانين الفكر ، بل ان موضوعه يشمل دراسة أعم قوانين الكون التي يخضع لها الفكر نفسه . وبما أن هذه القوانين الكونية تنعكس في الفكر ، لذلك كانت المعرفة العلمية ممكنة . قال (لينين) : «ليس المنطق عبارة عن نظرية الأشكال الخارجية للفكر ، بل هو نظرية قوانين التطور لكافة الأشياء المادية ، الطبيعية والفكرية ، أي قوانين تطور كل المحتوى المشخص للكون وتطور معرفة هذا المحتوى ؛ فهو الخلاصة والنتيجة المستنبطة من تاريخ معرفة هذا الكون .»(١)

فالفكر ، اذن ، لا يقوم بمهمته في المعرفة الا بقدر ما يعكس القوانين الموضوعية للكون . والخطأ الأساسي في كل النظريات «البراغماتية» و «التجريبية ـ الانتقادية» هو الفصل بين الصورة والمحتوى . وكانت الفلسفة المثالية تفصل بين الذات والموضوع ، ثم تنغمس في تأملات ميتافيزيائية تجعل من المعرفة مشكلة

(١) الدفاتر الفلسفية ص ٧٦

يستحيل حلها ، إذ تدعي بأن الذات الواعية لايمكنها ادراك الموضوع المختلف عنها في العالم الخارجي ، ولذلك كانت هذه الفلسفة إما أنها تنكر وجود العالم الخارجي بالمرة ، كما فعل (بركلي) ، أو تزعم اننا لانستطيع معرفة « الأشياء بذاتها » أي الوجود الحقيقي ، كما فعل (كنط) . وخلافاً للفلسفة المثالية التي تذهب الى أن الفكر أو الشعور هو العنصر الأول والأهم في الكون وأن هذا العنصر الفكري أو الروحي هو أصل الوجود وهو الذي يخلق المـــادة ، تقول الفلسفة المادية أن العالم ليس سوى مادة موجودة خارج شعورنا وهذه المادة هي العنصر الأول وقد وجدت قبل أن يوجد الشعور . ان المادة هي مصدر الشعور ولم يظهر الشعور والفكر الا بعد عملية تطور طويلة في العالم المادي ، فالشعور هو إحدى وظائف الدماغ وخصائصه ، وليس الدماغ سوى مادة بلغت درجة عالية من التطور . ان الشعور يظهر كنتيجة لفعالية الانسان في العمل المادي وتحت تأثير الحياة الاجتماعية ، ولا يمكن أن يوجد الفكر ويتطور دون الهيكل المادي اللغوي ، أي النطق .

يقول (لينين) : « تؤكد المـــادية أن الكائن الواقعي الموضوعي ــ أي المادة ــ هو مستقل عن الادراك وعن الاحساسات وعن التجربة . وليس الادراك ، الا انعكاس الكائن في العقل . والمادة هي التي تنتج الاحساسات عن طريق التأثير في حواسنا ، أي ان المادة والطبيعة والموجود الفيزيائي هي العنصر الأول ، بينما العقل والادراك والاحساسات والموجود النفسي هي العنصر الثاني »[1]

ليس هناك من معرفة ، دون موضوع يطلب معرفته . وليس هناك من علم طبيعي ، دون طبيعة . فاما أن تكون معرفتنا عبارة عن وهم كبير ، أو حلم

(١) مؤلفات لينين – الطبعة الروسية ، المجلد ١٣ ص ١١٩ – ١٢٠

مستمر أو افتراض خيالي ، واما أن يكون هناك ، خارجاً عنا ، قبلنا وبالتـالي بدوننا، عالم خارجي وطبيعة تعرفها علومنا الطبيعية من فيزياء وكيمياء وجيولوجيا والخ . وهكذا فان كل باحث علمي هو بالضرورة مادي .

يعتقد (لينين) ان الماركسية قد اجتازت الهوة التي كانت قائمة في الفلسفة المثالية بين قوانين العالم الموضوعي وقوانين المعرفة ، بين المحتوى والصورة ، بين الواقع والتفكير المنطقي . وهو ينظر الى الديالكتيك على أنها نظام علمي مؤلف من القوانين والمقولات والمفاهيم التي تعكس العالم الموضوعي والتي تشكل أداة مرنة ، صالحه للمعرفة والعمل الثوري ، كما كان يلح على وحدة الديالكتيك والمنطق ونظرية المعرفة .

وفي « المذكرات الفلسفية » يؤكد (لينين) دوماً ضرورة دراسة تاريخ العلوم المختلفة ودراسة تطور عقل الطفل وتطور اللغة والعلاقة بين تطور اللغات وقوانين الفكر ، ثم ضرورة البحث في الطبيعة الديالكتيكية للمفاهيم والمقولات والأحكام والاستدلالات حتى تدرك عملية انعكاس الواقع الموضوعي في الدماغ البشري ..

إن المعرفة في نظر (لينين) ، عملية ديالكتيكية معقدة تتم في أشكال مختلفة وتمر بمراحل ودرجات من التطور وهي تستلزم اشتراك قوى الانسان وقدراته المتنوعة . إنها عملية انعكاس الواقع في الفكر الانساني تحت تأثير قوانين التطور الاجتماعي وعلى اتصال وثيق بالممارسة العملية ، وغايتها هي بلوغ الحقيقة الموضوعية ثم العمل على اخضاع الطبيعة لحاجات الانسان ومتطلباته وبالتـالي تغيير العالم ...

إن الفلسفة الماركسية ـ اللينينية قد كشفت عن الترابط بين المعرفة

والممارسة العملية ، وبذلك استطاعت أن تقلب نظرية المعرفة الى علم حقيقي يبحث في القوانين الموضوعية المتعلقة بأصل المعرفة وتطورها وقيمتها .

يؤكد (لينين) - دوماً وباصرار - الدور الذي تلعبه الحياة العملية كوسيط بين الكون والفكر ، بين الموضوع والذات . فهو يقول : « إن عملية المعرفة تتضمن تجارب الانسان العملية والتقنية . فالحياة هي التي تولد الدماغ . وفي دماغ الانسان تنعكس الطبيعة . وعن طريق تمحيص هذه الانعكاسات واختبار صحتها ثم عن طريق تطبيقها في عمله وصناعته يتوصل الانسان الى الحقيقة الموضوعية[1] » .

عندما تبني الأقوام البدائية أكواخها ، فهي لاتعرف شيئاً عن الهندسة والفيزياء ومقاومة مواد البناء . واذا رأينا الأكواخ تبقى - رغم ذلك - قائمة فذلك لأن التجارب التي اكتسبتها هذه الأقوام في حياتها العملية تطابق القوانين الطبيعية التي يتوصل العلم فيما بعد الى اكتشافها وصياغتها . وهكذا فان تجارب الناس العملية التي تكفل بقاء الجنس البشري ، يمكن اعتبارها مرحلة في عملية المؤالفة العامة التي تضمن بدورها بقاء كل الأحياء وتطورها . والمعرفة العلمية نفسها ، هي أيضاً مرحلة جديدة في هذه العملية . انها المرحلة التي تنقلب فيها التجربة العملية المتكررة الى مفهوم عام . إن المؤالفة تعني الوحدة بين البيئة والكائن الحي . واذا كان الجنس البشري ، وهو ينتقل منذ آلاف السنين من المؤالفة الى التجربة العملية ومن التجربة الى المعرفة ، قد استطاع البقاء والازدهار فذلك بالتأكيد لأنه لم يخالف هذا القانون الأساسي عن الوحدة بين الكائن الحي وبيئته ، بل على العكس ، إنه استفاد منه الى أقصى حد لذلك لا قيمة لجميع التأملات النظرية

(١) الدفاتر الفلسفية ص ١٦٦

حول عجز الانسان عن معرفة الأشياء بذاتها . فقد أثبتت الممارسة العملية إمكان ذلك منذ زمن طويل . وفي الواقع فإن الكون في ذاته ، يمكن معرفته . ولولا ذلك ، لما بقي شخص واحد على الأرض لمناقشة هذا الموضوع .

إن الممارسة العملية تؤثر في الأشياء الطبيعية لاستخدامها في الانتـــاج وقضاء حاجات الانسان ؛ ولهذه الغاية فهي تهتم بالصفات التي تدل على وظائف هذه الأشياء وجوهرها الموضوعي والتي تصبح ميداناً للمعرفة البشرية في صورة مفاهيم عامة ونظريات .

تبدأ التجربة والممارسة العملية بالادراكات الحسية . وهـــذا الاتصال المباشر بالعالم الموضوعي ، يلعب دوراً كبيراً في عملية المعرفة . لأن الانسان لايستطيع أن يعرف شيئاً عن الواقع دون إحساسات وادراكات وانطباعات ، ودون تقصي الحوادث وملاحظة الظواهر . إنه عن طريق تمييز صفات الأشياء وخصائصها من حرارة وألوان وروائح ومرونة وصلابة والخ ، وعن طريق ادراك العلاقة بين المظهر الخارجي والوظيفة ، يتوصل الانسان الى مؤالفة العالم الخارجي .

على ان الإدراك الحسي ، مهما كانت أهميته ، لايكفي وحده للنفوذ الى جوهر الأشياء واكتشاف قوانين الواقع . فلا بد لذلك من الانتقال من معطيات الشعور المباشر ، الى درجة أعلى من المعرفة : الى التفكير المجرد المنطقي الذي يستعين بصور الأشياء المخزونة في المخيلة لتكوين مفاهيم عـامة وإصدار أحكام . وتتجلى فعالية الفكر هـــذه في أشكال مختلفة ، من استقراء واستدلال ومقارنة وتحليل وتركيب وتجريد وتعميم ووضع الفرضيات والنظريات . كذلك فان التصور والخيال المبدع والحدس ، تساعد على تكوين الأفكار العامة الضرورية في عملية المعرفة .

يلعب « المفهوم » دوراً هاماً في المعرفة . وقـــد وصفه (لينين) بأنه « أسمى انتاج للدماغ البشري الذي هو بدوره أسمى انتاج للمادة » [1] . فهو محصول المعرفة المتطورة تاريخيا . إنه يلخص نتائج التجربة والممارسة العملية والاجتماعية ، إن وظيفة المفهوم الأساسية هي تحديد صفات الأشياء وتمييزها من وجهة نظر العمل والمعرفة وربط الأشياء بكلمات ذات معان محددة .

إن كل علم من العلوم يستخدم مفاهيم ومقولات محـــددة، تركزت فيها المعارف والتجارب التي جمعت في هذا العلم . وكثيراً ماتوضع المفاهيم العلميـة بادىء الأمر - كافتراضات فقط فيما يتعلق بوجود الأشياء وطبيعتها . هكذا مثلا نشأ مفهوم الذرة . وفي بعض الأحيـــان ، يوضع المفهوم قبل وجود الشيء ذاته - بالاستناد الى معرفة قوانين التطور واتجاهاته - كما هو الأمر مع مفهوم الشيوعية مثلا ...

ان المفـــاهيم ليست ثابتة ، نهائية ، مطلقة ، بل هي في تطور وتبدل وتقدم تسعى دوماً الى أن تعكس الواقع الموضوعي بصورة أكمـل وأفضل . يقول (لينين) : « ينبغي أن تكون المفاهيم مشحوذة ، مشغولة ، مرنة ، متحركة ، نسبية ، مرتبطة فيما بينها ، متحدة في تناقضاتها ، لكي تحتضن الكون ولعكسه حقاً » . [2]

يبـــدو المفهوم كأنه انحراف عن الواقع ، لأنه نتيجة لعملية تجريد . والتجريد إنما يعني أن نعزل في الفكر صفات الشيء بعضها عن بعض ، ونفصل بين روابط هذه الصفات لنبرز بعض الجوانب دون غيرها . وبمـــا أن تمييز الصفات الهامة من التافهـــة وتحديد الجوانب الجوهرية ، يتوقفان على مدى ملاحظتنا

(١) مؤلفات لينين ، المجلد ٣٨ ص ١٦٧
(٢) « « « « ص ١٤٦

ومشاهداتنا وتجاربنا ومعلوماتنـــا ، وبما أن كل ذلك كثيراً مايخضع لاهتمامات شخصية وعوامل ذاتية ، فإن المفاهيم لاتعكس في الغـــالب الواقع الموضوعي المشخص بصورة كاملة .

بالاستناد الى صفة المفاهيم المجردة، فان الفيلسوف المثالي (كنط) لايرى في المفاهيم العامة أو المقولات سوى أشكال وقوالب للفكر مستقلة عن التجربة ومعطـــاة بصورة سابقة لكل تجربة ، أي انه يعتبرها فطرية لدى الانسان ، أبدية لاتتبدل .

إلا ان علم النفس ونظرية المعرفة المادية والعلمية ، قد كشفا عن ان الانسان يولد دون أي مفهوم وان المفاهيم إنما تتكون لدى الشخص ولدى البشرية كلها عبر الممارسة العملية وعلى أساس تجارب الحياة . يقول (لينين) : « ان المفاهيم ذاتية في تجريدها وانعزالها ، ولكنهـا موضوعية في مصدرها ونشأتهـا واتجاهها وكليتها : انها ذاتية مادامت مجردة ، ولكنها في الوقت نفسه تعبر عن الأشياء الواقعية » . (١)

وقد حذر (لينين) من امكانية الانحراف نحو المثالية حتى في أبسط عملية تجريد ، وذلك عندما تقلب المفاهيم والأفكار المجردة الى ماهيات مطلقة ومبادىء كونية أولية .

على الرغم من ذلك ، فان التجريد مرحلة لابد منها للوصول الى المعرفة . ولا سبيل الى الكشف عن جوهر الأشيـــاء والنفوذ الى أعماقها ، إلا عن طريق المفاهيم والمقولات المجردة . والفكر في عملية التجريد إنما يعزل الصفات الجوهرية والجوانب الأساسية ليستطيع تحليلها من كل الوجوه في صورتها المحضة . إن

(١) الدفاتر الفلسفية ص ١٧١

تطور التجريد واستخدام الوسائل اللغوية للتعبير عنه، كان لها تأثير كبير في فعالية الانسان العلمية وفي تقدم حضارته المادية والفكرية عامة .

فالتجريد شرط لا يمكن الاستغناء عنه في التعميم وتكوين المفاهيم . ولم تنشأ العلوم إلا بعد أن تطور الفكر البشري الى درجة معينة من القـــدرة على التجريد . إلا ان قدرة الانسان على التجريد هي سلاح ذو حدين . فهي مثل باب تفتحه البشرية لتمر منه الحقيقة ومعها كثير من الأخطاء. وكما يقول المثل الهندي: لو بقيت جميع الأبواب موصدة تماماً للحيلولة دون الأخطاء كافة، لما أمكن أن تدخل الحقيقة الى وجدان الناس .

وقد أوضح (لينين) أهمية التجريد في عملية المعرفة ، إذ قال :

« عندمـــا ينتقل الفكر من المشخص الى المجرد ،فانه إذا اتبع الطريق الصحيحة ، لا يبتعد عن الحقيقة ، بل يتقرب منها . فالمفاهيم المجردة - مثل المادة والقانون الطبيعي والحركة والقيمة ، وباختصار جميع المجردات العلمية الصحيحة - تعكس الطبيعة بصورة أكثر عمقاً وشمولاً وأقرب الى الحقيقة (من الادراك المشخص) [1] » .

إن نظرية (لينين) في المعرفة - التي اشتهرت باسم « نظرية الانعكاس » - تنطلق من المبدأ الماركسي القائل : « ليس شعور الناس هو الذي يحدد وجودهم ، بل على العكس فان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد شعورهم » ، أي ان مشاعر البشر وأفكارهم وعقائدهم إنما تعكس وجودهم وطريقة حياتهم. وقد أشار (ماركس وانجلز) في كتاب «الايديولوجيا الألمانية» الى المشاكل التي تتصل بهذه النظرية ، إذ لاحظا ان هذا الانعكاس ليس بسيطاً أو مباشراً ، كما أوضحا ان الايديولوجيات هي انعكاسات مشوهة ، منحرفة ، بعيدة عن الواقع . ثم بحثـــا في كيفية نشأة

(١) مؤلفات لينين ، المجلد ٣٨ ص ١٧١

الايديولوجيات من الوجهة التاريخيـــة ، فربطا بينها وبين تقسيم العمل في المجتمع والفصل بين العمل الفكري والعمل المادي ، ووصفا كيف يفقد العمل الفكري كل صلة بالواقع والممارسة العملية . كذلك نراهما يرجعان نشأة الايديولوجيات الى اختلاف الحكم وطرائق الانتاج وانقسام المجتمعات الى طبقات تعبر كل منها عن مصالحها فيما تعتنقه من أفكار وقيم أخلاقية وعقائد دينية ، وفيما تستخدمه من معارف علمية ...

وكان لا بد من متابعة ابحاثها، وتكرار التحليل والتعمق في المشكلة من الوجهة الفلسفية أيضاً . وقد أدرك (لينين) ذلك إدراكا تاماً . فرأى أن الانعكاس (أو التفكير) يجب أن لا يكون مجرد انعكاس اجتماعي (أي عبارة عن بنية فوقية ايديولوجية) ، بل ينبغي أن يكون في الوقت ذاته وبصورة متناقضة انعكاساً للواقع وللعالم الخارجي . يجب أن لا يعتبر التجريد نتاج تقسيم العمل فحسب ، بل أداة ووسيلة للمعرفة أيضاً . يقول (لينين) : « إن المعرفة ، هي الطبيعة في فكر الانسان » (١) .

إن وصف الشعور بأنه انعكاس ، لا يعني أنه عبارة عن «ظاهرة ملحقة» أو روسم (كليشيه) ، بل يقصد بذلك أن الكون يمكن ادراكه وفهمه وأن الشعور لا يحتـــاج الى الخروج على نفسه ليفهم الكون ، بل إنما هو يفكر في نفسه عندما يدركه . وقولنا « الشعور - الانعكاس » لا يدل على أن الشعور يتصف بالانفعال كأنه مرآة ، بل انما المقصود هو أن ديالكتيك الطبيعة متضمنة في ديالكتيك المفاهيم . لأن المعرفة، التي تعكس عالماً ديناميكياً، هي نفسها ديناميكية . يقول (لينين) : « المعرفة هي العملية التي يتقرب الفكر بواسطتها من الموضوع دومـــاً والى ما لا نهاية ، إن انعكاس الطبيعة في فكر

(١) الدفاتر الفلسفية ص ١٥٠

الانسان يجب أن يفهم ليس بصورة مجردة ، ميتة ، دون حركة ودون تناقضات ، بل كعملية أبدية من الحركة ومن ولادة التناقضات وحلها . »[1] في هذا النص يتضح مفهوم الانعكاس بكل جلاء . فان كل تصور بشري يعكس بشكل من الأشكال الكون الموضوعي . وعندما نقول كل تصور ، فهذا يشير الى أن الخطأ أيضاً عبارة عن انعكاس للواقع ولكنه انعكاس غير دقيق مشوه أو مقلوب لأنه نتيجة تجربة ناقصة أو جزئية تتوهم أنها تامة كلية أو نتيجة تجربة مقتبسة تقليدية تتوهم أنها أصلية .

ان أكمل نص شرح فيه (لينين) نظرية الانعكاس هو الذي يقول :

« إن العقل البشري ، عندما يبحث في شيء معين بمفرده ليستخلص منه صوراً ومفاهيم فليس عمله هذا بسيطاً ، مباشراً ، ميتاً . إنه ليس انعكاساً في مرآة ، بل هو فعل معقد ، مزدوج ، متعرج ؛ فعل يتضمن إمكانية التحليق بالخيال خارج الحياة ، وأكثر من ذلك ، انه يتضمن امكانية تحويل (غير مدرك ، لا يشعر به الشخص) للمفهوم المجرد ، للفكرة ، الى صورة خيالية . ذلك انه يوجد شيء من الخيال في أبسط أنواع التجريد ، وفي الفكرة العامة الأكثر بدائية (فكرة مائدة مثلا) . »[2].

من هنا يتبين لنا ان عملية تكوين المفاهيم اللازمة للمعرفة تقوم على التجريد والابتعاد عن المحسوس وفصل الأشياء وعزل بعضها عن بعض ، وبذلك فهي تتضمن الازدواج والتناقض ، وبالتالي امكانية النزعة المثالية . فالمفهوم ، بوصفه يعكس وحده ماهية الأشياء وجوهرها ، يعتبر حقيقاً في محتواه . ولكنه ، بوصفه تجريداً منفصلاً صورياً ، فهو خطأ أيضاً . أي إنه يمكن أن يكون صحيحاً وخاطئاً معاً . وهكذا فإن (لينين) لا يعتبر الخطأ والاندفاع مع الخيال وتشويه الواقع مجرد مصادفات وحماقات ،

(١) المرجع السابق ص ١٦١
(٢) فكر لينين ص ١٥٨

بل يرى ان امكانية الانحراف عن الواقع الموضوعي والانزلاق نحو المثالية لهما جذور في عملية المعرفة البشرية نفسها من حيث أنها انعكاس تناقضي وتعميمي للواقع. ولذلك قال: «أن الصفة المزدوجة للمعرفة البشرية وامكانية المثالية (والاعتقاد الديني) ، موجودة منذ أول تعميم بدائي »[1].

ولكن كيف يمكن للمفاهيم أن تعبر أحسن تعبير عن الحركة والتطور والتناقض الباطني في الظواهر وعن تبدلاتها الكيفية ؟ ما هي القوانين التي يخضع لها الفكر وما هي الأشكال التي يستخدمها عندمـــا يعكس العالم الموضوعي وتطوره ؟ وما هي الشروط اللازمة لمعرفة الحقيقة ؟

تلك هي المسائل التي يبحث فيها علم المنطق . إن موضوع المنطق ، حسب رأي (لينين) ، هو « مشكلة الحقيقة » لأنه يبحث في قوانين الفكر وأشكاله التي تقود الى معرفة الحقيقة »[2].

فالمنطق بطبيعته علم فلسفي يعالج مشكلة فلسفية بكل معنى الكلمة ،هي مشكلة مطابقة فكرنا للواقع الموضوعي . ومن المعلوم أن كل علم من العلوم يسعى الى كشف الحقيقة في ميدان معين من ميادين المعرفة . أما المنطق فانه يطرح المشكلة المنهجية الفلسفية عن وسائل المعرفة لاكتشاف الحقيقة بصورة عامة ، سواء عند البحث في الحوادث الحياتية أو النفسية او الاجتماعية .

لذلك فان المنطق مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية المعرفة . ولا بد من التمييز بين المنطق الديالكتيكي، الذي يؤلف فرعاً من الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ، وبين المنطق الصوري، الذي يرجع الى (أرسطو) والذي ظل سائداً حتى منتصف القرن التاسع عشر . وقد اقتبس المنطق الديالكتيكي جميع العناصر الصالحة في

(١) الدفاتر الفلسفية ص ٢٨٩

(٢) الدفاتر الفلسفية ، الطبعة الروسية ص ١٥٠

المنطق الصوري، بالاضافة الى مبادىء وطرق البحث العلمي التي ظهرت وتطورت منذ القرن السابع عشر، كما اعتمد على تعاليم (هيجل) بعد تحريرها من النزعة المثالية.

إننا في عملية المعرفة نحتاج الى المنطق الصوري والمنطق الديالكتيكي على السواء. وليس صحيحاً أن المنطق الديالكتيكي وحده يكفي، وأن المنطق الصوري يمكن الاستغناء عنه ولا فائدة منه. وقد قال (أنجلز) انه من الخطأ الاعتقاد بأن المنطق الصوري يقتصر على كونه أداة للبرهان، مؤكداً ان «هذا المنطق هو في الدرجة الاولى طريقة للوصول الى نتائج جديدة، وللانتقال من المعلوم الى المجهول». [1]

إن المنطقين يشتركان في الموضوع، وهما انما يتمايزان بالطريقة التي يواجهان بها مشكلة الحقيقة. فالمنطق الصوري ينظر الى الحقيقة كأنها شيء «معطى» ثابت، مقرر نهائياً ومناقض للخطأ اطلاقاً. ذلك لأن هذا المنطق يبحث في الأشياء البسيطة والعلاقات البدائية التي يمكن اعتبارها ثابتة نسبياً تطبق عليها المبادىء الأساسية للفكر، مثل مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ السبب الكافي. على أنه رغم هذه الصفة البدائية، فإن المنطق الصوري يلعب دوراً جوهرياً في تفكير الانسان وفي التفاهم بين البشر. إننا عندما نبحث في موضوع ما - من جوانب معينة وضمن حدود مرسومة - لابد لنا من مراعاة قواعد المنطق الصوري، فلا يجوز أن نناقض أنفسنا أو أن نستبدل مفهوماً بآخر في مجرى الحوار أو أن نقفز من موضوع الى غيره دون ترابط وتسلسل في الأفكار. كما يجب أن نبتعد عن الغموض والإبهام، وأن نلتزم الدقة والوضوح في التعابير.

أما المنطق الديالكتيكي فانه يريد معرفة الموضوع من جميع النواحي وبصورة شاملة، دون أي تحديد. إن الحقيقة، من وجهة نظر المنطق الديالكتيكي،

(١) ضد دورينغ ص ١٦٥

ليست شيئاً « معطى » دفعة واحدة ، كاملاً ، محدداً ، جامداً ، ثابتاً ، بل إنها ، على العكس ، « عملية مستمرة » ، هي العملية نفسها التي يقوم بها الانسان لمعرفة العالم الموضوعي عبر تاريخ المجتمع كله . يقول (لينين) : « إن عملية المعرفة مؤلفة من سلسلة من التجريدات وتكوين المفاهيم والقوانين »[1] . ثم يضيف قائلاً : « ان مطابقة الفكر مع الموضوع هي عملية أبدية ، ويجب على الانسان أن لا يتصور الحقيقة في شكل ساكن ، ميت ، عبارة عن مجرد لوحة باهتة ، لا روح فيها ولا حركة . »[2] أن المنطق الديالكتيكي يفسر الحقيقة من الوجهة التاريخية . لذلك يقول (لينين) : « يطالب المنطق الديالكتيكي بأن ننظر الى الموضوع في تطوره ، في حركته الذاتية وفي تغيره . »[3]

يؤكد المنطق الديالكتيكي أن المعرفة تنتقل من الخارجي الى الباطني ، ومن المجرد الى المشخص ، ومن الظاهرة الى الجوهر ، ومن الجوهر الأقل عمقاً الى الجوهر الأكثر عمقاً . وهو يريد أن يبحث في أفضل الوسائل للتعبير عن الحركة والتطور والتناقضات الباطنية في الظواهر وتغيراتها الكيفية وانتقالها من حالة الى أخرى ، ويسعى الى الكشف عن الجوهر الديالكتيكي في المقولات المنطقية ، وعما تتصف به من مرونة وحركة تبلغ درجة « وحدة النقيضين » . والمنطق الديالكتيكي يتخطى الاختلاف بين التحليل والتركيب أو الاستقراء والاستنتاج أو التجريبي والنظري الخ . . ولا يعتبر هذه الطرائق أشكالاً مستقلة للمعرفة ، بل يفحصها ضمن تركيب أعلى تقائض يتداخل بعضها في بعض . وبالجملة ، فان المنطق الديالكتيكي عبارة عن نظام من المقولات المنطقية التي تجمع وتوحد ثمرات فعالية الانسان الفكرية والعملية .

(١) الدفاتر الفلسفية ص ١٥٦
(٢) الدفاتر الفلسفية ص ١٦٧
(٣) مؤلفات لينين ، الطبعة الروسية ، المجلد ٣٢ ص ٧٢

كان (أنجاز) قد قارن من جهة بين المنطق الصوري والرياضيات الابتدائية التي تقتصر على المقادير الثابتة والعلاقات البسيطة ، ثم من جهة ثانية بين المنطق الديالكتيكي والرياضيات العالية التي تبحث في المقادير المتحولة والعلاقات المعقدة جداً . وقد عاد (لينين) الى هذه المقارنة على شكل أوسع فقال : « ان السياسة تشبه الجبر أكثر مما تشبه الحساب ، ويمكن مقارنتها بالرياضيات العالية أكثر من الرياضيات الابتدائية »[1]. وهذا يعني أن السياسة ديالكتيكية في أساسها وأنه يجب البحث فيها ليس انطلاقاً من المنطق الصوري وحده ، بل كذلك بالاستناد الى المنطق الديالكتيكي - الماركسي . وكما أن جدول الضرب يحتفظ بأهميته في الرياضيات العالية أيضاً ، كذلك فان المنطق الصوري شرط ضروري للفكر الديالكتيكي لأنه لا يمكن أن تتولد الديالكتيك في رأس مضطرب يخرق أبسط قواعد التفكير المنطقي وينقصه الوضوح والدقة ويسمح لنفسه بالتناقض وعدم الترابط بين الأفكار .

إننا في المنطق الصوري نقتصر على النواحي البسيطة والظواهر السطحية التي نجردها ونعزلها بعضها عن بعض وننظر اليها كأنها ثابتة باقية هي نفسها دوماً ، تبعاً لمبدأ الهوية : « أ هي أ » . وهذه النظرة خطرة ، لأنها تحول دون معرفة الموضوع معرفة حقيقية والاحاطة به من كل الجوانب وفي علاقاته وتناقضاته وتطوره .

ومن هنا نشأت الصلة بين فلسفة (مابعد الطبيعة) وبين المنطق الصوري . فان (الميتافيزيقا) - التي تستخدم قوانين المنطق الصوري وطرائقه وتنكر الحركة والتغير والتطور - تجعل من السكون والثبات والديمومة مفاهيم مجردة وفي الوقت

(١) مؤلفات لينين المختارة ، طبعة موسكو ١٩٤٧ المجلد ٢ ص ٧٦٨ .

نفسه مطلقة ، أي أنها تقلب الهوية المجردة الى هوية مطلقة . وبالنسبة الى المنطق الصوري، فالمادة إما أن تكون متصلة أو منفصلة ، والانسان إما أن يكون حراً أو مقيداً (مجبراً) ، والشيء إما أن يكون نسبياً أو مطلقاً ؟ إما متناهياً أوغير متناه . وهكذا فان المتناهي وغير المتناهي ، النسبي والمطلق ، الحرية والحتمية ، الحركة والسكون ، الجوهر والعرض، وأمثالها من المقولات، تعتبر في نظر المنطق الصوري متناقضات ينفي بعضها الآخر . أما المنطق الديالكتيكي فانه لا يقف عند الظواهر السطحية البسيطة ، ولا يقتصر على تقرير الثبات النسبي في الأشياء ، بل انه يبدأ دراسة الموضوع حيث ينتهي المنطق الصوري فيتابع عملية الصيرورة والتطور . فهو ينظر الى مفهوم السكون مثلاً على أنه حالة خاصة ، جزئية من مفهوم الحركة . والمادة في نظره هي متصلة (اذا كانت في حالة موجبات) وفي الوقت نفسه منفصلة (في حالة الكترونات) . والانسان ، حسب المنطق الديالكتيكي ، يخضع لقانون السببية ومبدأ التقليد، وحريته إنما تقوم على إدراكه للحتمية واتباعه لمقتضياتها في سبيل السيطرة عليها وتجاوزها . فالحرية هي أن يعمل الانسان حسب قوانين الطبيعة والمجتمع ، وهو كلما تقدم في معرفة هذه القوانين الموضوعة ومراعاتها ازداد تقدماً في طريق الحرية . يقول (لينين) : « إن الحتمية التي يزداد مضمونها غنى مع تقدم العلم ، هي الأساس الوحيد الممكن لحرية الارادة »(١) .

عند وصف المنطق الديالكتيكي ، يقول (لينين) : « ان المرونة التامة الكلية في المفاهيم ، المرونة التي تبلغ حد القول بهوية النقيضين ووحدتهما ، هذا هو الشيء المهم على أن هذه المرونة اذا طبقت بصورة ذاتية ، فإنهـا تؤدي الى السفسطة والتلفيقية . أما اذا استخدمت بصورة موضوعية فانها تعكس كل جوانب

(١) المرجع السابق ، المجلد ١، ص ١٢٧ .

الواقع ووحدته وتعتبر انعكاساً صحيحاً لتطور العالم الأبدي »(١).

وإذا كان النهائي واللانهائي يتناقضان في المنطق الصوري، فانهما في المنطق الديالكتيكي يتصارعان ويتداخلان . وقد تساءل (لينين) : « ما المنتهي ؟ انه هو الذي يتحرك نحو غايته » . ثم قال: « المطلق والنسبي، النهائي واللانهائي، هي درجات لكون واحد، وحيد »(٢).

لاشك في أن العلوم الطبيعية تقدم لنا كثيراً من الشواهد والحجج التي تبرر لانهائية العالم ، وهذا مانراه في الفلك خاصة . فقد أثبت هذا العلم ان كل مجرة تعد مليارات من النجوم ، وان قطر مجرتنا مثلا يبلغ نحو مائـــة الف سنة ضوئيـة ، وأن هناك فيما وراء حدود مجرتنا مجموعات شمسية أخرى مشابهة لها . على أن هذه الارقام التي تدخل في حساب الفلك ، رغم ضخامتها الهائلة ، تبقى محدودة ولها نهاية . لذلك لاتكفي معطيات العلم وحدها لتبرير القول بأن العالم غير متناه . فلابد هنا من الاستعانة بالفكر الفلسفي ، والتحليل المنطقي لمقولات الوجود . وقد سبق ودافع (انجلز) عن النظرية الديالكتيكية التي تعتبر العالم وحدة من النهائي واللانهائي قائلاً : « ان العالم ليس له مبدأ ولا نهاية في المكان والزمان . ولكن اللامتناهي يتكون من اجزاء متناهية . فكل ظاهرة مشخصة لها بداية ونهاية ؛ وكما أن بدايتها هي نهاية ظاهرة جديدة وهكذا الى مالانهاية له ، فالمبدأ والنهاية مرتبطان لاينفكان مثل القطب الشمالي والقطب الجنوبي اللذين لاينفصل أحدهما عن الآخر .. »(٣)

يقول (لينين) : « إن الديالكتيك بالمعنى الصحيح هي دراسة التناقضات

---

(١) الدفاتر الفلسفية ص ٨٤ .
(٢) الدفاتر ، بحث نظرية الوجود .
(٣) ضد دورينغ ، الطبعة الألمانية ، برلين ١٩٥٦ ص ٦٠ .

في جوهر الأشياء نفسها ». (١)

وهـــذه التناقضات الموضوعية التي تنعكس في الفكر – أي في المفاهيم والنظريات – يجب تمييزها عن التناقضات التي تسمى « منطقية » والتي تنشأ عن مخالفة قواعد المنطق وتدل على الفوضى والاضطراب في التفكير . .

وهكذا فان المنطق ، سواء الصوري أو الديالكتيكي ، هو العلم الذي يبحث في قوانين الفكر وأشكاله التي تقود الى معرفة الحقيقة الموضوعية .

ولكن كيف نعرف أن أفكارنا ومفاهيمنا المجردة تنطبق على الواقع وتعكسه حقاً ؟ وبتعبير آخر : ماهو معيار الحقيقة ؟

ان الفلسفة المادية – الديالكتيكية، وبالتالي نظرية (لينين) في المعرفة، تذهب الى أن معيار الحقيقة هو الممارسة العملية والتجربة الاجتماعية التاريخية . ولا يمكن ان نقول عن المعرفة وعن الافكار والنظريات أنها صحيحة حقيقية ، الا اذا أكدت لنا الممارسة الاجتماعية – الانتاجية مطابقة هذه المعرفة والأفكار والنظريات مع الواقع . وقد وصف (لينين) الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الحقيقة والواقع الموضوعي بأنها « انتقال من الادراك الحسي الى الفكر المجرد ، ومن الفكر المجرد الى الممارسة العملية . » (٢)

وحتى الحقيقة العلمية لا تثبت في تجربة واحدة منفصلة تجري لهذا الغرض خاصة ، بل تحتاج الى التأكيد بالممارسة العملية – الاجتماعية . فالبرهان على صحة النظريات العلمية ، انما يقدمه التطبيق العلمي في ميدان الانتاج الصناعي والزراعي وفي الفعاليات الثورية للجماهير الرامية الى اعادة تنظيم المجتمع . وتختلف طرق التحقق من صحة الأفكار والنظريات من علم الى آخر . فالعلوم الطبيعية مثلاً تعتمد على التجريب الذي يتضمن الملاحظة والقياس والتعبير عن النتائج في شكل معادلة

(١) المؤلفات ، المجلد ٣٨ ص ٢٥٣ .
(٢) » » ص ١٧١ .

رياضية . ولكن التطبيق العملي والبراهين التجريبية لا تجعل من النظريات العامة حقائق مطلقة ، لأن هذه النظريات تستمر في التطور وتزداد دقة وشمولاً وقد تنقض بعض الفرضيات (مثل فرضية وجود الأثير) بينما تثبت صحة غيرها (مثل فرضية وجود الذرة التي أصبحت أخيراً حقيقة برهانية ، وان كنا لا نعرف امكانيات تطورها في المستقبل) .

ان ادراك الحقيقة عبارة عن عملية مستمرة ، متطورة ، قابلة للتحسين ، يحددها في كل مرحلة معينة امكانيات الانتاج ومستواه التقني وغير ذلك من العوامل . وهذا يعني أن التطور الدائم لا يسمح بأن تنقلب الحقيقة النسبية الى عقيدة مقررة ، الى (دوغما) ، الى حقيقة مطلقة .

إن نظرية المعرفة المادية – الديالكتيكية التي تعتبر العمل معيـــاراً للحقيقة الموضوعية ، تختلف اختلافاً جوهرياً عن الفلسفة البراغماتية (الذرائعية) . فالبراغماتية ليست سوى أحد الاتجاهات المثالية – الذاتية في الفلسفة الحديثة وهي تنتهي في المنطق الى اللاعقلانية ، سواء كان ذلك بصورة صريحة كما لدى (وليليام جيمس) ، او بصورة مبطنة خفيـــة كما لدى (جون ديوي) ، لأنها تنظر الى القوانين والأشكال المنطقية على انها مجرد « افتراضات مفيدة » . انها تعتبر المفهوم « آلة صالحة للعمل » ، وتذهب الى أن معيـار الحقيقة هو الفائدة العملية . وهي لاتقصد بذلك الممارسة العملية الاجتماعية التي تؤيد الحقيقة الموضوعية ، بل التوافق مع المصالح الذاتية للفرد . وعدا ذلك، فان الفلاسفة البراغماتيين في الوقت الحاضر يعتقدون بأن لاجـــدوى من البحث في مشاكل المعرفة وأن ليس لديهم الوقت للكشف عن كيفية تكوين الأفكار ونشأتها وتطورها وهم لايرون أي فائدة في معرفة ما اذا كانت الأفكار فطرية أم جاءت من العالم الخارجي . مثل هـــذه

المشاكل لا معنى لها في نظرهم ولا قيمة . كل ماجهم انما هو تأثيرها وفائدتها في الحياة العملية بصفتها « آلات صالحة لحل المشاكل » ، بل ان هؤلاء الفلاسفـــة يستنتجون « وجود آلة لغايات عملية فحسب » كما لاحظ (لينين) .[1]

إن الفلسفة المادية ـ الديالكتيكية تعارض البراغماتية وغـيرها من المذاهب المثاليـة التي تعتبر المعرفة البشرية ذاتية ، « عندية » ، نسبية . كان (هيجل) قد انتقد مفهوم « الشيء بذاته » عند (كنط) ،الذي فصل بين الظواهر والوجود وقصر المعرفة على الظواهر بينما احتفظ بعالم الوجود أو « الاشياء بذاتها » للعقيدة . وقال (هيجل) ان مايسمى « الشيء بذاته » ليس سوى موضوع للفكر والتجريد الفارغ » . وقد علق (لينين) على ذلك قائلاً : « إن المعرفة عنـــد (كنط) ، الذي يتمسك بالتجريد الفارغ عن الشيء بذاتـه ، تفصـــل بين الانسان والطبيعة ، في حين أنها في الواقع تربط بينها وتوحدهما » .[2]

ان (كنط) قد اعتنق النظرية النسبية التي تقول باقتصار معرفتنا على الظواهر وبعجزنا عن ادراك الوجود الحقيقي، لأنه فصل اعتباطياً بين الفكر والشيء بذاته . ويلاحظ (لينين) بأن البعض يعتقدون بأنهم يبرهنون على عمق تفكيرهم اذا هم تواضعوا وقالوا إننا لا نعرف كيف هي الأشياء بذاتها . «ولكن اصطلاح (الشيء بذاته) انما هو مفهوم مجرد عن كل تحديد ... أي إنه لا شيء » .[3]

تستند النظرية النسبية الى المبدأ الصحيح القائل بأن كل مرحلة من مراحل المعرفة هي نسبية ، ولكنها تخطىء عندما تستنتج من ذلك أن ليس هناك حقيقة

(١) المؤلفات ، المجلد ١٤ ص ٢٤٢ .
(٢) الدفاتر الفلسفية ، صفحة ٧٥ .
(٣) الدفاتر الفلسفية ، ص : ٩٠ .

موضوعية . فهي تفصل بين عملية المعرفة وموضوع المعرفة، وتذهب الى أن العلم عبارة عن مجموعة من القضايا « المتلاحمة » ولكن ليس لها محتوى واقعي . وتبعاً لذلك لا مجال للتحدث عن تقدم المعرفة . فالنظريات العلميـــة ليست سوى مصطلحات و « اتفاقات » يمكن تبادلها ، كل واحدة منها مساوية للأخرى في قيمتها ولا يمكن لأي منها الإدعاء بأنها أقرب الى الواقع .

يقول (لينين) : « بالنسبة الى النظرة الذاتية السفسطائية ، فالنسبي انما هو نسبي فقط ولا يقبل المطلق »[١] ثم يضيف قائلاً : « ان النظرية النسبية ، شأنها شأن كل أنواع الفلسفة المثالية ــ الذاتية ، هي زهرة عقيمة تنبت على شجرة المعرفة البشرية » .[٢]

أما بالنسبة الى المادية الديالكتيكية « فإن الاختلاف بين النسبي والمطلق هو أيضاً نسبي، أي إن النسبي يتضمن المطلق» .[١] فالفلسفة الديالكتيكية أيضاً، تعترف بأن المعرفة نسبية . ولكنها لا تقصد بذلك انكار الحقيقة الموضوعية ونفيها ، كما تفعل النظرية النسبية، وانما تعني أن المعرفة محددة في كل مرحلة تاريخية بمستوى التطور في قوى الانتاج وتقدم العلم . انها تقول بالترابط Correlation بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة . وقد أشار لينين الى مفهوم « الترابط » بقوله : « إن التصورات البشرية التي تعكس الحقيقة الموضوعية ، هل يمكن التعبير عنها دفعة واحدة ، كاملة ، دون شروط وبصورة مطلقة ، أم انه لا يمكن التعبير عنها الا بصورة تقريبية ، نسبية ؟ »[٣] .

---

(١) الدفاتر الفلسفية ، صفحة ٢٨٠ .
(٢) الدفاتر الفلسفية ، صفحة : ٢٨٢ .
(٣) المادية والتجريبية الانتقادية ــ صفحة ١٠٤ .

ثم أضاف قائلاً : « ان الحقيقة المطلقة ، في نظر (أنجلز) ، انما تنتج عن مجموع الحقائق النسبية » .[1]

يصف (لينين) عملية المعرفة التي تبرز فيها الحقيقة المطلقة من الحقائق النسبية ، بأنها عملية مستمرة عبر التاريخ ، لأن تجــارب البشر لا تنتهي أبداً . ولذلك فإن كل مرحلة تعتبر خطوة الى الأمام تتجاوز فيها المرحلة السابقة وتحقق فتحاً جديداً في سبيل الكشف عن المجهول . إن العلم لا يدور في مكانه ، ولكنه يتقدم الى الأمام . « فالمعرفة هي العملية التي بواسطتها يتقرب الفكر بصورة غير متناهية من الموضوع »[2] . وبما أن الموضوع لا ينضب ولا يمكن الاحاطة به فإن العملية أبدية ، وكل مرحلة من مراحل المعرفة هي نسبية . ولكن هــذه النسبية ليست بحتة ، جامدة . فإن كل معرفة ، وان كانت تقريبية ، مؤقتة وعرضة لاعادة النظر والتغيير ، إلا أنها رغم ذلك تتضمن شيئاً مطلقاً : انها تحتوي على ذرة من الحقيقة التي سوف يكشف عنها التطور ويبرزها . هناك علاقة ديالكتيكية بين المطلق والنسبي ؛ ان بين هذين الحدين المتناقضين ارتباط ووحدة فالمطلق موجود في صميم النسبي . وكل واحد منهما ينقلب الى الآخر . فاذا بالمطلق يصبح في المعرفة نسبياً ، بينما النسبي يتضمن في ثناياه المطلق . لذلك يقول (لينين) : « إن الديالكتيكية المادية لدى (ماركس وأنجلز) تشمل النسبية ولكنها لا تؤدي اليها »[3] .

ان الفلسفة المثالية ـ الذاتية تنكر الحقيقة الموضوعية وتذهب الى أن

---

(١) المرجع السابق ص ١١٥ .
(٢) الدفاتر الفلسفية ـ ١٦٠ .
(٣) المادية والتجريبية ـ الانتقادية ـ ١١٧ .

الحقيقة هي نتيجة اتفاق بين البشر . على أن فهم الحقيقة على هـذا الوجه ليس علمياً ، بل يدل على نظرة رجعية تفسح المجال لكل أنواع الخرافات والعقائد الغيبية التي يمكن اعتبارها حقائق لمجرد أن أكثر الناس يشتركون فيها . وهذا الموقف الذاتي تجاه المعرفة العلمية لابد أن يؤدي الى زعزعة الثقة بالعلم والى هدمه.

خلافاً لذلك، فإن نظرية (لينين) في المعرفة تؤكد امكانية الوصول الى الحقيقة الموضوعية. وهذه النظرية لا تنكر أن معرفتنا عبارة عن عملية ديالكتيكية متطورة ، تخضع في كل مرحلة من مراحل التطور لشروط معينة يفرضها المستوى الذي بلغه العلم والتقنية والانتاج . لذلك فإن معارفنا العلمية هي نسبية لا تقدم لنا الحقيقة الكاملة الشاملة عن المواضيع التي تدرسها ، بل تحتوي على بعض العناصر التي سوف تتبدل وتزداد دقة وعمقاً مع تطور المعرفة أو تغيرها . الا أن كل حقيقة نسبية ، اذا كانت علمية ، صحيحة ، فإنها تتضمن عناصر أو بذوراً من الحقيقة المطلقة أي أنها خطوة الى الأمام في طريق معرفة الحقيقة المطلقة .

يؤكـد تاريخ العلوم والتجارب الاجتماعية أن المعرفة تتطور في طريق الديالكتيكية . فكلما تقدمت المعرفة العلمية ، ازداد ادراكنا لصفات الأشياء والعلاقات بينها ، وبذلك نقترب من الحقيقة المطلقة التي تتألف من مجموع الحقائق النسبية والتي يبرهن عليها تطبيق النظرية في الحياة العملية .

لينين والنضال الثوري

وصفي البني

النضال الثوري هذا ، اولاً ، تعبير مجرد عام لا بد له من تحديد : في سبيل ماذا ، وفي اي بلد ، وفي اية مرحلة من تاريخ تطور هذا البلد او التطور العالمي . وهو ثانيا ، تعبير كثير الشيوع والاستعمال في عالمنا اليوم ، في شتى بقاعه ، تردده قوى وفئات اجتماعية مختلفة ، منها ما تحدوه رغبة صادقة في التغيير الثوري للعالم باتجاه التقدم ، الى هذا الحد او ذاك ، ومنها ما يسعى للتستر وراءه بغية وقف مسيرة الثورة التحررية العالمية او حرفها عن دربها ودفعها في متاهات من الفوضى والعدمية او المغامرة .

والنضال الثوري ، من حيث مراحله وأشكاله وأهدافه ، يختلف بين أن يكون عالمياً في سبيل القضاء على الامبريالية وحروبها العدوانية وفي سبيل الاشتراكية والسلم ، وبين أن يكون محلياً في بلد اقطاعي البنية أو شبه اقطاعي أو رأسمالي ، أو في بلد مستعمَر أو تابع ، أو برجوازي دمقراطي مستقل ، أو خاضع لدكتاتورية فاشية أو عسكرية . ولذلك لابد من تحديد مضمون النضال الثوري،لتحاشي كل تشويش أو تحريف لهذا المفهوم . مع العلم ان هذه النضالات الثورية كلها انما تؤلف روافد لابد أن تصب في النهر الكبير الزاخر ، نهر الثورة العالمية في سبيل قضية الانسان المشتركة : الحرية والسعادة والازدهار لجميع الشعوب.

والقسط الذي أسهم به لينين في تحديد مهمات النضال الثوري ، المرحلية والنهائية ، على الصعيدين المحلي والعالمي ، يفوق كل تقدير . ولذلك تحتفل البشرية التقدمية جمعاء هذا الاحتفال المهيب بالذكرى المئوية لميلاده ، محولة هذا الاحتفال الى ندوة علمية عالمية فريدة من نوعها ، تتدارس فيها تراثه الضخم في مجالي الفكر الثوري والعمل الثوري .

لقد رسم لينين المبادىء الأساسية ، المنطلقات ، لستراتيجية وتكتيك النضال الثوري في مختلف البلدان والظروف معتمداً على مبادىء ماركس وانجلز ، ومطوراً اياها في ضوء المرحلة الامبريالية للنظام الرأسمالي .

فما هي الثورة ، كمفهوم عام ، في نظر لينين ؟ انه هو نفسه يجيب عن هذا السؤال من وجهة نظر الماركسية ، فيقول : «إنها هدم بالعنف لبناء فوقي سياسي قديم ولّى عهده وأدى تناقضه مع علاقات الانتاج الجديدة ، في لحظة معينة ، الى افلاسه[1] » .

---

(١) خطتنا الاشتراكية الدمقراطية في الثورة الدمقراطية – ص٤٦ ١ – الطبعة العربية.

وعلى هذا فالثورة بنت تطور موضوعي يجري وفق قوانين موضوعية يلعب فيها العنصر الذاتي دوراً ايجابياً بقدر مايدرك هذه القوانين ويستخدمها في مجالات تحريك الجماهير ، صاحبة المصلحة في الثورة ، وحشدها وتنظيمها . وبالتالي فالثورة ، من حيث أساسها الموضوعي ، لايمكن - كما يقول لينين - أن تصطنع اصطناعاً ، بل هي تنشأ من الأزمات والانعطافات التاريخية التي تكون قد نضجت بفعل تراكم أسبابها .

ولكن الثورة - من حيث هي حركة تقوم بها الطبقات ذات المصلحة في تغيير نظام المجتمع - لابد لها من حزب طليعي مسلح بنظرية طليعية . فلا يمكن - كما يؤكد لينين - أن تكون هناك حركة ثورية بدون نظرية ثورية .

هذا من حيث المفهوم العام للثورة . ولكن الثورة التي قادها لينين الى النصر في بلاده هي ، على وجه التحديد ، الثورة الاشتراكية . وهذه الثورة ، في نظره ، « ليست عملا واحداً ، وليست معركة واحدة في جبهة واحدة ، انما هي مرحلة من النزاعات الطبقية الحادة ، وسلسلة طويلة من المعارك في جميع الجبهات ، أي في جميع مسائل الاقتصاد والسياسة »(١) .

وهو يوضح أن الثورة الاجتماعية الرامية الى الاطاحة بآخر نظام استثماري على وجه الأرض « انما هي مدرسة قاسية ، ولدى اجتيازها من بدايتها الى نهايتها لابد من المرور بانتصار الثورة المضادة ، بانفلات شراسة الرجعية ، بأعمال قمع وحشية ضد الثائرين الخ . ولكن من يرثي لمرور الشعوب بهذه التجربة لابد أن يكون متحذلقاً سخيفاً لاشفاء له ، أو مومياء عادت الى الطفولة . فالواقع أن هذه المدرسة هي التي تعلم الطبقات المضطهدة ... أن تخوض الثورة حتى النصر »(٢) .

(١) الثورة الاشتراكية وحق الامم في تقرير مصيرها - ص١٤١ - الطبعة العربية .
(٢) المؤلفات - م١٥ - ص ١٩٥ - ١٩٦ الطبعة الفرنسية .

ولزام على المناضلين في سبيل انتصار هذه الثورة أن يحذروا « سوء استعمال الكلمات » الذي يصفه لينين بأنه « ظاهرة عادية جداً في السياسة » ، مبيناً أن كلمتي ثورة واشتراكية « تفسحان المجال رحباً لسوء الاستعمال » ، مذكراً على سبيل المثال ، بأن أنصار الليبرالية البرجوازية الانكليزية قد سموا أنفسهم أكثر من مرة بالاشتراكيين ، وكذلك فعل أنصار بسمارك وأصدقاء البابا (ليون الثالث عشر)[1] .

ونحن نذكر أن الهتلريين أيضاً فعلوا ذلك . ولسنا ننسى طبعاً أن رئيس وزراء بريطانيا الحالي ولسون يسمي نفسه « اشتراكياً » ، وكذلك تفعل النقابات الصهيونية « الهستدروت » ، وهلم جرا ... ولذلك لابد للثوري ، في نظر لينين ، « أن يعرف كيف يميّز معنى الصيغ الجارية والسفسطات من كل نوع ، التي تغطي بها كل طبقة وكل فئة اجتماعية شهواتها الأنانية وطبيعتها الحقيقية » .[2]

وفي الفصل الأول من كتاب « الدولة والثورة » يشير لينين الى ظاهرة نلمسها اليوم ، بشكل صارخ ، في محاولات قوى الثورة المضادة ، على الصعيدين العالمي والمحلي ، افراغ الأفكار الثورية الأصيلة ، وبخاصة الماركسية – اللينينية ، من محتواها الحقيقي ، عن طريق مختلف « الاجتهادات » و « التجديـــدات » و « التفسيرات » . فهو يذكر في هذا الفصل كيف يلقى كبار الثوريين ، أثناء حياتهم ، التنكيل والاضطهاد من قوى الرجعية ، وكيف تحارب أفكارهم أشرس محاربة وأعنفها . أما بعد موتهم فتحاول هذه القوى أن تجعل منهم « ايقونات غير

---

(١) خطتا الاشتراكية الدمقراطية في الثورة الدمقراطية – ص ٥٤ ، ١ – الطبعة العربية
(٢) ماركس انجلز ، الماركسية ص ٣٢٠ الطبعة الفرنسية .

مؤذية » ، وتحيط أسماءهم (أسماءهم فقط) بهالة ترمي الى « تعزية » الطبقات المضطهدة وتضليلها .

والنضال الثوري الحقيقي ، في نظر لينين ، عمل دائب طويل النفس بعيد النظر يخدم فعلاً قضية الثورة بوضعه التكتيك في خدمـــة الستراتيجية ، لا بجعله الاعلان عن الهدف الستراتيجي البعيد وسيلة لتبرير تكتيك خاطىء كسيح يخدم ستراتيجية العدو ، عن قصد أو عن غير قصد . ولذلك كان لينين لا يمل العودة الى الحديث عن الثوريين البرجوازيين الصغار الذين يدفعهم احتـدام الصراع الطبقي او النضال الوطني أحياناً الى مقدمة المسرح إثر فورة سخط على عاهات الرأسمالية والاستعمار وجرائمها « فينادون بأية أعمال ، مها تكن خرقاء ، لتغيير الأوضاع السياسية او الاجتماعية الفاسدة فوراً ، دون ان يجسوا الأرض تحت أقدامهم او يعدوا العدة اللازمة لبلوغ الهدف . وقد قال لينين : « لسنا في حاجة للاندفاعات الهستيرية . انمـــا تلزمنا الخطوة الموزونة التي تخطوها الأفواج الحديدية للبروليتاريا » (١) .

وهو ينتقد العبارة الثورية الفارغة واصفاً إياها بانها « التكرار لشعارات ثورية دون اعتبار للظروف الموضوعية ، وللتغير الذي سجلته آخر الأحداث ، من حيث تاريخ حدوثها ، للوضع الآني . انها شعارات جذابة مسكرة ، ولكنها لا تقوم على أساس متين » (٢) .

وكان يشدد على ان تكتيك الأعمـــال الثورية يجب استخلاصه لا من موضوعات عمومية ، بل من تحليل الأحداث تحليلاً محدداً مشخصاً ، ويشدد على

---

(١) المؤلفات - م ٢٧ - ص ١١ - الطبعة الفرنسية .
(٢) المؤلفات - م ٤٩ - ص ١٠٦ - الطبعة الروسية .

ان مسائل النضال الثوري ينبغي ، بدون جدال ، ان يجري تحليلها والتحقق منها وشرحها للجماهير شرحاً مفصلاً . وفي رأيه ان النضال الثوري الحقيقي ينبغي ان يتعلمه المناضلون على نحو دقيق صحيح ، ويتحاشوا ارسال الكلام الفارغ في الفضاء ، ويفيدوا من تجربة الأخطاء المرتكبة بغية تنظيم النضال الثوري على نحو أحسن ، فليس ثورياً ، في رأيه ، من يخشى الاعلان عن أخطائه سواء أمام العـــدو أم الصديق « فاذا نحن أعلنا جهاراً للعمال : (أجل لقد أخطأنا) ، فمعنى ذلك ان أخطاءنا لن تقع ثانية »[1]. وكان يوضح على الدوام ان الثوريين الحقيقيين يجب ان يحسنوا إدراك ماينبغي فعله بالضبط في وقت معين ، وان ينجزوه في وقته ، وفي رأيه ان التكتيك الثوري الصحيح للطبقة المتقدمة لايمكن ان يقوم إلا على أساس حسبان الحساب بشكل موضوعي لمجموع العلاقات بين جميع الطبقات ، في مجتمع معين ، دون استثناء ، وبالتالي حسبان الحساب للدرجة الموضوعية لتطور هـــذا المجتمع وللعلاقات بينه وبين سائر المجتمعات . وكان يشدد على ضرورة النظر الى جميع الطبقات وجميع البلدان لا في حالة الجمود ، بل في حالة الحركة ، وعلى ضرورة النظر الى الحركة بدورها لا من وجهة نظر الماضي وحسب ، بل من وجهة نظر المستقبل ايضاً ، ولا وفقاً للمفهوم المبتذل لدى « التطوريين » الذين لايلاحظون سوى التطورات البطيئة ، بل وفقاً للديالكتيك . وفي هذا الصدد يشير الى رسالة بعث بها ماركس الى انجلز يقول فيها : « في التطورات التاريخية الكبرى ، ليست عشرون سنة بأكثر من يوم واحد »[2].

والنضال الثوري في سبيل أن تبلغ الانسانية ، او شعب من الشعوب

---

(١) المؤلفات — م ٣٢ — ص ٥٠٨ — الطبعة الفرنسية .

(٢) المراسلات — م ٣ — ص ١٢٧ .

في يوم واحد ، قدر مايتحقق في عشرين سنة من التطور «الهادىء»، ليس شكلاً واحداً لايتبدل ، ولا هو «كليشة» واحدة بذاتها لجميع الأزمنة وجميع البلدان . فالتجربة التاريخية تبين ان ثمة أشكالاً لهذا النضال لايمكن حصرها . ويتساءل لينين عن المتطلبات الأساسية التي يجب على الماركسي ان يقدمها عند بحث مسألة أشكال النضال ، فيجيب :

«أولاً ، تختلف الماركسية عن جميع الأشكال البدائية للاشتراكية في أنها لاتربط الحركة بيضعة أشكال كفاحية وحيدة ومحــددة . انها تقبل أكثر طرائق النضال تنوعاً ، وهي لا «تخترعها» ، إنما تقتصر على تعميم وتنظيم أشكال نضال الطبقات الثورية ، التي تنبثق عفوياً ، في مجرى الحركة ذاته ، وتجعلها واعية . والماركسية ، وهي خصم على الاطلاق لجميع الصيغ المجردة ، ولجميع وصفات المنهجيين ، تريد النظر بانتباه الى نضال الجماهير الذي يجري ويولد باستمرار ، مع تطور الحركة وتقدم وعي الجماهير ، وتفاقم الأزمات الاقتصادية والسياسية ، أساليب جديدة متزايدة التنوع ، للدفاع والهجوم . ولذلك فان الماركسية لاتنفر بصورة مطلقة من أي شكل من أشكال النضال . وهي لاتنوي بأية حال ان تحصر نفسها في أشكال النضال الممكنة والقائمة في وقت معين . انها تعترف بان تبدلاً في الطرف الاجتماعي سيؤدي لامحالة الى ظهور أشكال جديدة للنضال، غير معروفة بعد لدى المناضلين في عهد معين . فالماركسية ، من هذه الناحية ، تتعلم ان صح التعبير ، في المدرسة العملية للجماهـــير . انها أبعد من ان تدعي اعطاء الدروس للجماهير ، مقترحة عليها أشكال نضال متخيلة من قبل «صناع مذاهب» في مكاتب عملهم ...

ثانياً ، ان الماركسية تقتضي إطلاقاً ان يجري بحث مسألة أشكال النضال

من ناحيتها التاريخية ، فان طرح المسألة خارجاً عن الظروف التاريخية ، المحددة ، هو جهل بألف باء المادية الديالكتيكية . ففي لحظات متميزة من التطور الاقتصادي ، وحسب مختلف الظروف في الوضع السياسي ، وفي الثقافات القومية ، وفي ظروف المعيشة ، الخ .. تصعد مختلف أشكال النضال الى المقام الأول ، وتغــدو هي الرئيسية ، وبالتالي تتغير بدورها الأشكال الثانوية ، المساعدة . ومحاولة الإجابة بنعم أو بلا ، حين تقوم مسألة تقييم وسيلة معينة للنضال ، بدون بحث تفصيلي في الظروف المحددة للحركة في درجة التطور التي بلغتها ، إنما تكون تخلياً تاماً عن الصعيد الماركسي ». (١)

وتوضيحاً لهذه الفكرة يورد لينين أمثلة من أشكال النضال الثوري في روسيا خلال عشر سنوات : اضرابات اقتصادية عمالية (١٨٩٦ - ١٩٠٠) مظاهرات سياسية عمالية وطلابية (١٩٠١-١٩٠٢) . أولى الاضرابات السياسية الجماهيرية ، تخريب مع مظاهرات (روستوف ١٩٠٢ ، اضرابات صيف ١٩٠٢ ، ومظاهرة ٩ كانون الثاني ١٩٠٥) ، اضراب سياسي شمل روسيا كلها مع معارك متاريس في بعض الأماكن (تشرين الأول ١٩٠٥) ونضال متاريس معمم وانتفاضة مسلحة (كانون الأول ١٩٠٥) نضال برلماني سلمي (نيسان حزيران ١٩٠٦) عصيانات جزئية في الجيش (حزيران ١٩٠٥ - تموز ١٩٠٦) انتفاضات جزئية فلاحيـة (خريف ١٩٠٥ - خريف ١٩٠٦) ... ومعروف كيف اكتملت هذه القائمة ، فيما بعد ، بثورة شباط ١٩١٧ ثم ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى في العام نفسه . ولكن الثورة ، كعمل تمارسه الجماهير بمختلف أشكاله ، عفوياً ثم بصورة واعية منظمة ، لابد ان تتوفر لها ظروفها الموضوعية . فالماركسي

(١) المؤلفات - م ١١ - ص ٢١٥ - ٢١٦ - الطبعة الفرنسية .

ـ كما يؤكد لينين ـ « لا يشك في ان الثورة مستحيلة بدون وضع ثوري » . ودلائل هذا الوضع ، كما يبينها لينين ، هي :

١ ـ أن يستحيل على الطبقات السائدة الاحتفاظ بسيادتها دون أي تغيير ، ان تشب هذه الأزمة أو تلك في « القمة » ، أي أن تشب أزمة في سياسة الطبقة السائدة تسفر عن صدع يتدفق منه استياء الطبقات المضطهدة وغضبها . فلكي تنفجر الثورة لا يكفي عادة « الا تريد القاعدة بعد الآن » أن تعيش كما في السابق ، بل من المهم أيضاً « ألا تستطيع القمة ذلك » .

٢ ـ أن يتفاقم بؤس الطبقات المضطهدة ويشتد شقاؤها أكثر من المألوف

٣ ـ أن يتعاظم للأسباب آنفة الذكر نشاط الجماهير التي تستسلم للنهب بهدوء في زمن « السلم » ولكنها المدعوة ، في زمن العاصفة سواء بدافع من مجمل أحوال الأزمة أم بدافع من « القمة نفسها » ، الى القيام بنشاط تاريخي مستقل .

وهنا يؤكد لينين أن ليس كل وضع ثوري يؤدي الى الثورة ، فالثورة لا تتولد إلا إذا انضم الى جميع التغيرات الموضوعية آنفة الذكر تغير ذاتي . وهو يعني بهذا « قدرة الطبقة الثورية على القيام بأعمال جماهيرية قوية بحيث تحطم (أو تصدع) الحكم القديم الذي لن يسقط أبداً في فترة الازمات ان لم يُعمل على سقوطه »(١) .

فمن اجل انجاز الثورة لا بد من تنظيم ثوري يكون الادارة القيادية الواعية للجماهير الثائرة . ولاعطاء صورة واضحة مقنعة عن التنظيم الثوري ، يستشهد لينين بمثال الجيش العصري معتبراً اياه مثالا ممتازاً للتنظيم « لانه مرن وقادر في الوقت نفسه على ان يبعث في ملايين من الناس ارادة موحدة » ، فاليوم يبقى

(١) افلاس الأممية الثانية ـ ص١٣ ـ ١٤ ـ الطبعة العربية .

هؤلاء الملايين من الناس حيث هم ، في مختلف أنحاء البلاد ؛ وغداً يصدر امر التعبئة ، فاذا هم يجتمعون في نقاط التجمع . اليوم يعيشون في الخنادق لعدة أشهر أحياناً ، وغداً يمضون الى الهجوم بتشكيلات أخرى ... هذا مايسمى تنظيماً حين يغير ملايين الناس شكل علاقاتهم وأعمالهم من اجل هدف واحد ، بدافع ارادة واحدة ، ويغيرون مكان نشاطهم وأساليبه ، ويغيرون ادواتهم وأسلحتهم وفقاً لتغير الظروف وتبعاً لمقتضيات النضال » .

وبعد تقديم هذه الصورة ، يقول لينين : « ان هذا يصح على نضال الطبقة العاملة الثوري ضد البرجوازية ، سواء في وقت السلم أو في وقت الحرب . انهم يضعون اليوم في يدك ورقة الاقتراع ، فخذها ، ولكن اعرف كيف تنتظم لكي تضرب بها اعداءك ، لا لكي تصل الى البرلمان ، الى مناصب رابحة ، أناساً يتشبثون بمقاعدهم خوفاً من السجن . وغداً ينتزعون منك ورقة الاقتراع ، ويضعون بين يديك بندقية ومدفعاً رشاشاً رائعاً مجهزاً وفقاً لاحدث منجزات التكنيك . فخذ جهازي الموت والدمار هذين ، ولا تصغ الى المتباكين العاطفيين الذين يخشون الحرب ، فلا يزال في العالم أشياء كثيرة ينبغي القضاء عليها بالحديد والنار من أجل تحرير الطبقة العاملة » . (١)

وكان لينين يؤكد ضرورة التنظيم الثوري لتحطيم الأحزاب الانتهازية التي خانت الاشتراكية ، مبيناً أن انتهازيتها هي « نتاج العلنية » ، ووليدة مرحلة من تطور الرأسمالية « كانت الحياة السلمية والمريحة نسبياً التي تحياها فئة من العمال المميزين تبرجزهم وتوفر لهم فتاتاً من أرباح رأسمالهم الوطني ، وتبقيهم في معزل عن شقاء السواد البائس الذي يشاع الخراب في صفوفه ، وفي معزل عن

(١) إفلاس الأممية الثانية ص ٧٢ الطبعة العربية

آلامه ونزعاته الثورية » . ويرى لينين أن الانتهازية التي تحاول تبرير نفسها بتعابير ماركسية ، أشد خطراً وضرراً من الانتهازية السافرة الصريحة [1] .

ومن هنا كان لينين يشدد على ضرورة تنظيم بروليتاريا المدن والأرياف في حزب طبقي مستقل تماماً ، مشيراً في الوقت نفسه الى أهمية « الهجوم الثوري المشترك في زمن الثورة الحقيقية » . فهو يقول : « ان بوسعنا ومن واجبنا نحن الاشتراكيين الدمقراطيين أن نسير مستقلين عن ثوريي الدمقراطية البرجوازية ، وأن نصون استقلال البروليتاري الطبقي . ولكن يجب علينا أن نسير يداً بيد أثناء الانتفاضة ، أثناء توجيه الضربات المباشرة الى القيصرية ، أثناء صد الجيش ، أثناء شن الهجوم على حصون العدو اللعين ، عدو الشعب الروسي كله » . [2]

وفي هذا المجال لم يكن لينين مخططاً نظرياً عبقرياً وحسب ، بل كان منظماً عملياً يتناول أدق التفاصيل التنفيذية . ففي مقال كتبه عام ١٩٠٥ بعنوان « أهداف فصائل الجيش الثوري » يعطي تعليمات بالغة أقصى درجات الدقة والتفصيل عن كيفية تشكيل هذه الفصائل ومختلف أنواع الأدوات والأسلحة التي يمكن استخدامها ، من البنادق حتى المجارف والحبال والأسلاك الشائكة ، وحتى المسامير ضد الخيالة . ويبين كيفية الاتصال بين أفراد هذه الفصائل ، وضرورة استعدادها لكل مفاجأة ولكل احتمال . وينوه في هذا المقال بأن النضال ضد المئة السود (وهي عصابات ملكية كانت الشرطة القيصرية تستخدمها لاغتيال الثوريين والتنكيل بالمثقفين التقدميين) هو « عمل عسكري ممتاز يكوّن جنود الجيش الثوري ويعمدهم بالنار ، وذو فائدة كبرى للثورة » . [3]

وحين تحقق الثورة انتصارها الأولي ، يوضح لينين السبيل الذي يمكنها

(١) المرجع السابق ص ٧٨

(٢) المختارات م ١ ج ٢ ص ١١ الطبعة العربية

(٣) المؤلفات م ٩ ص ٤٣٦

من اكتساب ثقة الجماهير ، وبالتالي لاكتساب المنعة التي تضمن لها البقاء ومتابعة الانتصارات في انجاز مهامها . فليس يكفي لذلك ان ترفع الشعارات واللافتات مهما تكن براقة ، ومهما يكن مدى صدق النية في رفعها ، ولكن « ... حين يعرف آخر فاعل ، وكل عاطل عن العمل ، وكل طباخة ، وكل فلاح حل به الخراب -لا عن طريق الصحف، بل بأم عينه - ان السلطة البروليتارية تمد يد العون الى الفقراء بدلاً من أن تستخذي أمام المال والثروة ، وانها لا تتراجع عن اتخاذ التدابير الثورية ، وانها تأخذ ما يفيض عن الطفيليين لكي تعطيه للجائعين ... وانها تجبر الاغنياء على دفع الاموال من اجل الحليب ، ولكنها لا تعطيهم منه أية قطرة قبل أن تؤمن منه لأطفال جميع الأسر الفقيرة مايكفيهم ، وان الارض تنتقل الى الشغيلة ، والمصانع والمصارف توضع تحت رقابة العمال ، وان إقدام اصحاب الملايين على اخفاء ثرواتهم يعرضهم فوراً لعقاب حازم ، حين يرى الفقراء ذلك ويلمسونه ، فما من قوة من قوى رأس المال المالي العالمي الذي يبتز مئات المليارات ستتمكن من قهر الثورة الشعبية ، بل بالعكس هي التي ستقهر العالم ، لأن الثورة الاشتراكية تنضج في جميع البلدان » . (١)

وطبيعي ان النضال الثوري ، وهو الجهد الانساني الواعي المنظم الذي يتولى دفع العملية الثورية الموضوعية التي تعتمل وتنضج ظروفها وشروطها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على نطاق العالم بأسره ، وفي مختلف البلدان ، كل حسب درجة تطوره ، لا يصح أن يعتبر مرادفاً للانتفاضة المسلحة أو حرب الانصار أو المقاومة المسلحة ضد محتل اجنبي في سبيل تحرير الوطن . انه مفهوم عام يشمل هذه الاشكال النضالية ، ولا ينحصر فيها . وللانتفاضة المسلحة، في المفهوم الماركسي - اللينيني، قواعدها وشروطها . ففي كراس « هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة »

(١) هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة ص ٢٧ الطبعة العربية

يستشهد لينين، حول هذا الموضوع، بالرأي التالي لكارل ماركس «ممثل ومؤسس تكتيك البروليتاريا الثورية»: «ان الانتفاضة فن كالحرب أو أي فن آخر. وهي تخضع لعدد من القواعد يؤدي اهمالها الى هلاك الحزب المسؤول عن هذا الاهمال... أولاً، لا تلعبوا ابداً بالانتفاضة قبل أن تكونوا على أتم الاستعداد لمواجهة جميع عواقب لعبتكم. فالانتفاضة معادلة أرقامها غير محدودة اطلاقاً، وقد تتغير كل يوم، والقوى التي تصطدمون بها تتفوق عليكم من حيث التنظيم والانضباط. (وهنا يعلق لينين قائلاً: يقصد ماركس هنا اصعب الحالات: حين تشب الانتفاضة ضد سلطة عريقة مكينة، ضد جيش لما يتفسخ بتأثير الثورة، ومن جراء تقلبات الحكومة) فاذا لم تجابهوا خصمكم بتفوق بالغ غلبتم وهلكتم. ثانياً، ومتى بدأتم الانتفاضة فاعملوا بأشد الحزم وبادروا الى الهجوم. فالدفاع موت كل انتفاضة مسلحة، وفيه تهلك قبل أن تجابه أعداءها. باغتوا أعداءكم حين تكون قواهم مشتتة، مبعثرة، هيئوا لانتصارات جديدة، وإن تكن طفيفة، شرط أن تكون يومية، حافظوا على التفوق المعنوي الذي أكسبتكم إياه أول حركة تكللت بالنجاح، لفوا حولكم تلك العناصر المترددة التي تتبع دائماً التيار الأقوى والتي تنظر دائماً الى الناحية الأقل خطراً، أكرهوا أعداءكم على التراجع قبل أن يتمكنوا من لم شمل قواتهم ضدكم، وتذكروا كلمات دانتون الذي هو أكبر معلم عرفه التاريخ في التكتيك الثوري: الجرأة، الجرأة أيضاً، الجرأة أبداً!»(1).

وفي فصل بعنوان «الماركسية والانتفاضة» يقول لينين: «ان الانتفاضة يجب أن يكون اعتمادها، في سبيل أن تنجح، على **الطبقة الطليعية**، لا على مؤامرة ولا على حزب. هذا اولاً. وثانياً، ينبغي أن يكون اعتمادها على

(1) كارل ماركس: الثورة والثورة المضادة في ألمانيا ـ الطبعة الألمانية ١٩٠٧ ص ١١٨.

اندفاعة الشعب الثورية. وثالثاً، يجب أن تنبثق الانتفاضة في منعطف من تاريخ الثورة الصاعدة «يكون فيه نشاط طليعة الشعب على أشده»، والترددات على أشدها في صفوف العدو وفي صفوف أصدقاء الثورة الضعفاء المحتارين المتلثين تناقضات»[1].

ويعتبر لينين حرب الأنصار شكلاً من أشكال النضال الثوري «لا مفر منه، في وقت «تؤدي فيه حركة الجماهير فعلاً الى الانتفاضة». ويشير الى أن ذلك يقع أثناء «فترات انقطاع ضخمة الى حد ما» بين المعارك الثورية الكبرى. وفي رأيه ان الماركسي لا يجوز له «ان يعتبر»، بصورة عامة، الحرب الاهلية أو حرب الانصار، التي هي أحد اشكالها، غير طبيعية ومثبطة للمعنويات. ان الماركسي يتخذ موقفه من منطلق الصراع الطبقي، لا مــــا من منطلق السلام الاجتماعي. ففي بعض عهود الازمات الحادة، الاقتصادية والسياسية، يؤدي الصراع الطبقي في تطوره الى حرب أهلية حقيقية، اي الى صراع مسلح بين قسمين من الاهلين. وفي مثل هذه العهود يجب على الماركسي ان يكون موقفه مع وجهة نظر الحرب الاهلية».

ولكن هذا الموقف ليس مطلقاً، وغير قابل لأي تحفظ. ففي الوسع، كما يقول لينين، انتقاد مختلف اشكال الحرب الاهلية «من وجهة نظر ملاءمتها العسكرية». وهو يرى أن «الصوت الحاسم في مثل هذه المسألة» انما هو للذين يمارسون النضال الثوري في كل منطقة متميزة. «ولكننا، باسم مبادىء الماركسية نطلب على نحو قاطع عدم التهرب من تحليل شروط الحرب الاهلية عن طريق كليشات وعبارات مكرورة عن الفوضوية والبلانكية والارهابية ... والحجة القائلة ان حرب الانصار تشوش الحركة، يجب بحثها بروح انتقادية. فان كل

(١) المؤلفات م ٢٦ ص ١٣ الطبعة الفرنسية

شكل جديد للنضال ، مما يستتبع اخطاراً جديدة وضحايا جديدة ، يشوش حتماً المنظمات غير المتأهبة له ... وكل عملية عسكرية ، في أية حرب ، تسبب بعض التشوش في صفوف المقاتلين . فلا ينبغي ان يستخلص من هذا عدم وجوب القتال . انما ينبغي فقط ان يستخلص من هذا وجوب تعلّم القتال » [1] .

وحين كانت الطبقة العاملة في روسيا تخوض نضالها الثوري ضد الحكم القيصري المطلق ، رسم لينين الخطة الستراتيجية للاطاحة بهذا الحكم ، مبيناً ان « حل هذه المسألة رهن بحـــالة الحركة العمالية ، بسعتها ، بأشكال النضال التي تصوغها الحركة ، بخصائص المنظمة الثورية التي تقود الحركة ، بموقف العناصر الاجتماعية الاخرى من البروليتاريا ومن الحكم المطلق ، باحوال السياسة الخارجية والداخلية ؛ اي ، بكلمة ، بالف شرط لا يمكن ولا ينفع التكهن بها سلفاً » . [2]

وفي هذا المجال ، حدد لينين علاقات الطبقة العاملة مـــع حلفائها في هذه المعركة مؤكداً ان « هـــذه العلاقات تحددها بدقة كاملة المبادىء الاساسية للاشتراكية الديمقراطية المعروضة في « بيـان الحزب الشيوعي » الشهير . فالاشتراكيون الدمقراطيون يؤيدون طبقات المجتمع التقدمية ضد الطبقات الرجعية ... وهـذا التأييد لا يتطلب اية مساومة مع البرامج والمبادىء غير الاشتراكية الدمقراطية : انه تأييد حليف ضد عدو معين ... ان الاشتراكيين الدمقراطيين يؤيدون كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي الحالي ، كل قومية مظلومة ، كل دين مضطهد ، كل فئة اجتماعية مستذلة ، الخ ، في نضالها من أجل المساواة في الحقوق » . [3]

---

(١) المؤلفات - م ١١ - ص ٢٢١ - ٢٢٣ - الطبعة الفرنسية .
(٢) « مهمات الاشتراكيين الدمقراطيين الروس » - ص ٤٠ - الطبعة العربية .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧ .

ويعتبر لينين الفلاحين الفقراء الحليف الاساسي للطبقة العاملة في نضالها الثوري من أجل الاطاحة بسلطة البرجوازية ، في سبيل القضاء على النظام الرأسمالي. ولما كانت البرجوازية الريفية ، الممثلة بفئة الفلاحين الاغنياء ، الكولاك ، الد أعداء الفلاحين الفقراء ، فهو يؤكد ان لا بد من تحطيم تسلط الكولاك في الريف من أجل نجاح الثورة ، فان « الكولاك ومصاصي دماء الشعب في القرى هم اعداء لا يقلون قساوة وارهابا عن الرأسماليين والملاكين العقاريين . واذا ظل الكولاك سليما معافى ، واذا لم يقهر مصاصو دماء الشعب ، ظهر القيصر والرأسماليون من جديد بصورة محتومة لا مناص منها »[1] .

وقد شهدت الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة نماذج ، ينبغي القول انها مصغرة ، من شراسة مقاومة البرجوازية الريفية للتحولات الثورية البدائية الجارية فيها . ولذلك يشدد لينين على ضرورة دعم العمال للفلاحين الفقراء في نضالهم ضد الكولاك . وهو يؤكد ان « العمال الصناعيين لن يتمكنوا من القيام بمهمتهم التاريخية ، وهي تحرير الانسانية من نير رأس المال ومن الحروب اذا هم عزلوا انفسهم في اطار مصالحهم المهنية الضيقة واقتصروا ، راضين عن انفسهم ، على بذل جهود ترمي الى تحسين وضعهم الذي قد يكون احياناً مرضيا الى حد ما ويشبه وضع البرجوازية الصغيرة » .

واذا كان الفلاحون - وسائر الفئات الشعبية المضطهدة - الحليف الاساسي الداخلي للطبقة العاملة في نضالها الثوري ، فان شعوب المستعمرات والبلدان التابعة هي الحليف الاساسي الخارجي لها في هذا النضال . ذلك ان الامبريالية ، اعلى مراحل الرأسمالية ، هي العدو المشترك لضحايا الاستثمار جميعاً ، افراداً وشعوباً ،

(١) مسألة الارض والنضال في سبيل الحرية ص ٧١ - الطبعة العربية .

من ابناء البلد الامبريالي ذاته ومن ابناء البلدان التي يمتص دمها وثروتها الاخطبوط الامبريالي الرهيب . ولهؤلاء واولئك مصلحة مشتركة في التساند والتعاضد في نضالهم الثوري ضد الرأسمالية والامبريالية ، وضد جميع القوى الرجعية . وهذا هو الأساس للاممية . واخلاصاً لهذه الأممية يقول لينين بحزم : «اذا لم تثبت الاحزاب الاشتراكية ، الآن ، وإبان الثورة ، وبعد انتصارها ، انها ستحرر الامم المستضعفة ... فانها ستخون الثورة »(١) .

وهو يؤكد ان « مركز الثقل في التثقيف الامي للعمال في البلدان الظالمة المضطهدة يجب ان يقوم حتماً على الدعاية لحرية البلدان المظلومة المضطهدة في الانفصال ... فبدون هذا لاتكون هناك اممية ، وكل اشتراكي ديمقراطي من امة ظالمة لايقوم بهذه الدعاية يحق لنا ويجب علينا ان ندعوه استعمارياً ونذلاً »(٢) .

واذا كان لينين قد سار بثورة اكتوبر الاشتراكية الى النصر رافعاً في مقدمة شعاراتها شعار السلام والنضال ضد الحرب ، فان هذا الشعار لم يكن موجهاً ضد الحروب الثورية الوطنية بل ضد الحروب الاستعمارية . فالاشتراكيون ، كما يقول لينين ، « لايمكن أن يكونوا ضد كل حرب ، الا اذا لم يبقوا اشتراكيين » . واذا كان لينين ، بعد ثورة شباط ١٩١٧ ، ووقوف الحكومة المؤقتة موقفاً شوفينياً عبر عنه وزراء حزب « الاشتراكيين الثوريين » والمناشفة بسعيهم لاستمرار الحرب مع « الحلفاء » الاستعماريين الانكليز والفرنسيين ، قد

---

(١) « ملاحظات انتقادية حول المسألة الوطنية » – ص ١٤١ – الطبعة العربية .
(٢) الثورة الاشتراكية وحق الامم في تقرير مصيرها – ص ٢٠٠ – الطبعة العربية .

فضح أهداف الحرب الاستعمارية التي يريد هؤلاء الوزراء استمرارها ، ووجه نداء الى الجنود الروس يدعوهم فيه الى الامتناع عن خوض هذه الحرب ، قائـلاً :

« أيها الرفاق الجنود الروس اتريدون ان تقاتلوا لكي ينهب الرأسماليون الانكليز مابين النهرين وفلسطين ؟ » (١) اجل اذا كان لينين قد اتخذ هذا الموقف المبدئي السليم ضد الحرب الاستعمارية ، فقد أيد دائمـاً حركات المقاومة الوطنية ضد المستعمرين . ففي عام ١٩١٢ ، مثلاً ، كتب في « البرافدا » (العدد ١٢٩) تعليقاً على انتهاء حرب ايطاليا ضد طرابلس الغرب قال فيه انها كانت مجزرة بشرية « متمدنة متقنة » ، كانت « تقتيلا للعرب بأحدث العتاد » ، منوهاً بان « العرب قاوموا مقاومة مستميتة . فحين انزل الاميرالات الطليان في بدء الحرب ، بدون حذر ، ١٢٠٠ بحار ، هاجمهم العرب وقتلوا منهم حوالي ٦٠٠ . و عقاباً لهم على ذلك قتلوا من العرب حوالي ثلاثة آلاف ، ونهبوا وذبحوا عائلات بأكملها ، وقتلوا النساء والاطفال » . وأضاف ساخراً : « الطليان امة دستورية متمدنة .. علقوا على المشانق حوالي الف عربي ، ولكنهم ، بالمقابل ، خسروا اكثر من عشرين الفاً ، منهم ١٧٤٢٩ جريحاً ، ومئة مفقود و ١٤٠٥ قتلى ... وقتل من العرب حوالي ١٤٨٠٠ » . ولكن لينين أعرب عن ايمانه ، باستمرار مقاومة العرب قائلاً : « ستستمر الحرب في الواقع بالرغم من (الصلح) ، لأن القبائل العربية الموجودة بعيداً عن الساحل في داخل القارة الافريقية لن ترضخ » .

وبعد هذا المقال بعشر سنوات تنبأ لينين بما نشهده اليوم في البلدان التي خلعت قيود الاستعمار من تحولات ثورية ضـد الرأسمالية وتطلعات الى

(١) (البرافدا – ١٠ أيار ١٩١٩) .

الاشتراكية . فقد أشار يومذاك الى « ان الملايين ومئات الملايين – وفي الواقع الاكثرية الكبرى من سكان الكرة الأرضية – تبرز الآن بوصفها عوامل ثورية نشيطة مستقلة ... ومن الواضح كل الوضوح ان حركة سكان الكرة الارضية التي تتجه في البدء وجهة التحرر الوطني ستنقلب على الرأسمالية والامبريالية في المعارك الفاصلة التي ستخوضها الثورة العالمية في المستقبل ، وقد تلعب دوراً ثورياً اكبر جداً مما نتوقع »[1] .

وكان لينين يرى في حينه ان ثورة التحرر الوطني المعاصرة تسلك دروباً ملأى بالأشواك ، وانها في كل خطوة تخطوها تصطدم بمقاومة ضارية من جانب الرجعية العالمية والداخلية ، وكل ثمرة تجنيها تكلفها جهوداً مضنية واخفاقات مؤقتة . وقد دأب لينين على توصية المكافحين ضـــد الامبريالية بعدم التخاذل وتحاشي الوقوع في الهلع لدى مواجهتهم الاخفاقات العابرة ، وان تكن خطيرة ، وتحليل الأخطـــاء المرتكبة بفكر سليم ، واستخلاص الدروس من الهزائم . وفي سبيل تجنيب ثورة التحرر الوطني المزالق التي تؤدي الى الانتكاسات والهزائم ، كما نشهد اليوم في بعض بلدان العالم الثالث ، كان لينين ينبه المناضلين الثوريين الى ضرورة التناول الماركسي لمفهوم « الثورة القومية » . فهو يرى أن هذا المفهوم « يجب أن يبين للماركسي ضرورة تحليل دقيق لمختلف المصالح الطبقية المختلفة التي تتوحد في سبيل بعض المهمات المشتركة المعينة والمحددة أيضاً . وهـذا المفهوم لايمكن بأية حال أن يكون أداة لاغفال ، لتجاهل ، دراسة الصراع الطبقي أثناء هذه الثورة أو تلك ... فان مثل هذا الاستخدام لمفهوم (الثورة القومية)

---

(1) حركة تحرير شعوب الشرق – ص ٣٩٩ – الطبعة العربية .

هو تخل عن الماركسية وعودة الى العبارة المبتذلة للدمقراطيين أو الاشتراكيين البرجوازيين الصغار[1] » .

فلنأخذ العالم العربي اليوم . إنه يجتاز مرحلة ثورية هامة جدا ومعقدة جداً ، تمتزج فيها الثورة التحررية الوطنية بالثورة الاجتماعية ، ويؤدي تطور حركة الثورية المتصاعد ، أمام الهجمة الامبريالية والصهيونية الشرسة ، الى اندماجها أكثر فأكثر بالعملية الثورية العالمية ، وتنعكس عليها مختلف التيارات الايديولوجية العالمية ، التقدمية والرجعية معاً ، انعكاساً يحدث غير قليل من التشوش في تحديد المفاهيم والمواقف السياسية لدى مختلف القوى الثورية . وبدون بوصلة النظرة الطبقية الى القوى الحليفة والمعادية ، يصعب على المناضلين تحديد الاتجاه الصحيح والتكتيك الصحيح لمسيرتهم . وبدون التسلح بمفهوم الصراع الطبقي ، لا يمكن ادراك أسباب خيانة أو تخاذل أو تذبذب هذه الطبقة أو الفئة الاجتماعية او تلك . هذا على الصعيد الداخلي . اما على الصعيد الدولي ، فلا يمكن بدون النظرة الطبقية ان يدرك المرء ، مثلا ، اسباب التعاون الوثيق بين ورثة النازيين - سفاحي اليهود - في المانيا الغربية ، وبين حكام تل ابيب الصهاينة ، المتاجرين بآلام اليهود وضحاياهم في العهد الهتلري . ومفهوم الصراع الطبقي هو وحده الذي يوضح أسباب ما تلقاه قلعة الاستعمار الصهيونية في الوطن العربي من دعم الدول الامبريالية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، وأسباب المساندة المخلصة التي تلقاها حركة التحرر الوطني العربية من الدول الاشتراكية ، وفي مقدمتها وطن لينين .

من كل ما تقدم يتبين لنا ، أولا ، ان لينين كان يعالج مسألة النضال الثوري لا من زاوية طوباوية ، عامة ومجردة ، بل من زاوية ألف باء الماركسية

(1) المؤلفات - م ١٢ - ص ٤٦ - الطبعة الفرنسية .

وحجر الأساس فيها ، أعني مقولة الصراع الطبقي ، محرك التاريخ ، ومولـــد الثورات . ويتبين لنا ثانياً أن القضية الأساسية التي يجب أن يتركز عليها الاهتمام عند رسم استراتيجية وتكتيك النضال الثوري ، انما هي العمل على تأمين النصر للثورة الاشتراكية ، والمحافظة على مكتسباتها ، والسير بها قدماً عبر دروب طويل لايمكن ، موضوعياً وذاتيـــاً ، أن يخلو من النكسات والالتواء والارتداد التكتيكي ، لمعاودة الاندفاع بقوة جديدة نحو النصر النهائي .

ففي سبيل حماية الثورة ومكتسباتها ، بعد اقامة سلطة السوفييتـات (مجالس نواب العمال والجنود والفلاحين) ، ناضل لينين بعناد وحزم ضـــد « اليساريين » الأدعياء ، معارضي معاهدة بريست ليتوفسك ، من أجل أن يتيح للثورة المنهكة ، عن طريق اقرار هذه المعاهدة ، فترة تتنفس فيها وتستجمع قواها. وقد كان خصوم لينين – في ذلك الحين – يرفعون شعارات الدفاع عن « الوطن » . أما هو فكان يرد عليهم بحزم قائلا : « اننا ندافع عن الاشتراكية ، ندافع عن الوطن الاشتراكي . ولكننا من أجل أن نكون قادرين على الدفاع عنـه ، كان لابد لنا من القبول بأشد المهانات هولا . فنحن نعلم أن في تاريخ كل شعب عهوداً لابد خلالها من التراجع أمام ضغط عدو ذي أعصاب أشد مقاومة . لقد حصلنـا على مهلة ، وعلينا أن نفيد منها لكي ندع الجيش يتنفس الصعداء قليلا ، لكي يدرك بجمهوره ، لا برؤوس عشرات الألوف من هؤلاء الذين يترددون على الاجتماعات الحاشدة في المدن الكبرى ، بل برؤوس الملايين وعشرات الملايين من الرجـال الذين توزعوا في الأرياف ، ان الحرب السابقة قد انتهت وان حرباً جديدة تبتدىء »[1] .

(١) تقرير عن السلام – ص ٣١ – ٣٢ – الطبعة العربية .

وفي سبيل حماية الثورة ومكتسباتها ، دعا لينين بعد شهور الى الحرب الشاملة ضد المتدخلين الامبرياليين ، ورفع شعار « كل شيء من أجل الحرب ، كل شيء للجبهة ، كلنا الى السلاح ! » . وكانت النتيجة أن سقطت معاهدة بريست ليتوفسك في تشرين الثاني ١٩١٨ ، وفي هذا الشهر بالذات قال لينين في خطاب عن الوضع الدولي في المؤتمر السادس الاستثنائي لسوفييتات نواب العمال والفلاحين والقوزاق والجنود الحمر : « ان حصيلة سياستنا الخارجية هي أننا بعد ستة شهور من صلح بريست ليتوفسك بلد محطم ، من وجهة نظر البرجوازية ، اما من وجهة نظر البروليتاريا فاننا سائرون في طريق نهوض سريع ، فها نحن على رأس جيش بروليتاري أخذ يزعزع النمسا والمانيا . ان هذا النجاح قد أكد وبرر تماماً في نظر كل ممثل للجماهير البروليتارية ـ جميع التضحيات التي سبق تحملها »[١] .

وفي سبيل هذا الهدف بالذات عارض لينين ، بكل ما يتميز به من قوة اقناع مفحمة ، الافكار التي كانت تنادي بها مختلف المجموعات « اليسارية » التي كانت ترفع شعار « الثورة الدائمة العالمية » ، مستنكرة استلام البروليتاريا للسلطة قبل ان يتم انجاز هذه الثورة . وقد حذر ـ في هـذا الصدد ـ من العبارة الثورية الفارغة وشدد على ضرورة محاربتها « من أجل أن لاتقال عنا ذات يوم هذه الحقيقة المرة : كانت العبارة الثورية الفارغة عن الحرب الثورية سببا لضياع الثورة »[٢] .

وباسلوبه الفريد اللاذع سخر من « حكماء يعتقدون انهم جد أذكياء ، بل ويصفون أنفسهم بانهم اشتراكيون ، يزعمون انه ما كان ينبغي أخذ السلطة قبل ان تندلع الثورة في جميع البلدان . وليس يخامرهم شك في انهم ، إذ يتكلمون

(١) تقرير عن السلام ص ٦٥ الطبعة العربية .
(٢) المؤلفات ـ م ٢٧ ـ ص ١١ ـ الطبعة الفرنسية .

على هذا النحو، انما يبتعدون عن الثورة وينتقلون الى جانب البورجوازية. ان انتظار قيام الطبقات الكادحة بالثورة على النطاق العالمي، إنما هو تجمد الجميع في حالة الانتظار. ان هذا لهراء... ان مهمتنا هي الاناة والاحتراس. علينا ان نراوغ ونتراجع بانتظار امدادات تصل الينا. فلا مناص من الانتقال الى هـــذا التكتيك، برغم سخريات من يسمون أنفسهم ثوريين من هذا التكتيك، إلا انهم لايفهمون شيئاً من الثورة»(١).

وفي سبيل انتصار الثورة الاشتراكية على النطاق العالمي كانت تعليمات لينين تقول في ذلك الحين: «أحسنوا اعطاء القوى، أحسنوا تقـــديم الشعار، حققوا الانضباط. ذلك هو واجبنا حيال الثورة الاشتراكية. فـاذا ماتحققت هـــذه الشروط، فـسيكون في وسعنا الصمود حتى تبادر البروليتاريا الخليفة لمساعدتنا، ومعها ستتغلب على جميع الامبرياليين وجميع الرأسماليين»(٢).

وبنظرة واقعية نفاذة الى آفاق المستقبل، قال لينين فيا بعد: «ان الثورة العالمية التي تنبأنا بها تسير الى امام. ولكن هذه الحركة الصاعدة لم تسلك درباً مستقيماً، كما كنا نحسب... فـماذا علينا الآن ان نعمل؟ لابد من التهيئة بنشاط للثورة، ودراسة تطورها المشخص بصورة معمقة في البلدان الرأسمالية المتقدمة... أما فيا يتعلق بجمهوريتنا-في روسيا-فينبغي ان نفيد من هذه الهدنة القصيرة من أجل ان نوفق تكتيكنا مع هذا الدرب التاريخي المتعرج»(٣).

وقد جاء في الموضوعات التي نشرتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي

---

(١) تقرير عن السلام - ص ٤٧ - الطبعة العربية.

(٢) المرجع السابق - ص ٣١ - ٣٢

(١) المؤلفات - م ٣٢ - ص ٣١٢ - الطبعة الفرنسية).

السوفييتي بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد لينين انه كان يؤكد ، لدى تحليله سير المعارك الطبقية في البلدان الرأسمالية ، ان التناقضات الطبقية ستزداد حتماً حتماً أكثر فأكثر ، وان صراع الطبقات سيزداد عنفاً أكثر فأكثر. وفي هذه الظروف يمكن ان تظهر « فجأة » ، وتتطور بسرعة أزمات سياسيـــة حادة ذات أسباب متنوعة جداً « . . . حين تتوفر الظروف الموضوعية لأزمة سياسية عميقة ، فان النزاعات البالغة منتهى الضآلة والتي تبدو في غاية البعد عن بؤرة الثورة ، يمكن ان تأخذ أهميـــة كبرى ، وتصير علة ، وتكون نقطة الماء التي تجعل الكأس تطفح » (١) .

وتنوه الموضوعات آنفة الذكر بان نبوءة لينين هذه تتحقق في هذه الايام ، إذ يخوض الكادحون في البلدان الرأسمالية الأكثر تطوراً معارك مستمرة ترتدي أحياناً طابعاً عفوياً . ولهذا السبب — تقول الموضوعات — تزداد أهمية نصيحة لينين بان نكون على مستوى متطلبات الساعة ، وان نعرف مزاج الجماهير ، وان لانسمح بالتأخر عن وتيرة حركة الجماهير التي تتكدس فيها شحنة ثورية .

ونحن اليوم في العالم العربي ، نعيش مرحلة عاصفة من تاريخنا تولد فيها الشحنات الثورية المتكدسة في أعماق الجماهير العربية أحداثاً جساماً متعاقبة ، ومفاجئة ، حصيلتها الأساسية خطوات جدية الى امام يكفي لتقدير أهميتها ان يزن المرء مقدار الضراوة التي تبديها قوى الامبريالية والرجعية في محاربتها ومحاولة منع انتشار عدواها الى القلاع الأخيرة للاستعمار والرجعية في العالم العربي ، والسعي الى نسفها من الداخل او حرفها عن مسارها . على ضوء هذا الواقع يمكن ويجب فهم دوافع وأهـــداف العدوان الاسرائيلي ، والدعم الاميركي المستمر والمتزايد لهذا العدوان .

(١) المؤلفات — م ١٥ — ص ٢٩٦ — الطبعة الفرنسية .

ان نبوءة لينين العبقرية بتحول ثورات التحرر الوطني الى محاربة الرأسمالية تتحقق اليوم في العالم العربي بقوة وجلاء ، فالاشتراكية التي لم يكن ينادي ويحلم بها غير الطلائع الواعية من العمال والمثقفين ، باتت اليوم شعار نضال يتردد على ألسنة الجماهير العربية بملايينها العديدة .

لقد حول لينين النضال الثوري الى علم ، الى فن ذي أسس علمية لابد من الاسترشاد بها في سبيل انتصار الثورة والعلوم ، على اختلافها ، واختلاف منابتها ، وتعدد وتنوع المسهمين العباقرة في تطورها ، تؤلف تراثاً مشتركاً للانسانية ، لايمتنع عن الافادة منه إلا من يستمرىء التخلف او يستغله ، ولا يمنع من الافادة منه إلا من له مصلحة في استمرار التخلف .

لينين والفلسفة المادية

أنطون المقدسي

ثوري فيلسوف، وفيلسوف ثوري :

ربما ان لينين هو الوحيد في تاريخ الانسانية الذي حقق حلم افلاطون في أن يصبح السياسي فيلسوفاً ، والفيلسوف سياسياً . انه واحد من بناة العالم الحديث . وهو ، الى جانب ذلك ، فيلسوف ؛ لا لأنه قرأ ماركس وانجلز قراءة جديدة فحسب ؛ لا لأنه قرأ أمهات التراث الغربي من ارسطو ومن قبل ارسطو الى أيامه على ضوء الماركسية فحسب ؛ بل لأنه ، ككل فيلسوف حق ، اقام بين النظر والعمل فسحة تأمل ، فيها يستطيع العقل ان يستجلي مبدأ الحدث وابعاده ومعناه . فقد وضع مؤلفه

الفلسفي الكبير (المادية والتجربية الانتقادية) عام ١٩٠٨ ، أي بعد اخفاق الثورة الشيوعية الاولى بثلاث سنوات ليبحث الاسس والمبادىء الاولى التي يشاد عليها العلم ، وذلك بالاستناد الى احدث نظريات الفيزياء الرياضية . وفي عام ١٩١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الثانية واعتقد الناس أن الأممية العمالية قد علقت لأجل غير مسمى ، وان الثورة الشيوعية قد مضى عهدها وانقضى ، في هذه الفترة بالذات أخذ يقرأ اكثر المؤلفات الفلسفية تجريداً واعسرها منالاً ، ألا وهو كتاب (علم المنطق) لهيجل ، ويعلق عليه ليتبين معنى المثالية والديالكتيك المثالي عند هيجل وغيره فيحقق على طريقته هدفاً ماركسياً ألا وهو عزل النواة العقلية للديالكتيك عن قشرته الصوفية ، وما تزال (دفاتره الفلسفية) ، على ايجازها ، مرجعاً من مراجع الفلسفة الخالصة . ويلاحظ القارىء المدقق لبياناته السياسية ذاتها ان هذا الانسان الفذ على معرفة غزيرة بالانسان وبعلومه ، وانه ، يتفاعله مع الجماهير الشعبية ، يدرك ، حدساً وعاماً ، ما تنطوي عليه نفسيتها من منظومة افكار (ايديولوجيا) مضمرة اذا ما اتضحت اصبحت محركاً فعالاً وبناء من محركات التاريخ . فأكثر النظريات الفلسفية تجريداً لها عند لينين دلالة عملية ، تحولها الى انجاز اذا ما استخدمت استخداماً محكماً . لا بل ان انجازات لينين الثورية والتنظيمية ذاتها فلسفة ، اذ انها تتعدى حدود الحاضر لتضم الماضي الى المستقبل .

أجل لقد حقق لينين مشروع افلاطون الكبير فاحتفظ للفلسفة بفسحتها التأملية الخالصة ، ومع ذلك جعل منها نظرية لسياسة هي سياسة الانسان ، علماً وتنظيماً اجتماعياً ، تستمد قوتها من ارتباطها المباشر وغير المباشر بهذه السياسة .

كما انه حقق مشروع ماركس الذي لا يقل أهمية عن مشروع افلاطون ، ألا وهو التلاحم بين الطبقة العاملة ونظريتها ، أو بين الثورة والفلسفة .

فلم يقتصر لينين على اعـــادة ماركس ، بل استعاده ، في حين كانت المناقشات البيزنطية تكاد تستأثر باهتمام اركان الاممية الثانية وتشل عملهم الثوري. لا بل انه استعاد روسيا القيصرية وتاريخها الطويل في الاتحاد السوفييتي ، الذي شق للعالم برمته طريقاً جديدة للتحرر والعدالة .

واقصد بالاستعادة قراءة هي ، ككل القراءات الفلسفية الحقة ، تلاق بين واقع ونظرية ، يغني كل منها الآخر . فماركس انطلق من واقع العـــالم الصناعي، يوم نشأ ونشأت معه البروليتاريا قوة تناهض البورجوازية المحتكرة . أما لينين فانطلق من واقع الامبريالية ، أي من الرأسمالية وقد تحولت الى احتكارات عالمية تركزت في المجمعات الصناعية - التجارية ، ومن ثم في المجمعات المصرفية . أما لينين فقد رأى في الواقع الذي انطلق منه ظواهر جديدة لم يكن باستطاعة ماركس أن يراها ، قد يكون أهمها : اولاً ، نشوء البورجوازية المحلية العميلة تصطنعها الامبريالية حليفاً لها ، ومن ثم المشكلة الفلاحية ، واخـــيراً الشعوب المتخلفة وقد بدأت تثور لتستعيد حريتها . فكان عليه أن يعيد النظر في مفهومي الثورة والاممـــية . واخيراً فان ماركس قـد انطلق من وضع ثقافي تجمع حول مثالية تتداعى لأنهـا ادركت مع هيجل نهاية مطافهـا ، في حـين كانت روسيا القيصرية ، على مافيها من امكانات فكرية ، ما تزال ترى في التراث الغربي نموذجاً عليها ان تقلده كي يستقيم شأن الفكر فيها .

فكان على لينين أن يجـد ، نظراً ، النقطـة التي يمكن للثورة البروليتارية أن تنطلق منها ، محلياً وعالمياً . ولقد تبدت له نقطة الانطلاق هذه من خـلال تعميقه للدياليكتيك الماركسي في أقوى انجازاته وأمتنها ، ألا وهي صراع القوى المنتجة بوصفها محركاً للتاريخ .

فالبورجوازية بدت لماركس طبقة متماسكة عالمياً في مصالحها ؛ وهي حقاً كذلك البارحة واليوم وغداً . ولكن تطورها خلال القرن التاسع عشر أدى الى توزعها في معسكرات متناحرة على الأسواق العالمية ، هي بمثابة حلقات متعددة لسلسلة واحدة ، منها الضعيف ومنها القوي فالأقوى . إذاً يجب ، طالما أن نموها متفاوت ، أن تسدد اليها الضربة في أضعف حلقاتها ، الا وهي روسيا القيصرية . ولقد كان حدس لينين النظري هنا ، كما في مجالات اخرى صحيحاً بصحة يمكن أن تتحول لتوها الى عمل .

وعلى هذا الأساس النظري البحت، قامت الثورة الشيوعية في بلد واحد .

ولكن لينين ثوري في الفلسفة ذاتها ، لا لأنه وضع مذهباً فلسفياً مبتكراً نقض ما قبله كما قد يعتقد البعض ، فقد قامت قبله وبعده فلسفات كثيرة غنية بالمعاني الجديدة ؛ ولا لأنه أحل المادية محل المثالية . فقد حاول ذلك من قبله ماركس وانجلز ، كما يقوم اليوم فلاسفة جدد بالمحاولة ذاتها ؛ بل لأنه أضاف الى الفلسفة بعداً جديداً ، هو العنف الثوري ، مكنّه من أن يقحم الحديث في القديم والقديم في الحديث بحيث قطع التاريخ واستأنفه مسيرة جديدة ، رامياً ما اعتقد من الضروري رميه ومستعيداً ما اعتقد من الضروري استعادته ؛ ومكنّه أيضاً من أن يقحم الفكرة في الحدث والحدث في الفكرة بحيث أصبح الفكر واقعاً والواقع فكراً ، بحيث أصبحت الثورة نظرية والنظرية ثورة . وكلنا يعرف كلمته المأثورة : « لا توجد ثورة بدون نظرية ثورية » . ومكنّه أخيراً من أن يحول الى حقيقة واقعة ما كان نظراً مجرداً عند هيجل ، ورؤية عند ماركس وخلفائه المباشرين .

فديكتاتورية الطبقة العاملة والاشتراكية ومجتمع العمل تربية وتنظيماً وتحرر الشعوب وغيرها ، من انشاء لينين ولينين ، وحده .

فقلسفة لينين جزء لا يتجزأ من ممارسته الثورية . وممارسته هـــذه في تطلعاتها وفي انجازاتها ، لا بل انها في تطلعاتها أكثر مما هي في انجازاتهـا . وهي لهذا تعنينا لأن لينين لم يضع الأسس النظرية لكل ثورة مقبلة ، وإنما شق للثورة آفاقاً جديدة وعين لها مرامي مبتكرة هي التي يفيد منها الفكر الثوري ، عملاً ونظراً ، اليوم وغداً ولزمن طويل .

ولقد ركز لينين فلسفته حول مفهوم واحد هو ، في نظره ، مبـــدأ عقلي ووجودي ، مبدأ أول اطـلاقاً وبالمعنى الارسططالي لهذه الكلمة ، لتفسير الموجودات ولتحويلها ، هو المادية بوصفها معنى كلياً وواقعاً لا متناهياً منه تشتق المعاني والموجودات ديالكتيكياً في حركة واحدة توفق ، كما عند هيجل وماركس ، بين الضرورة والحرية .

فما المادبـــة ؟

«المثالية نصف الفلسفة» :

لم يقصد ماركس بهذه الكلمة المعروفة أن الفلسفة تأليف يتركب من شقين ، الأول هو المثالية والثاني هو المادية . فماركس فيلسوف مادي وضـــع للمادية الحديثة عـدداً من الأسس أصبحت من مستلزماتها ومن مستلزمات كل مادية مقبلة . اذاً ما معنى كلمته هذه ؟ ولم حاول بمحاولة قلما نجد لهـا مثيلاً في تاريخ الفكر تخطي الهيجلية التي عاش شبابه في مناخها ؟ وأخيراً ما علاقة ماديته بمادية لينين ؟ .

من المعلوم أن المادية الحديثة على تعدد مدارسها ، انبثقت من صميم المثالية لتصهرها في تأليف جديد يقومها ويعصمها من الشطط . وكلنا يعرف كلمة ماركس : « ان الديالكتيك لدى هيجل قائم على رأسه ، فعلينا أن نقلبه كي نتبين نواته العقلية في قشرته الصوفية . » فما الذي استدعى عملية القلب هذه ، وكيف حصلت تاريخياً وفلسفياً ؟.

كي نجيب على هذا السؤال فنفهم علاقة المثالية بالمادية ، وبالتالي حقيقة المادية ، كي نفهم حدود المادية وحدود المثالية علينا أن نسائل هذه عن مراميها ، تتضح لنا من خلال عرض سريع لتاريخها الذاتي وللظروف التي استدعت قيامها .

لقد مرت المثالية خلال تاريخها الطويل في مرحلتين كبيرتين :

بدأت مع أفلاطون في ثلاث قضايا متلازمة : أولاها ، أسبقية المعقول (أو الكلي على حد تعبير أرسطو) وجوداً منطقياً له ملء الوجود على الظواهر المبعثرة التي هي تجلياته المنقوصة . الثانية ، هي ان هذا المعقول تعبير . فالمثل ليست المثالي أو النموذجي كما يدل منطوق الكلمة العربية ، بل هي في الاشتقاق الاغريقي (Eidos ومنها idée و idea) الفكر بوصفه يؤلف مفاصل الوجود الطبيعية ، وحيث يصبح هذا الوجود بيناً وبياناً بذاته ولذاته . الثالثة ، هي ان العقل الانساني جزء من هذا الوجود يستطيع أن يدركه ، لأنه قوة ابصار وقدرة على الرؤيا ، وأن يقوله كلاماً علمياً معقولاً (والاثنان واحد) يهدي السياسي ويقوم السلوك الفردي .

وبدأت المرحلة الثانية في مطلع العصور الحديثة مع ديكارت ، انطلقت

من الفيزياء الرياضية ، باكورة العلم الحديث ، ليرى في الأشياء موجودات تتسم بالقصور الذاتي (العطالة) وتتحدد بالامتداد ؛ وان الانسان بوصفه ذاتاًمفكرة (كوجيتو) هو الحامل لهـــذه الأشياء ، بوسعه أن يستنبط قوانينها استنتاجاً رياضياً فيسخرها لخدمته .

لم يكن ديكارت لا مثالياً ولا مادياً . ولكنه بتمييزه القاطـــع بين الفكر ذاتاً وبين الأشياء ، أو بتصنيفه الموجودات في منطقتين (جوهرين) منفصلتين اطلاقاً ، مهد الطريق لقيام المثالية المطلقة في صيغتها التحليلية (باركلي وليبنتس) ومن ثم في صيغتها الديالكتيكية . ومابرحت المثالية الأخرى الحديثة كلها تتراوح بين هاتين الصيغتين .

وتلتقي المثاليات كلها في نقطة واحـــدة هي أن الأشياء بوصفها أشياء لا قوام لها بذاتها ، بل انها أسماء لمسميات قائمة في العقل الالهي (باركلي ومالبرانش قبله) هو الذي يقولها، أو انها مجموعة أبعاد فكرية ترتد الى معادلات يستنبط بعضها من البعض الآخر تحليلاً (مثالية ليبنتس التحليلية) ، فاللغة التي تقولها هي لغة الرياضيات ؛ أو أن الأشياء أخيراً هي مجموعة حدود متعارضـــة يستدعي أحدها الآخر ليأتلف معه في حد ثالث هو التأليف بينها ، يصبح نقطة انطلاق ثلاثية جديدة وهكذا ... فالمشخص أو الواقع هو الكل أو الفكر المطلق حيث تنتظم كل الحدود ، وما عداه تجريد (مثالية هيجل الديالكتيكية) . فالقول هنا ايضاً قول عقلي خالص يستخدم المفهوم لغة كلية .

فالمثالية آلت في نهاية المطاف الى هـــذه النتيجة وهي ان الموجودات - فكراً وأشياء - مجموعة ابعاد عقلية يحركها ويتحرك معها الفكر ليتحقق عقلاً كلياً واعياً لذاته ولعالمه ، ينظمها تنظيماً يوفق بين الحرية (الانسان) والضرورة

(الاشياء) . وكلنا يعرف كلمة هيجل : « كل ما هو عقلي واقع ، وكل ما هو واقع عقلي » .

ان المثالية الهيجلية ليست خلاصة المثاليات كلها فحسب بل انها خاتمة مرحلة من مراحل الفكر الانساني او بتعبير ادق ، خاتمة وجه من اوجه هذا التاريخ وهي مرحلة بدأت مع افلاطون وارسطو (وارسطو كان ديالكتيكياً على طريقته) في محاولة لانشاء الفلسفة علماً شاملاً تشتق منه بقية العلوم . ولما كان العلم ، أي علم ، والمعرفة ، أية معرفة ، ترجمة الحدث بمفهوم (لغة العقل الخالص) ، فالمثالية الهيجلية في استعدادها لتاريخ الانسان برمته – فناً وأدباً وفلسفة ، اشياء واحداثاً وطبيعة – زعمت في ادعاء لا مثيل له في تاريخ الانسان انشاء هذا العلم بقراءة الواقع قراءة عقلية خالصة . وهي بذلك استنفدت مضمون هذه القراءة . فكان على العقل ان يقلها ، كي لا ينضب معينه وتتوقف مسيرته .

ولكن تاريخ المثالية فلسفة لا يتضح الا اذا ربطناه بمشكلات التاريخ الانساني الذي استدعاها جواباً . فالفلسفة ، كغيرها من فعاليات الانسان، وليدة ظرف هو الذي يفصح عن قيمتها وعن حدودها .

فلقد كان على المثالية الافلاطونية ان تحل مشكلتين متلازمتين ومتعارضتين : الأولى ، ما إذا كان بوسع القول الانساني أن يصبح بقياس الوجود ، معرفة وحكمة ؛ الثانية ، ما إذا كان باستطاعة العقل الانساني أن يضع رياضيات تقرأ الوجود عدداً ، إذ عندئذ تصبح السياسة علماً له من الدقة ما للرياضيات .

والقراءة الرياضية هي التي استعادها ديكارت ، واستعادتها أغلب المثاليات المنبثقة عنها . إذ ان الفيزياء الرياضية – فيزياء غاليله ونيوتن – والرياضيات ذاتها – الهندسة التحليلية ، حساب التفاضل والتكامل – جعلتهم يعتقدون أن باستطاعة

العقل تحويل الاشياء الى ظواهر ، وهذه الى معادلات ، وبالتالي تحويل الحكمة النظرية الى حكمة عملية . وعلى هذا الأساس فكر ديكارت بوضع علم اسماه (الحساب الكلي) كما فكر لايبنتس بوضع علم آخر من النوع ذاتـــه اسماه (علم الخصائص الكلية) . والعلمان ، على انهما هدف لم يتحقق ، يعبران عن طبيعة تلك المرحلة التاريخية . في حين كانت السياسة (منطقة حراماً) اي وقفاً على ملكية مستبدة تساندها ارستقراطية — اقطاعية متداعية ، وبسبب تداعيها، تريد ان تستأثر بالسلطة للحفاظ على امتيازاتها .

ولكن نمو البورجوازية في هذه الفترة بالذات (القرنين السابع عشر والثامن عشر) ما عتم ان اقحم المشاكل الاجتماعية ، عبر الادب ، في الفلسفة . فظهرت فئة من المفكرين ، من امثال ديدرو ودلنبر والموسوعيين ، وضعت ، بالاستناد الى التجربة والى مشتقاتها ، بذور المادية الحديثة ، ومن ثم أسس الدولة الليبرالية ، وفي الوقت ذاتـــه تقريباً ، نواة الفكر الاشتراكي . وبذلك مهد القرن الثامن عشر لقيام الثورة الفرنسية ولنشوء المادية الماركسية والماديات التي تلتها .

ان الثورة الفرنسية تتخطى، بمنجزاتها، البورجوازية . ومع ذلك فهي التي ضمنت لهذه الطبقة سيطرتها ، كما ضمنت لها انتشار ايديولوجيتها في الغرب ومن ثم في العالم .

وكذلك هيجل ، فنظريته في السياسة وفي المجتمع اوضحت الابعاد السياسية للدولة الحديثة التي ما تزال قائمة حتى الآن . ومع ذلك فقد عبرت بأصدق تعبير واقواه عن نظام الحكم البورجوازي :

فالتلاقي يكاد يكون هنا كاملاً بين البورجوازية وبين الفلسفة ، ولكن ضمن اطار التفكير السياسي .

كان القرن الثامن عشر متفائـــلا يعتقد انه ادرك قمة المعقولية في فهم الانسان وفهم الطبيعة . ولكن فكره ـ هذا الفكر الذي استكمل شروط وجوده مع هيجل ـ لم يدرك ، في خطه الليبرالي ولا في خطه الاشتراكي ، ان الثورة الفرنسية اطلقت الشعب من عقاله ، مرة ولكل مرة ، اطلقته قوة جديدة هي نواة المجتمع الذي سيلي ؛ وأن الثورة الصناعية استلزمت قيام طبقة عمالية في تعارض اساسي مـــع طبقة بورجوازية محتكرة وجشعة ، وان هذا التعارض الديالكتيكي هو المحرك الاساسي للتاريخ الحديث منذ ان بدأ والى ان يزول التعارض .

وكذلك الفلسفات الكلاسيكية ـ فلسفة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ـ المثالية منها وغير المثالية ـ فمنطوقها لم يعد كافياً للتعبير عن المستقبل في قواه المحركة وفي تطلعاته . فكان على الفكر ان يرتد إلى اصولها ليكشف في منابع الفكر عن منطلقات عقليـــة اخرى تعمق التجربة الانسانية فتقرأ في الاحداث الواقعة دلالات المستقبل فكراً وعملاً .

من هذه الحاجة ، او بالاحرى من هذا النداء ، ولدت المادية جواباً على اسئلة طرحها التطور ، واستكمالاً لطريق شقت بعضه فلسفات الماضي وستشق غيره فلسفات اخرى تلي المادية وتكملها . اذ ان من شأن العقل الانساني ان ينمو بالتجاوب المستمر مع الاحداث تاريخاً متكامل الحلقات .

فماركس لم يلغ هيجل . والمادية لم تحذف المثالية ، وانما صهرتها في

تأليف مبتكر ، ومنه منها ما هو بالٍ من وحي الظرف ، واستبقى ما هو باق يتخطاه . وبذلك تكشف المثالية عن « نواتها العقلية » .

قلت عن هيجل انه نهاية مرحلة من مراحل الفكر الانساني . ولكنه اقتصر في قراءة التاريخ على الجانب المثالي ، فاوصل هذه القراءة الى ابعد حد كان يمكن ان تصل اليه اذ ذاك . ولهذا تفككت مثاليته ، وربما المثالية برمتها ، لا بمعنى انها مضت وانقضت فاصبحت من مخلفات الماضي (فلقد وضعت بعد هيجل مثاليات اخرى اقل شأناً منها كمثاليات «شوبنهاور» و«هملين» و « رينوفيه » ، ومع ذلك فهي فلسفات مثالية) ، وانما بمعنيين متلازمين : الاول هو أن الفكر اصبح بحاجة الى قراءة اخرى للتاريخ استلزمها تطوره . فالحاضر يستدعي الماضي ليعد المستقبل . وهذه القراءة هي التي بدأت مع ماركس وانجلز في استعادة ديالكتيكية لمادية «دموقريطس ودلباخ وهلفسيوس وديدرو وغيرهم . الثاني هو ان مثالية هيجل اعدت التربة التي نبتت فيها الفلسفات الفنومنولوجية والوجودية .. والفلسفات المادية .

وبهذا المعنى اقول، مستعيداً ماركس ان المثالية اصبحت بعداً من ابعاد المادية ، ومن ثم من ابعاد فلسفات اخرى ليست مادية ولا مثالية . كما ان الفكر بعد من ابعاد الوجود . ذلك ان المبادىء العقلية المنتجة من بنية العقل . والعقل قائم في التاريخ وقبله وبعده ، ينظمه ، ويكتشف بناه الذاتية في عملية التنظيم هذه . والعقل والتاريخ من الوجود ، هما عقله وتاريخه . ولكن هل الوجود برمته مادي ؟ واذا قلنا ذلك فما معنى قولنا ؟

تقال المادية على عدة معان :

يلخص برغسون مثالية باركلي في اربع قضايا نقتطع منها اثنتين : الأولى

هي ان المادة مجموعة أفكار ؛ والثانية هي أن الافكار المجردة ترتد الى اسماء . ثم يضيف معقباً ما خلاصته : إن المثالية لا تقتصر على ابدال الجسم بالفكرة ، فهذه قضية لا معنى لها طالما ان بوسعنا أن نقول عن هذه الافكار كل ماتدفعنا التجربة الى قوله عن الاشياء ، وكل ما في الأمر هو اننا استبدلنا كلمة بأخرى . ويضيف ايضاً : ان المادة بدت لباركلي بمثابة قشرة شفافة .. في حين أن الماديين يضيفون اليها الكثافة (برغسون ، الفكر والمتحرك ، الحدس الفلسفي) .

إن برغسون يلمس هنا النقطة الدقيقة التي تفصل بين المثالية والمادية ، ولكن إبدال الشيء بالفكرة أو الفكرة بالشيء أمر تترتب عليه نتائج كبيرة . فالمادية لا تقوم ، كما يظن البعض ، على احلال المـــادة محل الفكر المطلق الهيجلي . والتسميات الأساسية في الفلسفة ليست (بونة) ، إذ انها مبادىء أولى ، بالمعنى الارسططالي للكلمة ، كل منها يؤدي الى عالم قد يتفاعل مع الآخر ولكنه منفصل عنه كل الانفصال . واذا مادفعنا بالمثالية الى أقصى حدودها كما فعل هيجل ، وبالمادية ايضاً الى اقصى حدودها كما فعل لينين الفيلسوف ، فالتعارض بينهما يصبح كلياً . فالوجود مادة غير الوجود فكرة ؛ لا بغيرية ديالكتيكية بل بغيرية مطلقة . وهذا مالاحظه لينين عندما ربط الموضوعية العلمية بالمادية ، وبها وحدها . (المادية والتجربة الانتقادية) .

ليست المادية ، كما يظن البعض ، المحسوس والملموس من الاشياء ينعكس في الشعور فكراً ومعاني ، أو أدباً وسياسة ، تتحول كلها ، لاندري بأية عملية سحرية ، الى بنى فوقية . كما انها ليست تأكيداً على فكرة واحدة ، وحيدة البعد ، يقابلها موجود واحد متجانس الوجود ، بل هي عالم فكري متعدد المستويات

متنوع المعاني ، يؤلف موقفاً من الوجود وتفسيراً له وسياسة مستمدة منه . انها تاريخ ورؤيا .

ومعانيها على أنواع متلازمة أهمها ، فيما نرى ، ما يلي :

١ ـ المعنى الانتروبولوجي ، يعرف الانسان بالحاجات سواء منها المادية أم النفسية ، الجسمية أم الفكرية أم الروحية . فالانسان بما هو انسان وحدة عضوية تتألف من ميول كل منها يتمم الآخر ، ويعبر عن حاجة لاتنفصل عن الأخرى . وهذه الحاجات هي التي تشد الانسان الى الطبيعة وتفصل بينهما ، بحيث يكمل كل منهما الآخر .

٢ ـ المعنى الثـــاني يفسر التاريخ والمجتمع بالقوى المنتجة ، وهي قوى اجتماعية تعمل لسد الحاجات الانسانية فتدخل بعضها مع البعض الآخر في صراع فيه تتمايز الطبقات وهو المحرك للتاريخ ، منذ أن كان الانسان والى أن تتحقق الشيوعية (المادية التاريخية) .

٣ ـ المعنى الفلسفي ، واقصد به الفعل المبدع (براكسيس) مبدأ يفسر العالم الانساني برمته ويحوله . وهو يوحد في الانسان بين الماهية والوجود ، بين النظر والعمل ، بين الذات والموضوع ؛ وربما بين المثالية والمادية ، ولكن لصالح هذه الاخيرة ، إذ ان الفكر هنا ينبثق من العمل ليرتكس عليه وينصهر فيه . ان الانسان هنا بالاصل كائن عامل ، والعمل بالاصل اجتماعي . ومن هـــذا العمل الاجتماعي يستمد الانسان طبيعته ، طبيعة ستبقى في ضياع الى أن يتحقق الانسجام بين القوى المنتجة في المجتمع الشيوعي حيث تزول الفوارق الطبقية بزوال استغلال الانسان للانسان ، وحيث تصبح الحرية ضرورة والضرورة حرية .

٤ ـ المعنى الأنطولوجي ، وأقصد به ذلك الذي يؤلف بين المعاني الأخرى

إذ يكشف عن أساسها الأول ، ذلك الذي يتسع لها كلها لأنه الحامل للموجودات وعنه تشتق. هذا المعنى هو المادة بوصفها الكل الشامل ، يتحرك بحركة ديالكتيكية مستمرة فيبدع الموجودات ، أشياء وأناساً ، أفراداً وجماعـــات ، شعورات وموضوعات ، الخ . وضع هذا المعنى انجلز ، وحدده لينين بتحديد فلسفي دقيق إذ ميز بين مفهوم المادة العلمي ومفهومها الفلسفي . الأول نسبي يتبدل بتبدل البحث العلمي فيزداد دقة . أما الثاني فمصادره لا يبرهن عنها لأنها نقطة انطلاق كل برهنة واليها يجب أن يستند ، كي يستقيم ، كل بحث فكري موضوعي وكل سلوك تقدمي ثوري . ولقد نسب لينين الى المادة كل الخصائص التي نسبتها الفلسفات الأخرى ، الديالكتيكية والتحليلية ، الى ما رأت أنه المبدأ الأول . فهي لامتناهية كجوهر سبينوزا ، كل ما عداه حال من أحواله وصفة من صفاته . وهي أيضاً ، كما يقول أفلاطون عن الوجود ، استمرار وحركة ، هوية وغيرية ؛ أو كما يقول هيجل عن الفكر المطلق ، لامتناهية طالما أنها مطلقة من كل قيد ومتناهية طالما أنها تتعين في أجزاء وعناصر وأوجه . وهي ، بالاضافة الى ما تقدم ، لا يحدها حد لا في الزمان ولا في المكان ، غناها لا ينضب وحركتها لا تنقطع . ويحق للمرء أن يتساءل ما اذا كان هنا تجاه قضية فلسفية أم تجاه قضية لاهوتية . ولكنها ليست المرة الاولى ولا الاخيرة التي تتجاوز فيها الفلسفة حدودها .

* * *

هذه المعاني هي :

أولاً ، مبادىء فلسفية (بالمعنى الارسطالي للكلمة) ، كل منها نقطة انطلاق أولى عقلية تصلح لدراسة موضوع من موضوعات الفكر أو لبحث قطاع من قطاعات الواقع ؛

ومن ثم مبادىء مادية ، فالحاجات والقوى المنتجة والفعل والمادة ذاتها كليات تدل على طاقات تعمل وتدفع نحو العمل المنتج ؛

وأخيراً مبادىء ديالكتيكية لأنها تشير إلى علائق هي بنى أولى (تحتية) تتكون من حركتها بنى ثانية مشتقة (فوقية) كالمؤسسات الاجتماعية والسياسية والمنظومات الفكرية والفلسفات ، الخ ، بنى مترابطة بعضها مع بعض ، ولكل منها ، في الوقت ذاته ، كيانه الخاص .

فالمادية الماركسية ، وان كانت قد أفادت من التطورية الداروينية ، فقد تخطتها لتصورها في مجال أوسع منها هو الديالكتيك ، حركة كلية متعددة الأبعاد ، تحفظ الماضي في الحاضر وتنمو باستمرار محتفظة بكليتها . ان التطورية منهج علمي ، على غناه ، محدود بالنتيجة إذ إنه يربط الكائن الحي بشروط وجوده الخارجية ربط النتيجة بالسبب ، في حين أن الديالكتيك المادي منهج فلسفي يتسع للعديد من المناهج العلمية ويتجاوزها كلها . فليست العلاقة بين البنى الأولى وبين البنى الثانية علاقة سبب بنتيجة ، كما توحي بذلك بعض الدراسات الماركسية المدرسية حيث يبدأ الباحث بوصف وضع اقتصادي ليخلص منه الى مايقابله في عالم الفكر والسياسة . ان البنى في الديالكتيك المادي تنطلق ، كما يبين ألتوسر ، من المحرك المادي الذي هو أول المطاف ، على حد تعبير انجلز . ولكن كلاً منها يتطور بفعل قوته الذاتية دون أن يقطع صلته لابمحركه الأول ولا ببقية البنى . فليس تطبيق المنهج الديالكتيكي بالأمر السهل ، إذ انه يفترض قدرة خارقة في التحليل والتأليف تحيط بواقع متداخل المستويات متعدد الأبعاد . ان الديالكتيك - منهجاً وفلسفة - قديم ، وضع خطوطه الأولى أفلاطون . ولكنه عُلّق حتى استعاده هيجل في ايقاع ثلاثي (القضية ، نقيضها ، والتأليف بينها) كان أول من زعزعه

ماركس . ثم فجره العلم الحديث ، في الفيزياء أولا ومن ثم في العلوم الانسانية ، لا لينقضه بل ليغنيه ، ففتح بذلك ، أمام البحث العلمي والفلسفي آفاقاً مبتكرة ، ولكنها ماتزال ، على تعددها ، خطوطاً أولى . فالديالكتيك هو ، بالنسبة للمعرفة ، طريق المستقبل .

ومع ذلك فكل فلسفة - مثالية كانت أم مادية أم غير ذلك - اذا دفعت منطقياً الى ابعد حدودها ، او اذا تمذهبت فاصبحت عقيدة ، توقـــع الفكر في ارباكات لا حصر لها ، وتنتهي باغلاق الطريق الذي فتحت .

فالمثالية مثلاً قد تلتقي في بعض قضاياها مع البورجوازية ، كما هي الحال عند هيجل . ولكنها ليست بالضرورة فلسفتها ، ولا يوجد بينها أي تلاحم عضوي أو أي تلازم في الوقوع . اذ ان المثالية (من الفكرة لا من المثال كما رأينا) هي قراءة عقلية للواقع ، تشط فتحل الفكرة محل الشيء . قـــد تدفع مصالح البورجوازية المادية هذه الطبقة إلى إلهاء الطبقة العاملة عن اوضاعها المتردية بطوباويات اخلاقية وصوفية مفتعلة . ولكن هذا ليس من الفلسفة بشيء . ان الفلسفة الكبيرة تنبثق من وضع اجتماعي معين ، لا لتصوره ، بل لترى فيه بذور مستقبل يمهـــد الطريق لحل اشكالاته . فالماركسية لا تفهم الا على ضوء الشيوعية . والشيوعية رؤيا لا واقع .

وشأن الفنون والآداب ، كشأن الفلسفة .

ومن ثم فان الارتباط الوثيق في المرحلة التاريخية الراهنة بين الاقتصاد والسياسة ، يجعل من الدولة وتنظيم سلطاتها تعبيراً عن مصالح الطبقة الحاكمة واداة للضغط على بقية الطبقات . ولكن أليس للسلطة ديالكتيكها الخاص ؟ أليس لها مبادهتها الذاتية تدفعها مثلاً ، وكما هي عليه الآن الحال في العالم اجمع الى تضخيم

البيروقراطية التي تشل حركة الابداع في الفرد وفي الجماعـــة . ان الاشتراكية اصبحت اشتراكيات ، لأن الدولة لا تزال قومية . والقومية اين تقع ؟ أهي من البنى الأولى ام من البنى المشتقة ؟ وكذلك العلم واللغة .

وأخيراً ، فلقد استدعى وضع العلم في القرن السابع عشر فصل الفكر عن الأشياء ، مما أدى الى فصل النفس عن البدن ، ومن ثم الى اقامـــة تعارض حاد ، يبدو لنا اليوم مفتعلاً تجاوزه الفكر ، بين الروح والمادة . وانقسم الفلاسفة الى معسكرين : الواحد مثالي يرى في المادة ظواهر الوجود ، وفي الروح باطنها ، او يرى في المادة تراخي الروح . والثاني يرى في الشعور نتيجة لنمو الجملة العصبية ، فهو عاكس لوضع مادي معين . وهنا تعكس فكرة برغسون ، فتصبح الكثافة في المادة والشفافية في الشعور . ويصح جواب (لايبنتس) على (لوك) التجريبي . فقد زعم هذا الأخير ان النفس صفحة بيضاء تنطبع عليها احاسيس تتحول الى افكار ورد عليه الأول قائلاً : لا يوجد في العقل اي شيء قبل التجربة سوى العقل ذاته فالذي يعكس يجب ان يوجد اولاً ، ولكي يعكس فيؤثر يجب ان يكون حراً بحرية خلاقة تستطيع استنباط الافكار من الواقع . ولا يدري المرء بأي ديالكتيك ، أو بالأحرى بأية معجزة ، يمكن للحرية وللفكر الحر ان ينبثقا من المادة ليكشفا عن نظامها وعن معقوليتها .

ان أولوية المادة على الروح او العكس ، فلسفياً ، حلقة مفرغـــة . والواقع ان هذا النقاش عقيم ، وربما انه بدعة . فالفلسفة اعتبرت الانسان دوماً وحدة لا يمكن التمييز فيها بين ماهو نفسي وبين ماهو جسمي او مادي ؛ كما رأت دوماً في الفكر بعداً من ابعاد الوجود لاينفصل عنه ، يتميز عن بقية الأبعاد في

انه الفسحة التي يتعرف ضمنها الوجود الى ذاته . واذا كانت أولوية المادة على الشعور هي أولوية الوجود على الفكر الذي يعرفه ، فتلك بديهية .

ثة حقيقة اساسية للمثالية ولمشتقاتها لاتقهر ، وهي أن في الفكر فائضاً عن تجلياته ، وفي الفكرة فائضاً عن تحقيقاتها . فالعروبة اكـثر من العرب ، والاشتراكية اكثر من الاشتراكيات ، ولو تحول البشر كلهم الى طغاة ، لبقيت العدالة هي الحقيقة ، وفي نظر افلاطون هي الوجود . فكل المؤسسات التي ينشىء الانسان ، تقصر عن قيمه ورؤاه .

ولكن ثة حقيقة للمادية ومشتقاتها تقابل حقيقة المثالية ولاتقل عنها قيمة ، ألا وهي أن في الحدث ـ طبيعياً كان أم انسانياً ، والاثنان متلازمان هنا ـ فائضاً عن كل تفسيراته . ففي البناء العظيم الذي شاده لينين مايستعصي على كل الشروح المادية والمثالية وغيرها ، اذ ان للانسان في امكاناته اكثر مما هو في انجازاته ، وفي مستقبله اكثر مما هو في حاضره . وكذلك الثورة والطبيعة والمادة ، كذلك الروح والفكر والخيال الخ ... بوصفها كلها طاقات .

ولسوف تبقى قائمة في صميم كل تفكير طالما ان الوجود يتكشف عن قوى جديدة تتحدى الانسان .

كما أن المثالية ستبقى قائمة في صميم كل تفكير طالما ان الفكر عاجز عن استنفاد مضمونه .

القضية الحادية عشرة

ـ ان التحليل الكلاسيكي للمادية لايفصح عن مضمونها ، وقد يفقرها لأن معانيها أقل من انطلاقتها ومن تطلعاتها . فقد جددت الفلسفة لأنها انطلقت من رؤيا قديمة ، هي عند افلاطون اكثر مما هي عند ديموقريطس ، فأعطتها مضموناً

جديداً يتناسب مع المرحلة التاريخية التي عاشها ماركس ومانزال نعيشها . هذه الرؤيا ، هي التي عبر عنها ماركس في القضية الحادية عشرة من قضاياه عن فويرباخ المعروفة ، وهي قضية تكشف المادية في أقوى وجوهها وأخطرها شأناً . يقول ماركس : « اقتصرت الفلسفة على تفسير العالم ، وعليها الآن ان تحوله » . فالذي يحول المجتمع يفهمه أحسن مما يفهمه الذي يقتصر على دراسة قوانينه ، اذ ان هذا يرى فيه الماضي ، اما ذاك فيرى فيه الماضي والحاضر والمستقبل كلا متكاملا .

وعلى هذا فان المادية تقوم على ثلاث ركائز : القوى المنتجة ـ الانسانية منها والطبيعية على حد سواء اذ لافاصل بفصل بين الاثنين ـ ومن ثم حركة هذه القوى في تفاعلها بعضها مع بعض ، واخيراً الانسان بوصفه عقلاً يستطيع السيطرة عليها وتوجيهها لصالحه ، والمصالحة معها ، على حد تعبير ماركس الشاب . وفي هذه المصالحة تتأنسن الطبيعة ، ويستعيد الانسان طبيعته المفقودة .

ولكن هل اقتصرت الفلسفة حقاً خلال تاريخها الطويل ، وحتى ماركس ، على تفسير العالم ؟

كلا ! فالتفسير تحويل ، طالما أنه لايوجد ، حتى في العلم ، (لغة بريئة) . فكل قول ، يعني صاحبه مايقول ، يستهدف غرضاً يسوغه ويتسوغ به . قد تلهو الفلسفة احياناً في نقاش عقيم ، ولكن هذا من لواحقها ـ او من انحراف مسلكي يلحق بممتهنيها ـ لا من حقيقتها . وقد تتجاوز حدودها فتدعي أنها تشرع للوجود برمته ، ولكن هذا من سقطاتها . الفلسفة سياسة ، هي سياسة الفكر ، وسياسة الفكر هي سياسة الانسان ، تلتقي مع سياسة السلطة او تفترق عنها ، وفي كل الاحوال تؤثر فيها وتتأثر بها دون ان تتحداً . وبالنتيجة ، فكل عقلي عملي ونظري بآن واحد . ان الثورة الفرنسية كانت تخطيطاً فكرياً قبل ان تنشب

حركة شعبية ، ولدت في ذهن مفكرين ، منهم المثالي ومنهم المادي ، ومنهم من لاينطوي في اي تصنيف مدرسي ، مفكرين استلهموا الشعب واستبقوه، فمكنوه ومكنوا قيادته من قلب اوضاع فرنسا ومن ثم اوربا ، رأساً على عقب .

ومع ذلك فعبارة ماركس صحيحة ، لأنها وضعت في زمن كان على الفكر الفلسفي فيه ان يخوض اكثر من معركة لتصبح الحداثة والحضارة الحديثة ممكنة التحقق .

لقد صاغت الفلسفة منذ ان وجدت وبصياغة دقيقة ، أهم قضاياها .ولكن، لما كانت القوى الشعبية اذ ذاك (معلقة) تعيش على هامش التاريخ ، فقد نظر الى هذه القضايا على انها مشكلات فئة مختارة . ومن ثم فان الانسان اعتقد في مطلع عهده بالتفكير الفلسفي الدقيق ان عالمه جزء لايتجزأ من وجود شامل هو نظام كلي (كوزموس) عليه أن يعرف موقعه فيه كي تستقيم اموره . فقال بوجود طبائع ثابتة متلاحمة عضوياً ، في معرفتها خلاص الانسان ، فرجح القول على العمل .

وفي عصر النهضة ، عصر الفيزياء الرياضية ، بدت الطبيعة للانسان مجموعة اشياء منفصلة عنه ، ويجب ان تسخر لمصالحه . فرأى ديكارت ان للحكومة دوراً عملياً لايقل اهمية عن دورها النظري . وفي اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر صاغ المثاليون مفهوم (البراكسس) واحداً من منطلقات فلسفتهم . ولقد كانت مناقشات اليسار الهيجلي الفلسفية تدور كلها حول وضع خطة متلائمة مع مستقبل بدأت تظهر بوادره في ثورات الشعوب .

وفي القرن التاسع عشر اكتشف الانسان التاريخ ، واكتشف ذاته كما اكتشف الطبيعة موجودات تاريخية فصلت بعضها عن بعض بفصل مفتعل . فعلى

الفكر ان يحيط بهذا التاريخ كي يتمكن من السيطرة عليه ، وكي يدمج احداثه ووقائعه من جديد في حركة واحدة هي حركة الوجود . هذا الكشف هو الذي يميز مفهوم (البراكسس) عند ماركس عما هو عليه عند المثاليين ؛ هذا الكشف هو الذي يلخصه ماركس في القضية الحادية عشرة التي هي، بتعبير برغسوني، الحدس الذي وجه بحوثه ، ومنه انبثقت فلسفته المادية .

ان القضية الحادية عشرة تلخص ثلاث ظاهرات هي محرك التاريخ الحديث منذ أن كان وإلى زمن طويل . رأى هذه الظاهرات ماركس بوءيا واضحة ، وعمقها وافاد منها لينين ، وهي :

أولاً ، التقنية استدعتها وتستدعيها الثورة الصناعية بكل اطوارها السابقة واللاحقة . فالمادة بالمنظار التقني تعني ، كما يقول مارتن هيديجر ، ان كل موجود يبدو وكأنه مادة لعمل معطى ؛ (رسالة في النظرية الانسانية) ، سيان في ذلك الشعوب والامم والسياسات ، الطاقة والحياة والمادة ذاتها . وقد يراعي الاصطناع طبيعة الشيء الذي يصطنع او مفاصله الطبيعية ، على حد تعبير افلاطون ، فينشىء حقيقة ، وقد يتجاهل هذه الطبيعة فيزوّر اذ ينشىء ما توحي به اليه مصلحته واهواؤه . وهذا الفارق هو الذي يفصل بين الاشتراكية الحقة والرأسمالية الطاغية . فالفلسفة تقنية ، أي صياغة الافكار بحيث تعطي لتوها مردوداً عملياً . وهذا هو معنى الأيديولوجية العلمية ، يرسم لهـا حدودها . وكذلك الأدب والسياسة والصناعة ذاتها .

ثانياً ، يقظة الشعوب ، أستثارت التقنية وما تنتجه من سلع عندها حاجات كانت في السابق مضمرة وضامرة . واهم هذه الحاجات هي الحرية والعدالة ، اصبحت لأول مرة في التاريخ مطلباً جماهيرياً وحقاً من حقوق كل فرد وكل

جماعة . وطالما ان الشعب هو المنتج ، فعلى السياسة ان تنظم قواه بحيث يتضاعف المردود في سلسلة هندسية ، ويوزع على المنتجين ، لكل حسب عمله ، ومن ثم حسب حاجته . ان المجتمع الحديث هو مجتمع العمل الجماعي ، يحقق الاشتراكية اذا نظم تنظيماً علمياً ، فيزيل استغلال الانسان للانسان . ولهذا اصبحت السياسة مركزة حول الاقتصاد ، واصبح الاقتصـــاد ، كما رأى ماركس ولينين ، في ممارستها العملية والنظرية ، مادة التأمل الفلسفي ومحور الثورة الاجتماعية العالمية .

ثالثاً ، الثورة ، أي التحويل الجذري والعنيف والكلي للمجتمع بحيث تتبنى الامم والشعوب الحداثة دون ان تفقد كل منها هويتها التي هي تاريخها . ولقد تركزت الثورة ، كما رأى لينين ، في العالم غير المصنع لأن الامبريالية افادت من التقنية لتصطنع برجوازيات وشعوباً تخضع لسيطرتها وتخدم مصالحها .

تلك هي طبيعة المرحلة التاريخية الراهنة استلزمت استعادة تعارض قام يوم قامت الفلسفة ، هو التعارض بين القول والعمل (بين اللوغوس والبراكسس على حد التعبير الاغريقي) ، رجحت العصور الحديثة الثاني على الأول لأنها عصور تصنيع وحاجات وثورات اجتماعية . ورجحت العصور الفائتة الأول على الثاني ، لأنها لم تكن كذلك .

ومع ذلك فالعمل لم يحذف النظر ، والثورة لم تلغ فسحة الفكر التأملي . فلينين الثوري ذاته وضع ، كما رأينا ، كتبه النظرية ، في أيام المحنة ، لا ليزجي أوقات فراغه بالقراءة والكتابة ، بل ليستجلي البعد النظري للعمل ، رؤيا جديدة ترتكس على الثورة فتنهض بها بعد سقوط . ان العمل بوصفه عملاً لا فسحة له ، يتقلص فيتركز في ساعة التحقيق ، والانسان العامل بوصفه عاملاً يصبح كالآلة .

والآلة صماء تستعبد الانسان الذي لايتخطاها فيقول معناها . في حين ان النظر الذي لاينطلق من موقع العمل يتحول تدريجياً الى هراء يردي القول ويجذفه . فالانسان يتحدد بمراميه ، ومراميه في نظره اكثر مما هي في عمله .

لقد فتشت الفلسفة ، منذ ان كانت ، عن نقطة في الوجود يتحد فيها العمل مع النظر . واعتقد مؤلف الجمهورية انه وجد هذه النقطة في (الخير) منطلقاً موحداً للسياسة فلسفة وللفلسفة سياسة ، فاخفق ، الى أن استعاد لينين مرماه الكبير هذا في الثورة السوفييتية ، حولت الامل الماركسي الى واقع . ومع ذلك ، فقبل الثورة السوفييتية وبعدها تابعت الفلسفة طريقهـــا فانشأت مدارس فلسفية وفلسفات غير المادية وغير المثالية أغنت الفكر الماركسي والثورة الاشتراكية ذاتها اذ ان الفكر يتخطى المفكر مهما علا شأنه .

ان الفكر بوصفه جماع الانسان موحد بطبيعته يأبى التعارض وينفر من التناقض . ولكن حركة الحياة في الطبيعة وفي الانسان ماتبرح تفجر قوى تجبر الفيلسوف على ان يعيد النظر في افكاره وعلى ان يستعيد مبادئه ومنطلقاته ، كي لاينضب معينه وتتوقف مسيرته وتذوب حريته في الضرورة .

ان القول يسبق العمل ويرافقه ويتخطاه معنى يوجهه فالتعارض بينهما قائم في صميم الفكر الانساني ، يُفقر الانسان اذا أصبح انفصاماً ويغنيه اذا أصبح تجاوباً دياليكتيكياً .

لقد اعتقد ماركس ان المجتمع الشيوعي سيلغي الفلسفة اذ يحققهـــا . وعندئذ تزول المادية والمثالية ، ويتحد القول مع العمل . ولكن بانتظار هذا (الحدث السعيد) فان حركة الفكر ستستمر في المستقبل كما كانت عليه في الماضي .

ان تقسيم الفلسفات الى مادية ومثالية هو ، في حقيقته العميقة ، قراءة للواقع ولتاريخ الفكر ، استدعتها العصور الحديثة . ولكنها ، مع ذلك قراءة من جملة قراءات اخرى هي ايضاً مشروعة وصحيحة ، منها التجربة والعقليـــة ، الديالكتيكية والتحليلية ، الفينومينولوجيه والحدسية ، الخ .. يمكن أن يستعاد على ضوئها الواقع والتاريخ . وقد اعتمدت الكتب المدرسية هذه التصنيفات منهجاً يزيد في مرونة المحاكمة لدى الطلاب . فيجب علينا الا نأخذها بحرفيتها اذ ان في المادية عناصر مثالية ، وفي المثالية عناصر مادية .

ومن ثم فان المثالية اسم لمسميات متنوعة ، تتلاقى في نقاط وتختلف في اخرى . فمثالية كنط المتعالية تختلف عن مثالية فيشته الذاتية ، وهذه عن مثالية هيجل المطلقة . ولقد وجدت الفينومينولوجية - وهي فلسفة لامادية ولامثالية - منطلقاتها عند ديكارت و كنط وهيجل ، وغيرهم ممن يحشرون في صنف المثالية . كما ان هناك قراءة فينومينولوجية لماركس .

و كذلك المادية فهي ماديات . فتحليلات فرويد النفسية انطلقت من الليبيدو (وهو قوة مادية تقابل القوى المنتجة عند ماركس) لتفسر على ضوئه الحضارة الحديثة برمتها ولتسهم في تحويل الواقع الانساني . ونيتشه (إياه) مادي على طريقته ، اخضع القيم للحياة قوة " تتخطى في عنفها كل الفلسفات . قد يقـــال ان نيتشه مثالي بزي " مادي ، وقد يقال العكس . فالتصنيف هنا تقييم أكثر مما هو تحليل دقيق .

لقد كان مؤرخو الفلسفة ، لفترة قليلة من الزمن ، يعتقـدون ان مادية القرن الثامن عشر الساكنة قد تخطيت نهائياً ، ولكن هاهم اليوم البنيويون

يستعيدونها على أسس جديدة ، ويقحمون فيهـا الديالكتيك ، ثم يُنشئون بالاستناد اليها ، لاالفلسفة فحسب ، بل العلوم الانسانية برمتها من علم اللغة الى علم الاجتماع ، في حركة يبدو انها ستستمر طويلا وان عطاءها سيكون غزيراً .

واخيراً فان مفردات كالروح والمادة ، النفس والطبيعة، الجوهر والماهية ، التجربة والعقل ، الخ ، تستخدمها الفلسفة لتصنيف مسائلها والتعبير عنها ، هذه المفردات تُفرض في مرحلة تاريخية على انها - كلها او بعضها - جِماع الفلسفة ، وفي مرحلة تالية تسقط ، عملة فقدت رصيدها . فمفهوم الروح مثلاً تبخر في الفلسفة الحديثة بعد ان كان في الماضي القريب من محاورها الاساسية ، ليحل محله مفهوم الشعور وقد اختلف مضمونه عما كان عليه في السابق . فما قيمة هذه المفردات التي ، الى جانب ماتقدم تختلف مضموناً من لغة إلى اخرى ؟ ان كلمة (عقل) عند افلاطون تشير الى قدرة الانسان على الرؤيا ، في حين انها تشير في الفلسفة الحديثة الى قدرته على التحليل . ولقد ميز هيجل بعد كنط بتمييز واضح ودقيق بين مستويين في العقل ، اطلق عليهما اصطلاحاً اسم الفهم والعقل مع انهما في الالمانية تختلفان شكلاً ومضموناً . ولقد القى كنط على الفكر درساً من ينساه او يتناساه يعزل نفسه عن دائرة التفكير الفلسفي ، الا وهو ان المفاهيم وسائل لتحليل الواقع ، يجب ان تفحص قبل استخدامها لمعرفة مدى صلاحيتها في التدليل عن هذا الواقع . فالموجودات ، كما لاحظ ارسطو ، غير محدودة ، في حين ان مفردات اللغة بعدد محدود .

ذلك ان فلسفة فيلسوف كبير ليست مجموعة قضايا نظرية توضع في صيغ مجردة على غرار الدساتير الفيزيائية فتدرس بذاتها ولذاتها - نقبل بعضها ونرفض البعض الآخر - ثم يحلل الواقع على ضوئها . فهذا مخالف لطبيعة الفلسفة

الديالكتيكية منهـا وغير الديالكتيكية ، والديالكتيكية أكثر من غير الديالكتيكية . وانما هي (واقع فكري) او عالم كامل مستقل ، وفي الوقت ذاته متفاعل مع الواقع المباشر ومع بقية الفلسفات كما أنه متفاعل مع الفنون والآداب والعلوم ؛ عالم ينبثق من صميم التاريخ الانساني ليعبر عنه نظراً يتحول الى نظرية تحدده ، ويتردى فيصبح (وجهة نظر) ؛ عالم ينبثق من صميم الوجود ليقرأه امكاناً ومستقبلاً اكثر مما يقرؤه تحققاً راهناً ، ويتردى فيتزيى بزي العلم . وعندما اصبح الفلسفة وجهة نظر ، او تزعم انها اصبحت علماً ، عندئذ تكون قد ادركت الحد الذي يستدعي استعادتها او تعليقها او تخطيها . فلقد تفككت الهيجلية عندما اعتقدت انها اصبحت علماً هو جماع العلوم ، كما أن فلسفات أخرى ولدت ميتة لأنها صيغت (وجهة نظر) في انطلاقتها الاولى .

الفلسفة مطلقة ونسبية بآن واحد : مطلقة ، لأنها بوصفها نظراً تحرر الواقع وتتحرر منه اذ تحوله الى رؤيا ؛ نسبية لأنها تنطلق من موقع تحددها وتتحدد بها . مطلقة لأنها تستهدف تحرير الانسان وخلاصه ؛ ونسبية ، لأنها وسيلة من جملة وسائل أخرى يستخدمها الانسان ؛ تتأرجح بين حدين كل منها يشدها الى جهته : السياسة والعلم ، اذا استأثر بها احدهما افقدها هويتها ؛ واذا قطعت صلتها بها فقدت وظيفتها .

فالمادية الماركسية بدأت ثورة فلسفية ، هدفها ، كما رأينا ، تحويل العالم عوضاً عن تفسيره ؛ الشيوعية مرماها ، والتحليل العلمي أساسها ، ودیکتاتورية البروليتاريا أداتها . ارادت لذاتها ان تكون كل ذلك دفعة واحدة ، فانشأت مفهوم (الايديولوجيا العلمية) تعبيراً عن هذه الارادة . أهو مفهوم (توفيقي) أم مفهوم (تأليفي) ؟

ثمة إيديولوجيا اقطاعية ، وأخرى بورجوازية ، وغيرها بروليتارية . والايديولوجيا مجموعة قيم تنظم سلوك طبقة ؛ تبدأ ضمنياً ، ثم تتضح عندما يحتدم الصراع الطبقي فتصبح وسيلة فعـالة من وسائل السياسة . ولكن الذي يربك الفكر هنا ، ليس إدانة ماركس ذاته للايديولوجيا فحسب ، بل تحويل الفلسفة الى ايديولوجيا ، وهذه الى علم ، وربط الكل بهـذه الطبقة أو بتلك . فالمرء يتساءل بحق حيال هذا التركيب العجيب عن الانسان الكامن في صميم البورجوازي وفي صميم البروليتاري ، أين هو ، وما هو موقعه ، وما مصير قوله ؟ أو يمكن ان يحشر كل قول انساني - فلسفة كان ام أدباً أم فناً ، كما هي عليه الحال الآن بالنسبة للمادية في مثنوية منوية ، هي مثنوية البورجوازية والبروليتاريا ، او في مثنوية المثالية والمادية ، إذ أن الأولى تصنف المجتمعات من جملة تصنيفات أخرى لاتقل عنها صحة ، والأخرى قراءة من جملة قراءات اخرى لاتقل عنها دقة ؟

إن تحويل الانسان الى كائن عامل ، والمجتمعات الانسانية الى مجتمعات عمل ، مهمة من مهام القرن العشرين الأساسية . ولكن هل يستنفد العمل كلية الانسان وكافة أبعاده ؟ وهل تلخص البراكسس مبدأ كل المبادىء الفلسفية .

إن الانسان لايحدد بالحاجات وحدها ، حتى ولو تجاوزنا الاناني منهـا وصعدناها فاصبحت التحرر والعـدالة . والقوى المنتجة ليست المحرك الوحيد للتاريخ برمته ، كما أن المادة لا تستنفد الوجود .

إن الفلسفة ليست العلم . فالعلم قول يلغي القول اذ يحوله الى اصطلاحات لها قيمة اجرائية لا قيمة دلالة ، صماء كالآلة التي هي نهايتها ، في حين ان القول الفلسفي تكثيف للماضي يتفجر باستمرار مستقبلاً . فالفوتون والالكترون والبروتون وغيرها من المفاهيم العلمية رموز تتلاشى في معـادلات حسابية . اما

الديالكتيك والروح والمادة وغيرهـــا من المفاهيم الفلسفية فتاريخ دال هو تاريخ الانسان .

العلم ينطلق من لا موقع تحوله الفلسفة الى موقع . اما الفلسفة فتنطلق من موقع أبعاده ابعاد الانسان كلها ، السياسية منها والاقتصادية ، الطبقية منها والقومية،الفكرية منها والادبية على حد سواء .

فالفلسفة ليست بورجوازية ولا بروليتارية ، ولا يمكنها أن تتحد مع أية منظمة من المنظمات الاجتماعية ، أو أية مؤسسة من المؤسسات السياسية ، أو مع أي شكل من أشكال الأدب والعلم والفن . وإنما تقولها كلها بقول هو جماع القول الفكري الانساني . فالمادية تقال على عدة معان لأنها قول لا علم ، وكذلك الاشتراكية والمثالية وغيرهما . قول يستمد سلطانه من العقل الانساني : عظيم كالانسان ، بائس كالانسان ، وكالانسان دوماً في الطريق .

من الفلسفة الى لينين :

كان لينين الثوري فيلسوفاً بمعنى الكلمة :

أولاً ، لأنه فهم بفهم دقيق أن الفلسفة غير العلم والسياسة . فهو مثلاً يميز بين المادة مفهوماً فلسفياً ، والمادة مفهوماً علمياً ؛ هذا يتبدل بتبدل العلوم ، وذاك مصادرة نسلم بها لا بالبرهان ، بل على أنها نقطة انطلاق كل برهان . ولقد استندت سياسته الى تحليلات سوسيولوجية - فلسفية محكمة لواقع روسيا القيصرية ولواقع العالم غير المصنع . فأغنت الماركسية بمفاهيم كثيرة وسعتها وجددتها ؛ منها مفهوم القومية ومفهوم التحرر القومي ؛ ومنها أيضاً دور الفلاحين في المجتمع الجديد وطريقة دمجهم مع القوى غير البروليتارية كي تصبح الثورة ثورة الشعب ؛

ومنها أخيراً وبشكل خاص ، اسلوب انشاء مجتمع العمل الاشتراكي في بلد متخلف اقتصادياً .

ولقد كان بوسع لينين الثوري وبوسعه وحده ، أن يجعل من هذا المفهوم الهجين - مفهوم الايديولوجيا العلمية - تآليفاً بصهر العلم والفلسفة والثورة في في وحدة تتخطى كل توفيق بين عناصر غير متجانسة ، فيصبح أداة فعالة في تحريك الجماهير . وبعد لينين ارتد هذا المفهوم الى حقيقته ، فأصبح ، كما رأى ماركس ، مجموعة قضايا ليست علمية ، ولكن بوسعها أن تقدم مادة للعلم .

ثانياً ، لأن لينين لم يُبعِد ماركس ، بل استعاده . فعبارة (ماركسية - لينينية) تدل بالخط الفاصل بين كلمتين ، وكما يلاحظ هنري لوفيفر ، على أن لينين غير ماركس ، متصل به ومنفصل عنه في الوقت ذاته . ففلسفة لينين تؤلف ، بين الفلسفات المادية ، عالماً قائماً بذاته يمكن أن يستعاد كأية فلسفة أخرى .

وأخيراً ، لأن لينين فهم حقيقة الفلسفة العميقة ، ألا وهي أنها تربية بالمعنى الأول والأصيل للكلمة ، أي انشاء الانسان بملء قامته الانسانية ، عاملاً ومفكراً سياسياً ومناضلاً ، ابناً وأباً ، . . . فكوّن نموذجاً جديـــداً من الانسان ، هو الانسان السوفيتي .

كانت روسيا القيصرية شتاتاً من الأمم والشعوب لا رابط يجمع بينها سوى الحكم المستبد تدعمه طبقة اقطاعية منهارة ، وأخرى بورجوازية عميلة ، أما الشعب فكان مفصولاً عن كل هؤلاء ، ينمو من الداخل محتفظاً بطاقاته كلها ليزجها في المعركة حين تدق ساعتها . وكان هذا الشعب العظيم كما يصوره أدباؤه وفنانوه ، يعتقد باعتقاد صوفي مترسخ فيه أنه حامل رسالة خلاص للانسانية كلها . في هذه الفترة الحاسمة ومن قلب هذا الانفصام انبثق لينين ليقلب الوضع رأساً على عقب ،

بانقلاب أحل الشعب محل جلاديه . فكان الاتحاد السوفياتي نقطة استقطاب الحركات التحررية في العالم كله ، البارحة واليوم وغداً ، والى زمن طويل .

على ليالي الثورة وقبلها ، كان النتاج الثقافي الروسي ، فكراً وأدباً وعلماً وفناً قد بلغ درجة من الرفعة والأصالة قلما بلغها أي نتاج آخر . فهو بمجموعة رؤى (مَعادية : إسكاتولوجية) تحاول أن تحيط بالطبيعة وبما هو فوقها في تساؤل عن المصير الكلي ، عن الخلاص . ولا عجب ، فهو يعبر عن تطلعات شعب يريد بارادة لا تقهر أن يفدي الانسانية . ولكنه كان من جهة أخرى كوزمو بوليتياً ، تأثر أكثر مما أثّر ، على ما يبدو لي ضمن حدود معرفتي ، بالتيار الرومانطيقي المثالي في كل نزعاته ، من الرمزية ومشتقاتها أدباً وفناً الى الفوضوية فكراً وسياسة . هذا التيار هو الذي سيطر على الثقافة الروسية كلها في مدارسها ومذاهبها ، المادية منها وغير المادية . ويرى لينين في المثالية العدو الأول ، عليه أن يسحقه ، فيبني المادية بكل أبعادها لتصبح في المعرفة ركيزة الفكر العلمي ، وفي الأدب جبهة نضال مرير يردي الخصم الداخلي والخارجي . فكان في تحليله العلمي الصارم موجهاً ، وفي توجيهه عالماً ، شأنه شأن المربي تستثيره خطيئات تلامذته فيؤنبهم ويمعن في التأنيب ليردهم الى جادة الصواب . لا بل كان أباً كما أسماه الشعب ، يحنو بحنان الأب ويقسو بقسوته . في هذا كانت ديموقراطيته ، قبل أن تكون في تنظيماته لمجالس الشعب وتجاربها الشاقة في الاقتصاد .

ان لينين في شخصيته الفذة ، كماركس ، لا يُعاد بل يُستعاد . ومن يستعيده عليه أن ينطلق من مواقع غير التي انطلق منها كي يلتقي معه . فقضاياه الفلسفية ليست (آيات) ، ليست أبياتاً من الشعر الرفيع تحفظ غيباً ، أو تنقش في الصدور أو تزين بها المقالات ، انما هي أسئلة وأجوبة ، أسئلة أكثر مما هي

أجوبة ،تـقرأ وتـسمع ، تـسمع أكثر مما تـقرأ فمن كانت له ملكة التساؤل ، من تعلّم فن الاصغاء ، وحده يستطيع أن يلتقي ، ضمن حدوده ، مع لينين .

ان في فلسفة لينين فائضاً عن ماديته ، وفي انسانيته فائضاًعن فلسفته وعن كل فلسفة . فهو واحد من قلة قليلة بنت هذا العالم نـظـُما وفلسفات ، سياسات وثورات الخ ... ودروباً لعوالم أخرى ستلي عالمنا هذا .

انه ككل انسان عظيم ، سر من أسرار الانسان وتاريخ الانسان،سر من أسرار الوجود ...

* * *

يعارض أفلاطون في حوار السفسطائي بين ابناء الأرض (الماديين) أولئك الذين لايؤمنون إلا بالمحسوس الملموس ، وبين أصدقاء المثل ، (المثاليين) أولئك الذين اقتلعت جذورهم من الأرض فهم يؤمنون بالمجردات. ثم يدين هؤلاء وأولئك وغيرهم ممن يقطعون الوجود ارباً ارباً ، على حد تعبيره ،وبعدهايتساءل بلسان (الغريب) عن الوجود ذاته ، متوجهاً في شخص ثيئتوس الى كل المتمرسين بشؤون الفلسفة ، فيقول : « قل لي ، بحق زفس ، أو َ تقنع بسهولة بأن الحركة والحياة والنفس والفكر لامكان لها في الوجود الكلي ، وأن هـذا لايعيش ولا يفكر ، بل انه قائم في قدسيته وجلاله خلواً من البصيرة ، عاجزاً عن الحركة ؟ » (حوار السفسطائي)

فالوجود ، كما يراه أفلاطون ، حركة وسكون ، فعل وانفعال ،هوية وغيرية ، وحدة وكثرة ، فكر ومادة ، حياة ونفس ، قول وعمل،وكلها أبعاده وتجلياته ، هو باستمرار أكثر منها .

ذلك أن المسألة التي أثيرت في الفلسفة وتثار وستبقى الى الأبد موضع

إشكال ، كما يقول أرسطو ، هي مسألة الوجود : أو ما الوجود في الموجود (ما وراء الطبيعة) .

فما العروبة وجوداً ؟ أهي في الأرض المجزأة أم في الاقتصاد المتخلف ، أم في دول اصطنعها الأجنبي لتتناحر على البقاء ؟ أهي في الماضي وقد زال ، أم في الحاضر وهو يتزلق مع اللحظة ، أم في المستقبل وهو كالشهب تبدو وتغيب لتوها؟

ما النغم وجوداً ؟ أهو في القيثارة أوتاراً وخشباً منها يستله العازف ، أم على الورقة رموزاً ، أم في الاسطوانة ثقوباً ؟ أهو في خلايا دماغ الذي ابتدعه أم في الشعب يردده أو يسمعه ؟ في أي زمان أو في أي مكان هو كي نمسك به ؟ ذلك هو السؤال الفلسفي ، نقرؤه مادياً أو مثالياً ، نقرؤه بقراءات كلها اسماء، سلطانها موقوت ، تتلاشى ويبقى السؤال .

فكل فلسفة قراءة نسبية ومطلقة : نسبية لأنها مرتبطة بزمان وبمكان؛ مطلقة لأنها قراءة للوجود تدل على وجه من وجوهه .

إن هذا السؤال لايتوجه الى ليني . فليني رأى مستقبلاً علينا أن نحققه كله أو بعضه . وإنما يتوجه الى المؤمنين بالمادية وبالمثالية وبغيرهما من المذاهب ، يحولون الفكر الى عقيدة ، فينطفئون فيها كما تنطفىء دودة الحرير في الشرنقة ، في حين يواصل التاريخ مسيرته ، تارة في صعود وطوراً في هبوط ، ويبقى الفكر يقرأ ، يسمع القراءة من لهأذنان سامعتان .

فمن هو وأين هو واسع الوجود وبه يستقيم ؟...

لينين والشرق

د. محمد امين

في اواخر القرن التاسع عشر واوائـــل القرن العشرين ،عندما أخذت الرأسمالية ترتدي حلتها الجديدة بنشوء الاحتكارات ، عندما بدأ يشتد هجوم السرطان الاستعماري على آسيا وافريقيا ، كانت تعـاليم فلاديمير ايليتش لينين المجسدة في مقـالاته تتساقط كالبركان على رأس « الرأسمالية التمدينية » المحولة الى بلدان هـذه المنـاطق على أسنـة حراب جنود الدول الاستعمارية .

وكان لينين في مقالاته هذه انما ينطلق من الأسس العلمية الثورية التي وضعهـا قبله كارل ماركس وفريدريك انجلز عن التحليل النظري

والتاريخي الرأسمالية وعن قوانين نضال الطبقات وقيام الثورة الاشتراكية وعن طرق وامكانيات بناء الاشتراكية وتصفية الطبقات المستثمرة. كان فلاديمير ايليتش يأخذ بعين الاعتبار الظروف التاريخية في كل بلد وينير الطريق امـــام الطبقات المضطهدة فيه لكي تستطيع أن تجد حلفاءها في البلدان الاخرى وان تهدم السور الذي كانت ترفعه حكوماتهـا في وجهها من اجل اظهارهـا بمظهر العزلة والضعف امام قوة تلك الحكومات وجبروتها، ففي هذه المرحلة بدأت الاحتكارات تسيطر على الحياة الاقتصادية والسياسية في الدول الرأسمالية وأخذ يتضاعف استثمار العمال من قبل الرأسماليين والمستعمرين في هذه الدول وفي الدول المستعمرة والتابعة وظهرت في الجو غيوم التناقضات بين الاحتكارات العالمية وتلويح اصحابها بضرورة اعادة تقسيم العالم ولو بقوة السلاح طمعاً بثروات جديدة.

وهنا كان لينين يهتك الستار عن مزاعم الدول الاستعمارية من وراء شنها الحروب ويشير الى ان ذلك انما يجري في مصلحة قبضة من الرأسماليين والطواغيت، قبضة من اصحاب المصانع ومحتكري تجارة السلاح مع بلدان آسيا وافريقيـا التي تعاني شعوبها ذات الآلام والحرمان والظلم الذي كان يعانيه العمال والفلاحون في البلدان المستعمرة، من جراء تسرب رأس المال الاستعماري الى البلدان الاولى.

تناوُل لينين بتطور حركة التحرر الوطني في الشرق:

كان نضال لينين ينبثق لا من مصلحة الشعب الروسي وطبقاته الكادحة فحسب، وانما من مصلحة جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتها ومصالحها الوطنية. وهو بذلك انما يجسد في نفسه اروع سمات الانسان الثوري والقائد البروليتاري

الاممي ، لقـــد كان يتتبع حركات التحرر الوطني الملتهبة في الشرق وكان يحيّي بحرارة بداية النضال التحرري والنشاط السياسي للابين الناس الذين حرموا طويلا من جميع الحقوق الانسانية ، وهو يشير باعجاب للاحداث الثورية في ايران وتركيا والهند والصين ويقول بهذا الصدد :

« في الآونة الأخيرة افصحت الحركة الثورية في مختلف الدول الاوروبية والآسيوية عن نفسها ، بقوة ارتسمت معها امامنا بما يكفي من الوضوح مرحلة جديدة في نضال البروليتاريا الأممي ، اعلى جداً من المرحلة السابقة » .

ولعله من المفيد ان نذكر انه في نهاية عام ١٩٠٥ - وعلى اثر الانتفاضة المسلحة التي قامت بها الطبقة العاملة في روسيا - بدأت ثورة في ايران اشتركت فيها فئات ضخمة من الجماهير الشعبيـة . وكانت باكورتها تلك المظاهرة الواسعـــة التي اجتاحت العاصمة وغيرها من المدن الايرانية ، مسلطة غضبها ضد حكومـــة الشاه الاستبدادية وضد تزايد نفوذ الامبرياليين الاجانب وما ادى اليه ذلك من الحزن والبؤس للطبقات الكادحة . وبفضل هذه الحركة الثورية الرائعة نشأت لأول مرة في تاريخ ايران اولى المنظمات الاشتراكية الديمقراطية وحركة عمالية جماهيرية ، كما انه كان من نتائجها ان سارع الشاه في تشرين الاول ١٩٠٦ الى اعلان الدستور في البلاد وانشاء مجلس وطني . هذا من جهة ، أما من جهة اخرى فقد دفعت هذه الانتفاضة الشعبية بالقيصرية الروسية الى الاتفـــاق مع الحكومة الاستعمارية الانكليزية في عـام ١٩١١ لاحتلال ايران بقوة السلاح واعـادة سلطة الشاه والاقطاعيين بعد أن نكلت بالثوار وقضت على مكتسبات الثورة .

ويقول لينين بصدد ذلك مايلي : (ان مثل هذه الحركة الثورية التي تحسن تنظيم المقاومة العسكرية حيال محاولات اعادة الرجعية ، والتي تضطر ابطال هذه المحاولات الى طلب العون من الاقوام الاخرى ، هي حركة لايمكن القضاء عليها. وظفر الرجعية الايرانية المطلق لا يمكن- والحالة هذه -الا أن يؤدي إلى لتمردات شعبية جديدة) .

وكم كان لينين على حق في رؤيته هذه إفكم من حركة ثورية ، وكم من انتفاضة شعبية شهدتها الاراضي الايرانية بعد ذلك التاريخ !

أما في تركيا فان الحركة الثورية التي قامت في ١٩٠٨ – ١٩٠٩ كانت تستهدف القضاء على سلطة السلطان عبد الحميد الثاني الاستبدادية ، وكان يتزعمها فئة من المثقفين التقدميين الذين يمثلون مصالح البرجوازية التجارية التركية ، والذين هم اعضاء في حزب « تركيا الفتاة » .

وعلى أثر نجاح الحركة التي لاقت تأييد سكان المدن والقرى ، فقد اضطر السلطان عبد الحميد لاعادة العمل بدستور عام ١٨٧٦ وافتتاح البرلمان من جديد. غير ان رد فعل هذه الاحداث قد انعكس عند الدول الاستعمارية باجراء مفاوضات فيما بينها انتهت بانفصال البوسنة والهرسك وبلغاريا عن تركيا .

وعلى الرغم من استتباب الامر لأعضاء تركيا الفتاة ، فقد بقيت تركيا شبه مستعمرة نتيجة لاعتماد الحكم الجديد على الاقطاعيين ورجال الدين المتحالفين مع الامبريالية والاجانب .

ويعود السبب في هذا المصير الذي آلت اليه الثورة في تركيا ، اولاً الى كون الجماهير الشعبية ظلت بعيدة عنها عملياً ولم تشترك فيها اشتراكاً جدياً ، وثانياً للموقف المنافق الذي اتخذته الحكومات الاستعمارية في اوروبا من الحدث

التركي والذي ادى في النتيجة الى ابقاء الامور في تركيا تسير حتى في ظل الحكم الجديد ، في مصلحة هذه الحكومات ووفقاً لأهوائها .

يقول لينين تعقيباً على الاحداث في البلقان وايران: « ان فحوى ماجرى في البلقان وتركيا وايران ،يؤول الى ائتلاف معاد للثورة من دول اوربا ضد الديمقراطية المتعاظمة في آسيا » .

ويضيف في مكان آخر: « ان التنافس بين الدول الرأسمالية الراغبة في الحصول (على لقمة) وفي توسيع ممتلكاتها ومستعمراتها ومن ثم الخوف من حركة ديمقراطية مستقلة بين الشعوب التابعة او التي وضعتها اوروبا تحت (وصايتها) ، هما المحركان لكامل السياسة الاوروبية » .

وفي الواقع فان الاحداث المتعاقبة قد اثبتت صحة استنتاجات لينين،ولم تستطع جميع مظاهر القوة ولا سياسة المراوغة والخداع التي كان يتقنع بها الاستعمار تجاه حركات التحرر الوطني أن تقف حائلاً دون نفاذ بصيرته العلمية الى الاعماق وأن يكتشف القوانين الذاتية لتآكل الاستعمار والمؤدية الى هلاكه لا محالة .

وفي مقالته « نهاية الحرب الايطالية التركية » ، يقول لينين : « ما سبب هذه الحرب ؟ سببها جشع صقور المال والرأسماليين الايطاليين الذين هم بحاجة الى سوق جديدة ، الى نجاحات يحرزها الاستعمار الايطالي . وكيف كانت هذه الحرب ؟ كانت مجزرة بشرية متمدنة متقنة ، كانت تقتيلاً للعرب باحدث العتاد . لقد قاوم العرب مقاومة المستميت . فحينما انزل الاميرالات الطليان في بدء الحرب ، دون حذر ، (١٢٠٠) بحاراً هاجمهم العرب وقتلوا

منهم حوالي (٦٠٠) شخصاً . وعقاباً ، قتلوا من العرب حوالي (٣٠٠٠) ونهبوا وذبحوا عائلات باكملها وقتلوا النساء والاطفال . الطليان امة دستورية متمدنة لقد علقوا على المشانق حوالي (١٠٠٠) عربي . وخسر الطليان اكثر من (٢٠) الف شخص منهم ١٧٤٢٩ مريضاً و ٦٠٠ مفقود و ١٤٠٥ قتلى .

وهذه الحرب كلفت الطليان اكثر من (٨٠٠) مليون ليرة اي اكثر من (٣٢٠) مليون روبل ، واسفرت الحرب عن انتشار البطالة لحد مخيف وعن ركود الصناعة .

وقد قتل من العرب حوالي (١٤٨٠٠) ،وستستمر الحرب في الواقع -وبالرغم من(الصلح)- لأن القبائل العربية الموجودة بعيداً عن الساحل في داخل القارات الافريقية لن تخضع،وسيستمرون زمناً طويلاً في تمدينها بالحرب والرصاص وحبال المشانق والنار واغتصاب النساء .

وايطاليا ليست طبعاً باحسن ولا باردأ من بقية البلدان الرأسمالية. فجميع هذه البلدان تحكمها دون استثناء برجوازية لاتحجم عن أية مجزرة في سبيل مصدر جديد للارباح » .

فما أروع هذا الذي كتبه لينين منذ عام ١٩١٢ وسلح به الحركة الثورية العالمية ، فالرأسمالية في المرحلة الأخيرة من تطورها . لقد بدأت الاحتكارات تسيطر على الحيـــاة الاقتصادية والسياسية ، واشتدت التناقضات بين الدول الامبريالية التي أخذت تؤيد تقسيم العالم بقوة السلاح وارتكاب أبشع المجازر البشرية في سبيل مصدر جديد للارباح كما يقول لينين .

ولكن ذلك قد أدى بدوره الى نمو الحركة التحررية العالمية واستيقاظ

عشرات الملايين من الشعوب المسحوقة في آسيا ، التي أصبح نضالها يحظى بتأييد وعطف جميع الكادحين في البلدان الاوربية المتقدمة .

يقول لينين في مقالته « أوربا المتأخرة وآسيا المتقدمة » : « تجد آسيا الفتية بأكملها ، أي مئات الملايين من الكادحين الآسيويين ، في بروليتاريا جميع البلدان المتمدنة حليفاً تركن اليه وليس في العالم قوة تستطيع ان تعيق انتصارها الذي يحرر شعوب أوربا وشعوب آسيا سواء بسواء » .

أفكار لينين منهل خصب لشعوب العالم :

ويشير لينين في الدفاتر الشهيرة (حول الامبريالية) الى نهب المستعمرين للمغرب في عام ١٩١١ ، واتفاق انكلترا وفرنسا وألمانيا الدول الاستعمارية القوية في ذلك الزمن على اقتسامه فيما بينها . وبكثير من السخط كتب لينين عن فقر الفلاحين المصريين المدقع ، وعن ظلمهم وشقائهم . ويقارن ذلك بوضع الفلاح الروسي مستشهداً بما ورد في الكتاب الذي وضعه في عام ١٩٠١ يوسف نحاس بعنوان : « الوضع الاجتماعي والاقتصادي للفلاح المصري » .

وكما يتضح من هذه الوثائق التاريخية ، فقد كان لينين يتتبع بكل انتباه ودقة تطور شعوب الشرق المغلوبة على أمرها ويرسي الأسس النظرية لتحالف الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية مع نضال حركة التحرر الوطني ضد الامبريالية . تحدث لينين في مؤلفه الضخم « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » عن احتلال انكلترا لمصر ونهب ثرواتها الطبيعية وتحويلها الى بلد ذي زراعة وحيدة الجانب هي زراعة القطن . وأشار في كتاباته الى الاوضاع في الجزيرة العربية بوصفها من

المناطق النادرة التي لم تكن في بداية القرن العشرين قد أخضعت بعد لعملية التقسيم بين الامبرياليين ، وكيف أن انكلترا بحاجة ماسة للاستيلاء على بغداد بوصفها نقطة ارتكاز ضد ألمانيا .

وفي مقالتـــه « كتاب مفتوح الى بوريس سوفارين » « حول مفهوم « الدفاع عن الوطن » » يقول لينين : « يقف الاشتراكيون على الدوام الى جانب المظلومين ، فلا يمكنهم اذن أن يكونوا خصوم الحرب متى كان هدفهـا النضال الديمقراطي أو الاشتراكي ضد الظلم » ويضيف : « لا يخشى حزبنا من أن يعلن على الملأ انه يقف موقف التحبيذ من حرب انتفاضة قـــد تبدأ بها أرلندا ضد إنكلترا ، مراكش أو الجزائر أو تونس ضد فرنسا ، طرابلس الغرب ضد ايطاليا ، او كرانيا ، ايران أو الصين ضد روسيا الخ . . . » .

وفي مقالته « اسرار السياسة الخارجية » يخاطب لينين الجنود الروس بقوله : (أيها الرفاق الجنود الروس أتريدون ان تقاتلوا لكي ينهب الرأسماليون الانكليز ما بين النهرين وفلسطين ؟) .

وعن سياسة البروليتاريا الخارجية ، كتب لينين في عام ١٩١٧ وقبل أشهر من انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكيـــة العظمى ما يلي : « ان سياسة الرأسماليين وصغار البرجوازيين الخارجية هي السير في تحالف مع الامبرياليين ، أي السير في ركابهم بصورة مشينة . اما سياسة البروليتاريا الخارجية فهي السير في تحالف مع الثوريين في البلدان المتقدمة ومع جميع الشعوب المظلومة ضد جميع الامبرياليين بشتى أشكالهم » .

انتصار ثورة أكتوبر يعني افتتاح عهد جديد لتحرر شعوب الشرق :

ان تطور العملية الثورية ذاتها هو الذي يقيم البرهان على صحـــة هذا المذهب اللينيني. فبانتصار ثورة أكتوبر في روسيا - التي نظمها وقادها لينين - انفتح عهد جديد لتحرر شعوب الشرق من النير الاستعماري.

جاء في مرسوم السلام الذي أعلنه لينين عشية انتصار الثورة ما يلي :

« ان الحكومة تنفي الديبلوماسية السرية ، وتعبر من جانبها عن كامل عزمها على اجراء المفاوضات كلها بشكل مكشوف كلياً أمام الشعب بأمره ، وتنشر على الفور بالنص الكامل المعاهدات السرية التي أبرمتها أو عقدتها حكومة الملاكين العقاريين والرأسماليين منذ شهر شباط حتى ٢٥ تشرين الاول ١٩١٧ ».

كان بين المعاهدات السرية التي فضحتها الحكومة السوفييتية وعلى رأسها لينين اتفاقية سايكس - بيكو لعام ١٩١٦ ، والمتعلقة بتقسيم سوريا وفلسطين ولبنان والعراق بين الدول الاستعمارية . لقد أعلنت الحكومة السوفييتية رسمياً عدم اعترافها بهذه المعاهدات وناشدت جميع البلدان العربية والآسيوية ودعتها الى « بناء حياتها بالشكل الذي يروق لها » .

وفي رسالته « الى الرفاق الشيوعيين في تركستان » يقول لينين : « ان موقف جمهورية العمال والفلاحين السوفييتية حيال الشعوب الضعيفة المظلومة حتى اليوم ، سيكون ذا أهمية عملية بالنسبة لآسيا من أقصاها الى أقصاها وبالنسبة لجميع المستعمرات في العالم للألوف والملايين من الناس » . ولعل أهمية هذا الموقف الذي يقفه الوطن السوفييتي منذ اليوم الأول لولادته ، من حركات التحرر

العالمية يتجلى بأجلى صوره على خريطة العالم اليوم، فكم من شعب قد حطم قيود عبوديته وكم من علم وطني قد ارتفع على انقاض الأعلام الأجنبية الممزقة .

ايمان لينين بتطور الحركة الديمقراطية لشعوب الشرق :

كان لينين يؤمن ايماناً لا حد له بتطور الحركة الديمقراطية بين شعوب الشرق ، ويعتقد بأن استيقاظ الشرق سيؤثر في تقرير مصير العالم أجمع .

جاء في تقريره الى المؤتمر الثاني لعامة روسيا أمام المنظمات الشيوعية لشعوب الشرق ما يلي : « نحن نعلم أن الجماهير الشعبية في الشرق ستنهض مستقلة بوصفها صانعة الحياة الجديدة ، لأن مئات الملايين من سكان الشرق تنتسب الى الامم التابعة والمهضومة الحقوق التي كانت حتى اليوم هدفاً لسياسة الامبريالية الدولية والتي لم يكن لها وجود في نظر الحضارة والمدنية الرأسمالية الا بصفة سماد » ، « وفي أثر استيقاظ الشرق ستحل في الثورة المعاصرة مرحلة اشتراك جميع شعوب الشرق في تقرير مصائر العالم كله ، لكيلا يكون مجرد وسيلة للاثراء » ، « ان شعوب الشرق تستيقظ من أجل أن تعمل حقاً وفعلا ، من أجل أن يسهم كل شعب في تقرير مصير البشرية بأسرها » ، « وينبغي على جمهوريتنا السوفييتية الآن أن ترص حولها جميع شعوب الشرق المستيقظة كي تناضل مع هذه الشعوب ضد الامبريالية العالمية » .

اثر ثورة أكتوبر في ايقاظ شعوب الشرق :

لقد هزت ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى كل العالم ، بما فيه شعوب الشرق . وكان للنداء الذي وجهه لينين « لجميع مسلمي شعوب روسيا والشرق »

-والذي ترجم في حينه للغة العربية- صدى كبير في نفوس الملايين من سكان هذه المنطقة ، ولم يستطع الستار الحديدي الذي ضربته الامبريالية حول الشعوب الواقعة في قبضتها السوداء أن يحول دون سماع الناس الثوريين في الشرق ، للنداء الذي وجهته أول حكومة بروليتارية في العالم يرأسها لينين لمسلمي الشرق، وجاء فيه : « يامسلمي الشرق في ايران وتركيا وبلاد العرب والهند ، أيها الناس الذين كان يتاجر برؤوسهم وأموالهم وبحريتهم وبوطنهم خلال مئات السنين ، الضواري الجشعون في أوروبا . أسقطوا هذه الضواري ، مستعبدي بلادكم ، وعليكم أن تكونوا أنتم أنفسكم أصحاب البلاد ، وعليكم أن تبنوا حياتكم كما تشاؤون ، أن تأخذوا مصيركم بايديكم ، أما نحن فقد نقشنا على بيارقنا تحرير جميع الشعوب المضطهدة في العالم » .

وكانت الثمار الأولى لهذا النداء ، أن بدأت حرب الاستقلال في افغانستان وتركيا .

وعلى الرغم من أن زعماء هذه الحركات الثورية الوطنية في الشرق كانوا بعيدين عن الأفكار الماركسية اللينينية ،فان تأييد الحكومة السوفييتية المطلق لهم جعلهم يثقون بالدولة السوفييتية الجديدة ويرون في حكومة لينين حليفاً طبيعياً لهم ومثلا رائعاً للصداقة بين الشعوب . وقد وصف أحد المؤرخين المصريين دور الاتحاد السوفييتي إبان انتفاضة الشعب المصري الوطنية عام ١٩١٩ بالشكل التالي : « كانت بيانات هذه الدولة الناشئة من نوع جديد تماما بالنسبة للانسانية . السلام بين الشعوب . ياعمال العالم اتحدوا . ياشعوب المستعمرات تحرري . نحن على استعداد لتقديم الدعم المادي والمعنوي لكل شعب يريد أن يتحرر . فلأول مرة في تاريخ الانسانية تظهر هذه الدولة العظمى التي لاتريد أن تستعمر احداً ،

ولا أن تحتل أحداً ولا أن تستثمر أحداً ، هذه الدولة التي تقف الى جانب جميع قوى التحرر في العالم . ان هذه الدولة الجديدة قد عرضت على سعد زغلول ان تمده بالسلاح ، ولكن سعد قد خاف وأجاب بالرفض » .

في عام ١٩٢٠ ـ وبعد أن تمكن المستعمرون الافرنسيون من احتلال سورية ـ جاء في تقرير اللجنة السورية لتوحيد العرب : « تُعتبر حكومة لينين وأصدقائه والثورة العظمى التي قاموا بها لتحرير الشرق من نير الطغاة الاوروبيين، قوة كبرى بالنسبة للعرب من شأنها أن تهيء لهم السعادة والرفاهية ، ويتوقف على اتحاد العرب والبلاشفة امن العالم وسعادته ، ان البلاشفة يضحون بالكثير من أجل الوصول الى هدفهم العظيم ، وهاهم الآن يريدون أن يمتشق العرب السلاح ضد المستعمرين ، ولكن لكي يستطيع العرب القيام بذلك فانهم يطلبون من البلاشفة أن يمدوهم بالسلاح والذخيرة . عاش لينين ورفاقه وعاشت السلطة السوفيتية . عاش اتحاد جميع المسلمين والبلاشفة » .

وقد طلبت لجنة الاستقلال الوطني التي شكلها الوطنيون العراقيون في المهجر عام ١٩٢٢ من الحكومة السوفيتية اعلام مؤتمر لوزان للدول الكبرى عن الاتفاقيات المجحفة التي فرضتها انكلترا على العراق . وجاء في رسالتهم أيضاً : « ان شعب الرافدين لن يضن بالتضحيات للدفاع عن استقلاله ، ووضع حد لمطامع الانكليز ، والغاء الاتفاقية الجائرة » .

قال أمير البيان شكيب أرسلان : « أنا لست شيوعياً ولم اقرأ ماركس ولكنني اعترف أن لينين كان أول من ألهم البروليتاريا شعور الصداقة الاخوية لشعوب المستعمرات ، وان الشيوعيين هم أول من بث هذه الافكار وطبقها عملياً .

ان النصر الكبير الذي حققته السلطة السوفيتية في حقل العلاقات الخارجية مع الدول الاخرى يرجع بالدرجة الاولى الى المبادىء الأساسية التي وضعها لينين وأهمها: التعايش السلمي رغم اختلاف الانظمة الاجتماعية بين الدول، تساوي الشعوب صغيرها و كبيرها ، الدفاع المتواصل عن القضايا العادلة للشعوب المضطهدة من قبل الامبريالية ومساعدتها للحصول على الاستقلال .

وبناء على هذه المبادىء ،فقد صرحت الحكومة السوفيتية في عام ١٩٢٣ انها لاتعترف بما يسمى « الانتداب » على فلسطين وسورية وغيرها من المناطق العربية . وفي عام ١٩١٩ وصف لينين في المؤتمر الثاني لامامة روسيا أمام المنظمات الشيوعية لشعوب الشرق الانتداب كما يلي : « ونحن نعلم حق العلم انهم عندما يتحدثون عن توزيع الانتداب على المستعمرات ،فانما يعنون توزيع الانتدابات للسلب والنهب ، اعطاء اقلية ضئيلة من سكان الأرض حق استثمار الاكثرية من سكان الكرة الأرضية » .

وعندما أقام الاتحاد السوفيتي في العشرينيات من هذا القرن العلاقات الدبلوماسية مع اليمن والمملكة العربية السعودية ،فقد كان نصيراً لاستقلال هذين البلدين ضد مخططات الامبريالية التي كانت تهدف لوضع هاتين الدولتين المستقلتين تحت سيطرتها .

لينين واضع الاسس العلمية لوحدة الثورات الاشتراكية وحركات التحرر الوطني

لقد دخل لينين التاريخ كمنظري عبقري لتيار موحد للثورات الاشتراكية وحركات التحرر الوطني، وكان يرى ان الضمانة لتصفية الامبريالية هي في تعزيز

قوى الاشتراكية والطبقة العاملة العالمية، وفي تحالفها مع قوى حركة التحرر الوطني. وكان يقول: انه لا يمكن للثورة الاجتماعية أن تقوم الا بوجود عهد يجمع بين الحرب الأهلية للبروليتاريا ضد البرجوازية في البلدان المتقدمة، وبين مجموعة كاملة من الحركات الديمقراطية والثورية بما في ذلك حركة التحرر الوطني في البلدان النامية والمتخلفة والمستعبدة.

ان نجاح ثورة أكتوبر الاشتراكية بقيادة لينين، قد اوجد قاعدة دعم فتية لحركة التحرر الوطني للحركة الاشتراكية والحركة العمالية العالمية. لقد هيئت ثورة أكتوبر ظروفاً ملائمة لنشاط تلك الحركات وانتصارها، فأوجدت علاقات دولية من نوع جديد ودعت لتحقيق المبادىء النظرية الأساسية التي وضعها لينين للنضال ضد الامبريالية وفي مقدمتها مبدأ العلاقات والمساعدة المتبادلة الثابتة التي ينبغي على كل عضو في الجبهة العالمية المعادية للامبريالية أن ينفذها بوصفها واجباً، اميا وثانياً المبدأ القاضي بأن تقدم قوى الاشتراكية مساعدة متعددة الاشكال الى حركات التحرر الوطني. وبهذا الشأن يقول لينين: «مما لا يقبل الجدال بتاتا ان البروليتاريا في البلدان المتقدمة يمكنها - وينبغي عليها - ان تساعد الجماهير الكادحة والمتأخرة، وان البلدان المتأخرة سيمكنها الخروج من مرحلتها الراهنة من التطور، حين تمد البروليتاريا الظافرة في الجمهوريات السوفيتية اليد الى هذه الجماهير، وستكون قادرة على دعمها».

وفي الحقيقة فقد صحت هذه النبوءة ولم تترك البروليتاريا الظافرة في الجمهوريات السوفيتية شعباً من الشعوب المتطلعة الى حريتها السياسية او الاقتصادية إلا ومدت له كلتا ذراعيها مزودتين بالصداقة الخالصة والدعم النزيه. وان باستطاعة

المرء ان يضرب أروع الأمثلة على دعم الاتحاد السوفييتي لجميع حركات التحرر في العالم ومده يد المساعدة لجميع البلدان المضطهدة الطامحة لتحقيق استقلالها وتقرير مصيرها ، وذلك من دراسته لتاريخنا الحديث نحن العرب وعلاقات بلادنا بوطن لينين ، دولة العمال والفلاحين .

فمنذ ثورة أكتوبر، والسياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي متجهة نحو تقوية مواقع الحركة الوطنية والتقدمية في الشرق العربي وتأييد جميع نضالاتها . ففي عصبة الأمم والجمعية العمومية للأمم المتحدة ومجلس الأمن وكافة اللجان والمؤتمرات الدولية ، كان مندوبو الاتحاد السوفييتي المسلحون بالمبادىء اللينينية يقفون الى جانب نضال الجماهير العربية من أجل استقلالها وحريتها ويساندون ثوراتها الوطنية التحررية ، وبفضل هذه السياسة تتوطد العلاقات وتتوثق عرى الصداقة بين الاتحاد السوفييتي من جهة وبين بلادنا العربية وخاصة التواقة منها لاقامة النظام الاشتراكي المبدع فوق أرضها .

لقد قال لينين : « ستأتي كل الأمم الى الاشتراكية ، هذا امر حتمي ، لكنها لن تأتي اليها جميعها بشكل مماثل تماماً ، بل ستحمل كل واحدة منها اصالتها في هذا الشكل أو ذاك من الديمقراطية .. في هذه الوتيرة أو تلك من التحولات الاشتراكية لمختلف أوجه الحياة الاجتماعية » .

ان هذا حق . وتتجلى صحة ذلك في التحولات التي تجري في بعض أجزاء وطننا العربي ، وتحمل طبعاً اشتراكيا ، والتي تحققها القوى الثورية والديمقراطية فيه .

لينين وحركات التحرر الوطني

هيثم العقاد

في أحد المؤتمرات التي حضرها لينين وكان يستمع فيه الى مندوبي المنظمات الحزبية، أعلن أحـــدهم أن الفلاحين قد استولوا على أراضي الملاكين دون اذن ، فأجاب لينين : « هذا هو العمل الثوري الحقيقي ، ويتوجب علينا مساعدة الفلاحين على أن يكونوا أكثر تنظيما وصلابة ».

وفي زيارته لعمال مناجم حوض الدونباس ، ألقى احد العمال خطاباً تحدث فيه عن فهمه للثورة وكيف تم تحقيقها في المنجم الذي يعمل فيه .كان يجب بعـــد الاستيلاء على المنجم حماية الأسلاك كي لا يتوقف الانتاج . ثم طرحت مسألة الخـــبز ، وكان الجميع يفتقرون اليه ، وتفاهموا على طريقة الحصول عليه . فقال لينين .. : « هذا هو برنامج ثوري حقيقي لم يجر تعلمه في كتاب بل انتزاع، فعلي للسلطة محلياً ».

بعد كل السلوك والتفكير الماثل الذي عاشه ذلك المفكر العبقري والقائد الثوري الفذ، لا يجوز لنا أن نفصل بين لينين المفكر النظري – بل الفيلسوف – ولينين المناضل الثوري . إذ بالفكر الثوري يفهم العالم وتكشف اتجاهات وقوانين تطوره ، وبالنضال

الثوري يتم تغييره . وبذلك كان لينين أميناً لفكرة ماركس التي يقول فيها : « كانت مهمة الفلسفة حتى اليوم تفسير العالم ، أما الآن فالمهمة تغييره » . ولأنه كان كذلك بل - وبصورة أدق - لأنه مادي ديالكتيكي أمين ، مادي تاريخي ثابت الى النهاية ، كان من مهامه أن يفسر ويحلل ويفهم العصر الجديد الذي نشأ فيه وشرع يناضل من خلاله ...

ان الاسلوب اللينيني يتميز أولاً بنوع من الحياة في الممارسة ، في العمـل ، دون الوقوع أبداً في النزعة العملية والتجريبية . لقد كان لينين يعرف كيف يستلهم الحياة ، دون أن تعني هـذه الكلمات - بالنسبة إليه - كياناً غامضاً ملتبس المعنى وتبريراً « للأمر الواقع » . ان الحياة ستنتصر ، أي الوحدة الديالكتيكية بين القانون غير المتوقع ، بين الانتظام والجدة .

وهو يتميز أيضاً بطريقة في استخدام المفاهيم والمقولات الأكثر تجريداً دون أن يظـل في التجريد ، ويجتازها ليعود ثانية الى المشخص (المشخص الحقيقي ، لا المباشر) والتقاطه بعمق . ان الحقيقة مشخصة على الدوام ، ولكن الحقيقة « المعرفـة » هي المشخصة .

ان الربط عند لينين بين الممارسة والنظرية لا يمثل « شيئاً » معطى سهل الالتقاط ، مصنوعاً مسبقاً . انه على العكس خط متحرك متعرج وان لم يكن عدداً ، تلك هي العقدة الحيوية للفكر اللينيني . ان المنهج الديالكتيكي لا يرتد الى قائمة من الوصفات ، الى القواعد المصاغـة للتفكير والعمل . انه يصبح تفكير انسان حي فاعل دون أن يفقد طابعه العقلاني التربوي . انه يندمج معه ، في شعوره ، وفي عمله .

لقد دخل لينين التاريخ كنظري عبقري لثورة البروليتارية ، ولتحويل المجتمع تحويلاً اشتراكياً . ففي شخصيته اجتمعت حكمة الفكر وتجربة حياة الشعب ، المعرفة الرائعة بالنظرية الماركسية وتفهم الحاجات الحيوية للحركة العمالية .

وفي فترة فاصـلة بين عصرين تاريخيين واستناداً الى تجربة تاريخية جديدة ، الى دراسة نضال الطبقة العاملة العالمية وحركة التحرر الوطني للشعوب ، عمق لينـين بشكل خلاق عقيدة ماركس . فاللينينية هي ماركسية عصر تاريخي جديد ، عصر الامبريالية وثورات البروليتاريا وشعوب العالم الثالث . عصر انتقال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وبناء مجتمعها العادل المتحرر من كل اشكال الاستغلال والتسلط .

ان التاريخ وتطور المجتمع يقدمان شيئاً جديداً بالنسبة للوقائع التي حللها ماركس، دون تكذيب القوانين التي اكتشفها ماركس : دون هدم الماركسية ، بل على العكس بالتحقق من صحتها . ان الثورة لم تقع في البلاد الرأسمالية المتقدمة ، فقد تحولت هذه الى امبرياليات وانتقل مركز الثورة العالمية اذن الى البلاد المتأخرة ، الزراعية بالدرجة الأولى، وأصبح الفلاحون في هذه الثورة قوة اجتماعية أساسية ، واحتفظت البروليتاريا والماركسية ونظرية الثورة الاشتراكية بدورها المسيطر .

ويكشف التحليل اللينيني عن خصوصية تحسس بها لينين وتوقع حدوثها. وانتشرت الثورة في البلاد المتأخرة، حيث تراخت الامبريالية، حيث توجد الحلقة الضعيفة في السلسلة التي طوقت بها الامبريالية العالمية العالم بأسره .

ان الثورة تتحقق . وتستعيد المسألة القومية أهميتها الرئيسية، وإن تكن مرتبطة في أهميتها بالثورة الاجتماعية .

فالبنى والقوى الاجتماعية لا تنمو منسجمة بعضها مع البعض الآخر ، بل هناك تفاوت جبري قد يدفعها الى التعارض بعضها مع البعض الآخر، مما يشكل نقطة الانطلاق للثورة التحررية الاشتراكية . فهناك تفاوت أساسي بين الزراعة والصناعة ، بين الحاضر وترسبات الماضي ، تفاوت بين الرأسماليات ، وتفاوت بين الامبريالية والرأسمالية .

ان قانون النمو المتفاوت هذا يعني -فيما يعنيه- امكانية قيام الاشتراكية في بلد واحد (أو عدة بلاد) عقب استيلاء الكادحين على السلطة من خلال أزمات ناجمة عن ظروف خاصة ليست بالضرورة متشابهة .

ويعني ان القوى الانتاجية والعلاقات الاجتماعية والبنى الفوقية لا تتقدم بشكل متساو واحد ، وبلحظة واحدة ، وبنسق تاريخي واحد ، وانه يجب اجراء تحليل للحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية حسب القطاعات ، وهو يعني ان الرأسمالية تحمل في داخلها رواسب التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية البالية دون أن تتوصل الى تصفيتها، مما يفضي مع جملة التناقضات الأخرى الى نهايتها، وأن تفاوت النمو يتسد الى كل مناطق البلاد ، الى كل فروع الصناعة والى داخل المشروعات .

. ويعني وجود طريقين مختلفين الى الاشتراكية للزراعة والصناعة، ويعني ان ثمة طرقاً متعددة ، وان على كل بلد وكل شعب أن يكتشف طريقه استناداً الى واقع قومي

يقوم في أساسه النهائي على علاقة الناس بالأرض وعلى الزراعـة . وهو يعني ان ثمة مراحل تنتشر على طريقة الانتقال من الديموقراطية البرجوازية الى الديموقراطية البروليتارية الى الاشتراكية — مع امكانية حدوث تأخرات وقفزات الى الامام وصعوبات وتناقضات داخلة — وهو يعني تعقد وغنى الحركة التاريخية المتجهة الى الاشتراكية .

لماذا هذه المقدمة، والموضوع (حركة التحرر الوطنية عند لينين)؟ لماذا الحديث عن ترابط النظرية والممارسة ، عن قانون النمو المتفاوت الذي اكتشف لينين ملاحـه عند ماركس وقام بتوضيحه في الوقت الذي وصلت فيه الرأسمالية الى الامبريالية أعلى مراحلها ؟

في هـــذا العام نحتفل بالذكرى المئوية لميلاد لينين العظيم باني أول دولة اشتراكية في العالم .

ان الذكرى المئوية مناسبة وليست سبباً لفهم اوسع لافكار لينـين وما عمله في طياتها من ارشادات للعمل بعد ان حالت ظروف كثـيرة للحيلولة دون انتشار هذه الافكار ، دون فهمها ، بـل وقامت محاولات للحكم عليها مسبقاً . ان طرح افكار لينين وممارساته الثورية ذات دلالة هامة في الوقت الذي يخوض فيه شعبنا العربي في بعض اقطاره معركة وطنية تحررية ، ويخوض في بعضها الآخر معركة تحررية وطنية. وهو في مجمل حركته يخوض نضالاً قاسياً ضد قوى الامبريالية وحلفائها الرجعيين، وضد قوى الصهيونية المتجسدة في اسرائيل ، القلعـة العسكرية الاستعمارية العدوانية ، والحـارس الاول لمصالح الامبريالية وخندقها الامامي في مواجهة الثورة العربية في الاقطار التي تناضل من اجل التحرر الوطني .

تظهر الحاجة الى تفهم ومعرفـة الاساليب النضالية والثورية على قوى الاستعمار والرجعية وتحقيق النصر عليها وتحقيق الاستقلال السياسي وفي الاقطار الـتي تنتظمها الحركة الوطنية التحررية حيث تحقق الاستقلال السياسي تظهر الحاجة ماسة الى تفهم ومعرفة الاساليب النضالية والثورية التي تصون الاستقلال السياسي والتي تقوده الى اجراء التحولات الاقتصادية والاجتماعية على طريـق الاشتراكية والمحافظة عليها من قبل جماهير منظمة وطلائع ثورية مسلحة بالنظرية العلمية والممارسة الثورية وعلى طريق نضال الشعب العربي عامـة والجماهير الفلسطينية نضالاً مسلحاً مشروعاً لاعادة الحقوق المغتصبة تبدو الحاجة ماسة الى فهم هذه الحرب القومية

تبدو لنا افكار لينين – وتنبؤاته بقوى حركة التحرر الوطني وامكانياتها الضخمة في النصر على الامبريالية وتحقيق تطورها الاجتماعي والاقتصادي بالتعاون مع نضال القوى العالمية في العالم وقوى البلدان الاشتراكية – مثلا لشعوب العالم ودليلا هاديا في المسيرة الشاقة الطويلة . ذلك ان النظرية ليست مذهبا ، بل هي مرشد للعمل . لقد تنبأ لينين بذلك الدور التاريخي الذي ستضطلع به شعوب الشرق في ثوراتها التحررية للقضاء على الاستعمار والمساهمة في بناء مستقبل الانسانية . فالتفاوت الكبير القائم بين الامم المضطهّدة المتخلفة والامم المضطهِدة المصنعة الرأسمالية سيجعل من العالم الثالث (بؤرة ثورية مستمرة) حتى يتخلص من تناقضاته الاساسية مع القوى الاستعمارية الخارجية وقواها الحليفة في الداخل . فمن اجل ذلك الدور التاريخي يقول لينين : « ان استيقاظ آسيا ، وشروع البروليتارية المتقدمة في أوروبا بالنضال في سبيل السلطة ، يرمزان الى مرحلة جديدة في التاريخ العالمي بدأت في اوائل القرن العشرين » .

ومن اجل ذلك الدور الانساني واثره حتى على المجتمعات اوربية . يقول لينين :

« تجد آسيا الفتية بكاملها اي مئات الملايين من الفلاحين الآسيويين – في بروليتاريا جميع البلدان المتمدنة حليفا يركن اليه ، وليس في العالم قوة تستطيع ان تعيق انتصارها الذي يحرر شعوب اوروبا وشعوب آسيا سواء بسواء .

ومن اجل الدور الثوري الذي يمكن ان تقوم به دول العالم الثالث يقول لينين : (من الواضح تماما ان حركة اغلبية سكان الكرة الارضية الموجهة بادىء بدء نحو التحرر الوطني ستنقلب على الرأسمالية والاستعمار في المعارك المقبلة للثورة العالمية ، وربما تلعب دورا ثوريا أكبر بكثير مما نتوقع) ويقول ايضا : (وبعد عهد استيقاظ الشرق .. يبدأ عهد اشتراك جميع شعوبه في حل مصائر العالم حتى لا تكون بعد الآن معينا لاثراء الآخرين . ان شعوب الشرق اخذت تشعر بالحاجة الى العمل ، وبحاجة كل امة الى الاشتراك في تخطيط مصير الانسانية)

لقد دافع لينين بكل قواه عن حق الشعوب المظلومة والمستعبدة في تقرير مصيرها وانشاء دولها المستقلة، ونادى بمبدأ المساواة بين الامم كبيرها وصغيرها وخاض في سبيل ذلك معارك نظرية واسعة وعميقة «**ان المقصود بحرية الامم في تقرير مصيرها، هو انفصالها كدول عن مجموعة قومية اخرى، هو بالطبع تأليفها دولاً قومية مستقلة**» وهو يدعو الى وضع مسألة الاستقلال القومي ضمن إطارها التاريخي. ويقول في حركات الشعوب المستعبدة المتخلفة واتجاهها نحو تكوين دولها المستقلة ومجتمعاتها القومية: «**حين يعمد المرء الى تحليل قضية اجتماعية ايا كانت توجب عليه النظرية الماركسية اطلاقا ان يضع تلك القضية في نطاق تاريخي معين كما تشترط عليه أيضا، اذا كان الموضوع يدور حول بلد معين (مثلا حول البرنامج القومي لهذا البلد)، ان يأخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة التي تميز هذا البلد عن سواه في حدود حقبة تاريخية معينة**».

وعلينا من أجل ذلك التمييز بدقة بين عهدين من الرأسمالية يختلفان كل الاختلاف من حيث الحركات القومية.

فهناك عهد انهيار فيه الاقطاعية والحكم المطلق، وينشأ المجتمع الديمقراطي البورجوازي ودولته، وعهد اكتمل فيه تأسيس الدولة الرأسمالية بنظامها الدستوري الموطد وتعاظم فيه التناحر بين البروليتاريا والبورجوازية. ان اهم ما يميز العهد الاول استيقاظ الحركة القومية التي يجرف تيارها طبقة الفلاحين، الطبقة التي تضم اكبر عدد من السكان الى مجرى النضال من اجل الحرية السياسية والحقوق القومية. وان اهم ما يميز العهد الثاني سعي الرأسمالية الى وضع التناحر، بين الرأسمال المندمج على الصعيد العالمي وبين حركة العمال العالمية، في الدرجة الاولى من الأهمية.

«**وليس هناك اي جدار يفصل بين هذين العهدين، بل انهما يتصلان ببعضهما بحلقات انتقال كثيرة؛ على ان هناك عوامل اخرى تميز بين مختلف الاقطار، كسرعة تطورها الوطني، وتركيب سكانها القومي، وتوزيع هؤلاء السكان.. ولذا لا يمكن**

اطلاقا الشروع بوضع برنامج قومي للماركسية في بلد من البلدان دون النظر بعين الاعتبار الى جميع هذه الاحوال التاريخية العامة وجميع الاوضاع العامية فيها .

ويرد لينين على اولئك الذين حاولوا تشويه شعار حق الامم في تقرير مصيرها ومناقشته بادعاءات «التعصب القومي » ، او عدم صلاحية طرح شعارات عمالية لاقطار ليس فيها عمال، او بحجة التطور الاقتصادي والاجتماعي الضعيف لتلك التي تطالب بحقها في تقرير المصير ،فيقول:

« الحقيقة ان الاعتراف بحق الامم في تقرير مصيرها ، يتضمن حـــدا اقصى من الديمقراطية وحدا ادنى من التعصب القومي »

ويجب فهم ذلك الحق على انه « اعتراف صريح اطلاقاً ،لايحتمل أي تأويل خاطىء بحق جميع الامم التام في حرية تقرير مصيرها من جهة، ودعوة لاتقل صراحة الى العمال لتحقيق الوحــــدة في نضالهم الطبقي من جهة أخرى » . ويقول ايضاً: « ان الذين يعتقدون ان شعار حزب عمالي لايطالب الا على العمال ، ليسوا سوى الاقتصاديين غير المأسوف عليهم . ان هذه الشعارات توجه لجميع الكادحين للشعب بأسره » ثم يقول : « كثيراً ماينسى الاوربيون ان شعوب المستعمرات هي أيضاً أمم، ولكن التساهل ازاء النسيان هو تساهل ازاء الشوفينية »

ومن اجل الاساليب والوسائل المساعدة لامم العالم الثالث للوصول الى حقها هذا ومايترتب عليه من مساهمة فعالة في تقويض اسس الامبريالية ومرتكزاتها ، يقول لينين: « ولذا يترتب على الاشتراكيين ان لايطالبوا فقط بتحرير المستعمرات فوراً دون قيد ولاشرط ودون أي تعويض ،فان هذا المطلب بتعبيره السياسي ليس سوى الاعتراف بحق حرية تقرير المصير ،انما ينبغي عليهم ايضاً ان يؤيدوا ويساندوا بأشد العزم والتصميم العناصر الاكثرثورية في حركات التحرر الوطني البورجوازية الديموقراطية في هذه البلدان ، وان يساعدوا في قيام ثورتها وفي نشوب حربها الثورية عند الاقتضاء ضد الدول الامبريالية التي تضطهدها »

ان المجتمعات النامية تتسم بخصائص معينة وبسمات مميزة من حيث تكوينها الاجتماعي وأوضاعها السياسية والاقتصادية ، وتشهد في مسيرتها التحررية مراحل متعددة وانتقالية بين تحقيق الاستقلال الوطني والانتقال الى تحقيق التحولات الاقتصادية والاجتماعية على طريق التحويل الاشتراكي لشعوبها . ولا أدل على ذلك من مسيرة حركة الثورة العربية ، والتي يتميز نضالها بطابع خاص حيث رافق مرحلة التحرر الوطـــني والوصول الى الاستقلال السياسي استعمار صهيوني استيطاني لأحد الاقطار العربية طرد شعباً عربياً من أرضه وطفق يهدد السيادة الوطنية للشعب العربي بأكمله ، بل ان بعض الاقطار العربية التي سارت على طريق التحويلات الاقتصادية والاجتماعية تدعيماً لاستقلالها السياسي تعاني احتلالاً استعمارياً ووجوداً حقيقياً لقوى الاحتلال الصهيوني الامبريالي على اراضيها . ان مثل هذه الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتعددة والغنية بالنماذج ، تطرح على حركات التحرر الوطني ضرورة رفض التأويل العقائدي الضيق ، والانطلاق في نضالها من خلال واقعها الذي عاشته وتعيشه ، واتبـــاع السبل الكفيلة بتحقيق انتصارها القومي وبناء مجتمعها الاشتراكي .

ان الجمود العقائدي ليس تكويناً عضوياً ، بل هو التخلف عن دراسة الواقع بكل الاتجاهات الاساسية الموجودة فيه ، الاجتماعية منها والسياسية وعدم تمييز العوامـــل الاساسية في الظاهرة الاجتماعية وعدم رؤية العلاقات الواقعية بين هذه العوامل داخل الظاهرة وانتهاك او خرق احد قوانين الجدلية أثناء الاستنتاجات اوالتعليلات النظرية وكل انسان معرض خلال قيامه بالنضال الثوري للجمود العقائدي .. وعلى هذا ، فالنضال ضد هذا الجمود نضال يومي ودائم وسيستمر ولن يتوقف أبداً مادام هناك تناقضات ومادام هناك عملية اجتماعية وعملية تاريخية .

لقد كان لينين عدواً لدوداً لكل اتجاه يحاول أن يغير روح الماركسية من دليل للعمل الى صيغ واحكام نظرية جامدة .

وفي ذلك دحض لاعداء الثورة الذين يتسترون وراء تعبير «الواقع» بحجة التمييز وكسب رضا الأجداد ، وماذلك الا لجم الانطلاق الثوري والمحافظـــة على الأوضاع المتأخرة المتخلفة . يقول لينين : **« لسنا طوباثيين نعتقد ان عمل بناء روسيـــا**

الاشتراكية يمكن ان ينجزه اشخاص جدد دون تعيين . اننا سنستخدم الاداة التي خلفها لنا العالم القديم .. اننا نريد بناء الاشتراكية بالادوات التي خلفتها لنا الرأسمالية في الوقت الراهن ، لا بأناس صنعوا في قوالب » .

وفي حديثه لشيوعيي الشرق - منبها لطبيعة الاجتماعية الخاصة لبلدانهم - يقول : « وفي هــذا الحقل ، تواجهكم مهمة لم تواجه الشيوعية في العـالم كله من قبل ، ينبغي لكم ان تستندوا في الميدانين النظري والعملي على التعاليم الشيوعية العامة وان تتكيفوا مع شروط خاصة غير موجودة في البـلدان الاوربية كي يصبح بامكانكم تطبيق هذه التعاليم في الميدانين النظري والعملي في ظروف يؤلف فيها الفلاحون الجمهور الرئيسي وتطرح فيها مهمة النضال لاضد رأس المال بل ضد بقايا القرون الوسطى » .

وانطلاقا من التفهم الموضوعي لظروف المرحلة التاريخية ، فقد تجاوز لينين موضوعة قيام الثورة في البلدان الرأسمالية المتقدمة في آن واحد ، واستنتج امكانية انتصار الاشتراكية في بلد واحد فقال : « ان التفاوت في التطور الاقتصادي والسياسي هو قانون مطلق للرأسمالية . ينتج من ذلك ان انتصار الاشتراكية ممكن ، بادىء الامر في عدد صغير من البلدان الرأسمالية أو حتى في بلد رأسمالي واحد بمفرده . فالبروليتاريا المنتصرة في هذا البلد ، بانتزاعها من الرأسماليين ملكيتهم وبتنظيم الانتاج الاشتراكي عندها ، تنهض ضد العالم الباقي الرأسمالي ، جاذبة اليها الطبقات المظلومة في البلدان الاخرى ، دافعة اياها الى الانتفاض على الرأسماليين بل مستخدمة القوة العسكرية عند الاقتضاء ضد الطبقات المستثمرة ودولها » .

وهو في هذا يؤكد ضرورة تلاحم نضال الطبقة العاملة في سبيـل الثورة الاشتراكية مع الحركة الوطنية التحررية التي تنتظم ملايين الناس . فنضال العمال ضد الرأسمالية يسير جنباً الى جنب مع نضال الفلاحين ضد كبار ملاكي الارض ، ومع نضال الأمم المظلومة ضد الظالمين . ويقول : « ان التفكير بأن الثورة الاجتماعية أمر ممكن

الوقوع بدون انتفاضات من جانب الأمم الصغيرة في المستعمرات في اوربا ، وبدون انفجارات ثورية من جانب قسم من البورجوازية الصغيرة رغم كل اوهامها، وبدون حركات من جانب الجماهير البروليتارية غير المدركة ضد الظلم ، هو تفكير رجعي ويعني رفض الثورة الاجتماعية » .

ويعود للقول : « ان جميع الأمم ستبلغ الاشتراكية، هذا أمر لا مناص منه، ولكن ستأتيها بطرق ليست متماثلة تمام التماثل . ان كل أمة ستأتي الاشتراكية بما عندها من اصالة ، في هذا الشكل او ذاك من الديموقراطية ، في هذا النمط أو ذاك من ديكتاتورية البروليتاريا ، في هذه الوتيرة أو تلك من التحول الاشتراكي لمختلف وجوه حياتها الاجتماعية ،ويسخر من اولئك الاشتراكيين الذين يتصورون ان تاريخ جميع الثورات لابد وان يخضع لقواعد وصيغ واحـــدة لذلك فهم عاجزون عن فهم الحركات الوطنية التحررية . ويقول: «ان صغار البورجوازيين الاوروبيين لايتصوورون ان الثورات القادمة في بلدان الشرق ذات الشروط الاجتماعية الاكثر تنوعاً سيكون لها بالتأكيد من السمات الخاصة اكـــثر مما للثورة الروسية بكثير » .

لقد فهم لينين بعمق طبيعة الثورات الوطنية التحررية وحدد في مجال حركتها الداخلية ماهية الطبقات التي تضطلع بالقيام بها والتحالف الذي يسود بين عمالها وفلاحيها وبورجوازيتها الصغيرة وتثقيفها الثوريين ، كما حدد محل حركتها في مجرى النضال العالمي اذ يقول :

«وعلى ذلك، فالثورة الاشتراكية لن تكون لا كلياً ولا بصورة رئيسية عبارة عن نضال البروليتاريين الثوريين في كل بلد من البلدان ضد بورجوازيتهم قطعاً انما ستكون نضالاً من قبل جميع المستعمرات والبلدان التي تظلمها الامبريالية، نضالاً من قبل جميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية » .

« ان اكثرية شعوب الشرق تمثل اصدق تمثيل جماهير الكادحين ، لا العمال الذين اجتازوا مدرسة المصانع والعمال والرأسمالية ، انما جماهير الفلاحين الكادحين المستثمرين الرازحين تحت وطأة ظلم القرون الوسطى ، ولقد أظهرت الثورة الروسية ان البروليتاريين الذين تغلبوا على الرأسمالية وتضافروا مع الجماهير الغفيرة من الفلاحين الكادحين المبعثرين قد هبوا ضد مظالم القرون الوسطى مظفرين » .

وفي خطابه لشيوعيي الشرق يقول : « هذه هي القضايا التي لا تجدون حلولاً لها في أي كتاب من كتب الشيوعية . ولكنكم تجدون حلولها في النضال العام الذي بدأته روسيا .

لابد لكم من وضع هذه القضية ومن حلها بخبرتكم الخاصة وسيساعدكم في ذلك من جهة التحالف الوثيق مع طليعة جميع الكادحين في البلدان الاخرى ، ومن الجهة الأخرى معرفة أقرب من شعوب الشرق التي تمثلونها هنا .

لابد لكم ان تستندوا على القومية التي تستيقظ لدى هذه الشعوب والتي لابد لها ان تستيقظ والتي لها مبرر تاريخي . وينبغي لكم في الوقت نفسه ان تشقوا طريقكم الى جماهير الكادحين والمستثمرين وان تعلنوا لها باللغة التي تفهمها ان لا سبيل الى الخلاص غير سبيل انتصار الثورة العالمية وان البروليتاريا هي الحليف الوحيد لجميع جماهير الكادحين ولمئات الملايين من المستثمرين من شعوب الشرق » .

وقد تكون رسالته الى شيوعيي الجمهوريات القفقاسية مثالاً اكثر وضوحاً لافهامهم السمات الخاصة التي تميز وضعهم ووضع جمهورياتهم ، والتي من أهمها ان هذه الجمهوريات بلدان فلاحين بنسبة أكبر من روسيا نفسها فيتصح بقدر كبير من اللين والتساهل والوعي حيال البورجوازية الصغيرة ، حيال المثقفين ، وبوجه خاص حيال الفلاحين ، والاستفادة

منه اقتصادياً بكل الوسائل من الغرب الرأسمالي في سياسة الامتيازات والتبادل التجاري.
ويقول : « أيها الرفاق ، لا ينبغي لكم ان تنسخوا خطتنا ، بل ينبغي لكم ان تعملوا الفكر باستقلال في اسباب المسائل التي تنفرد فيها في ظروفها ونتائجها ، ينبغي لكم ان لا تطبقوا النص ، بل الروح والمغزى .. ينبغي لكم ان تبذلوا الجهـــد دون ابطاء لتحسين حالة الفلاحين والبدء بأعمال كبيرة لتعميم الكهرباء والري ، وليس من شيء كالري يخلق المنطقة خلقاً جديداً ويدفن الماضي ويوطد الانتقال الى الاشتراكية » . كثيراً من الأهمية علقها لينين على العناية بالفلاحين، وخاصة في البلدان التي لا تعتمد في نضالها على البروليتاريا .

أما فيما يتعلق بالدول والأمم الاكثر تخلفـاً ، حيث تسيطر علاقات ذات طابع اقطاعي، فينبغي أن يكون ماثلاً في الذهن على الأخص ضرورة الدعم الحامي لحركة الفلاحين في البلدان المتخلفة ضد الاقطاعيين ، ضد كبار الملاكين العقاريين ، ضد جميع مظاهر او بقايا الاقطاعية ، والعمل على إعطاء حركة الفلاحين الطابع الاكثر ثورية بتحقيق أوثق اتحاد ممكن بين البروليتاريا في اوربة وبين الحركة الثورية للفلاحين في بلدان الشرق وبلدان المستعمرات وفي البلدان المتخلفة عموماً .

كما اكد لينين امكانية التطور للمجتمعات المتخلفة نحو الاشتراكية دون حتمية المرور بالمرحلة الرأسمالية : **« ان الشعوب المتخلفة تستطيع ـ بمساعـــدة بروليتاريا البـــلدان الطليعية ـ الانتقال وعبر بعض مراحل التطور الى الاشتراكية دون المرور بمرحلة التطور الرأسمالي »** . وقد أيد التطبيق الواقعي ذلك حتى اليوم .

ومن أجل الاستقلال السياسي والتخلص من التبعية ، ومن اجل اجراء التحولات الاقتصادية والاجتماعية على طريق الاشتراكية ، تخوض شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية معارك مسلحة ضارية ضد قوى الامبريالية وشراستها وتحدياتها الوقحة المتنوعة والمستمرة .

لقد ادرك لينيــن ان حق الامم في تقرير مصيرها سيؤدي بها الى خوض غمار حروب قومية ، فهو يقول : « كل حرب هي متابعة للسياسة بوسائل أخرى،

ومتابعة سياسة التحرر القومي في المستعمرات ستتخذ حتما شكل حروب قومية ضد الاستعمار » .

إن شعبنا العربي قد خاض غمار معركته التحررية الوطنية في سعيه لتحقيق الاستقلال السياسي، غير انه وقبل ان يجني ثمار تلك المعركة جوبه بنوع جديد من انواع الغزو الاستعماري حيث توضعت على أرضه شعوب غريبة تحت راية الصهيونية واستوطنت بعد أن ابادت وشردت سكان البلاد الاصليين ولتكون عائقاً كبيراً في طريق الاتصال الوحدوي وبناء المجتمع الاشتراكي وعامل تهديد دائم للشعب واستنزاف متواصل لخيرات الارض العربية بأسرها. وأصبح لزاماً على شعبنا ان يخوض حروباً اخرى ومتواصلة لطرد المحتلين وتحرير الأرض من جهة ، وللحفاظ على منجزاته وممارسة تطوره التقدمي الثوري من جهة اخرى .

و ذلك يقتضي كما يقول لينين « الطبقة التي تشن الحرب والتي تواصلها ، فبفضل ان حربنا الأهلية تشن من قبل العمال والفلاحين الذين حرروا انفسهم ، وانها استمرار لنضال سياسي هدفه تحرير الكادحين من نير الرأسماليين سواء في بلادنا او في العالم كله ، بفضل ذلك فقط امكن ، في بلاد متأخرة تأخر روسيا ، في بلاد انهكتها حرب امبريالية استمرت اربع سنوات ، وجود اناس أقوياء العزيمة يتابعون هذه الحرب في غضون سنتين من صعوبات وشدائد منقطعة النظير ولا يتصورها عقل » .

ويتابع قوله : « اني اعتقد ان ماحققه جيشنا سيكون بالنسبة لجميع شعوب الشرق ذا أهمية عالمية قصوى ، فهو يظهر لها ان الحرب الثورية التي تشنها الشعوب المظلومة مهما بلغت هذه الشعوب من الضعف ، ومهما بدا ان قوة الظالمين الأوروبيين الذين يستخدمون في النضال جميع معجزات التكنيك والفن العسكري لاتقهر ، تنطوي مع ذلك - اذا ما ايقظت حقاً الملايين من الكادحين والمستثمَرين - على امكانات ومعجزات تجعل تحرير شعوب الشرق في الوقت الحاضر امراً ممكن التحقيق من الناحية العملية كل الامكان » .

(ان الحروب القومية ضد الدول الاستعمارية ليست ممكنة ومرجحة فحسب بل هي حتمية وتقدمية وثورية) .

ان نضال شعوب العالم الثالث ضد قوى الاستغلال في الداخل وضد قوى الامبريالية العالمية ، يبقى في خطر دائم وتحت تهديد الفشل اذا بقيت العلاقة القائمة ضمن مجتمعاتها على ماهي عليه من عفوية وتشابك وتعقيدات وانسيابية في الحدود القائمة بين القوى الاجتماعية المختلفة والمتناقضة ، ولاتستطيع الجماهير الكادحة ان تحمي تطورها وتقدمها . والأمثلة على ذلك كثيرة ، مالم يتكون لديها الوعي الطبقي الثوري والذي لايأتيها عفواً ومن ذاتها بل لابد لها من طليعة ، لابد لها من حزب ثوري ينمي فيها ذلك الوعي والا لتوقفت في نضالاتها عند المطالب الاقتصادية الاصلاحية دون ان تحولها الى نضالات سياسية مما يسهل امتصاص حركتها الثورية واجهاضها . يقول لينين :

« كل تعبد لعفوية الطبقة العاملة ، كل تقليل من دور العنصر الواعي أي من دور الاشتراكية الديموقراطية ويقصد هنا (الحزب الثوري) يعني بحد ذاته تقوية لتأثير الايديولوجية البورجوازية » .

ان الحزب هو مكان تبلور الوعي الطبقي الثوري وهو اداة لتوعية الطبقة الكادحة ، وبدون ذلك تستحيل العملية الثورية ، لأن الثورة نتيجة الصراع بين تناقضات اجتماعية تقود الجماهير الى نقطة حلها من خلال اشكال وعيها لها . وهذا يضيء لنا المقولة النسبية : لاحركة ثورية بلا نظرية ثورية ، وبالمعنى السياسي لاحركة ثورية بلا حزب ثوري .

غير ان لينين يطالب الطليعة بتأدية دورها الحقيقي في استنهاض هم الجماهير وتحريك عناصر الثورة الكامنة فيها ، والتي تعمل من خلال الجماهير وتتفاعل معها حتى يمكن تحقيق المهام الاجتماعية المطلوبة .

« ان علينا ان نفهم ان الطليعة وحدها لا يمكنها تحقيق الانتقال نحو الشيوعية ، فالمهم ان نوقظ الجماهير الكادحة وان ندفعها الى النشاط الثوري والى العمل المستقل والتنظيم المستقل وذلك بغض النظر عن المستوى الذي بلغته » .

« ان من اكبر الاخطاء واخطرها ، التي يرتكبها الشيوعيون ،

اعتقادهم بان الثوريين يستطيعون وحدهم انجاز الثورة . وعلى العكس فانه ينبغي ، لتأمين نجاح كل عمل ثوري جدي ، ان ندرك ونعرف كيف نطبق بصورة عملية فكرة ان الثوريين يمكن فقط ان يقوموا بدور طليعة الطبقة . ان الطليعة لا تؤدي رسالتها الا اذا لم تنفصل عن الجمهور وعرفت كيف تدفعه الى الامام . وبدون هذا الحلف في جميع مجالات النشاط ، لن يكون ممكنا اقامة المجتمع الاشتراكي » .

ان المهام المطروحة على حركات التحرر الوطني والحركات الوطنية التحررية من نضال سياسي وكفاح مسلح لتحقيق الاستقلال السياسي والتخلص من جيوش الاحتلال ومن السعي لتحقيق التحولات الاقتصادية والاجتماعية والتخلص من التبعية والسير عن طريق التحول الاشتراكي وخلق الاداة الثورية لبث الوعي الوطني والطبقي في صفوف الجماهير المسحوقة وتنظيم هذه الجماهير في أطر تنظيمية عصرية حديثة تحل في علاقتها محل العلائق البالية المتخلفة وتحديد مصالح ودور ومكان القوى الاجتماعية والسياسية القادرة على العمل معاضد الامبريالية والسبيل الى توحيدها ورفع نضالاتها الى مستويات عليا ومتقدمة ، انما تستلهم في نضالها افكار لينين وممارساته الثورية الغنية كما تستند بالوقت نفسه الى التحليل العلمي الواقعي لمسائلها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخاصة بها .

وهاهي شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية تؤكد – وهي تبني مجتمعاتها الاشتراكية – صحة عبارات لينين بان ولادة وتطور النظام الاشتراكي في مختلف البلدان يتحققان وفقا للقوانين العامة لكنهما يرتديان اشكالا متنوعة تعود الى الظروف التاريخية الحسية والى الخصائص الوطنية لكل منها ، كما انها وفي نضالها المسلح ضد اشرس انواع الاستعمار على مر التاريخ الانساني الذي تقوده الولايات المتحدة الامريكية ، لتؤكد دورها الهام كتيار رئيسي في الثورة العالمية في توجيه الضربات الحاسمة للامبريالية بالتحالف مع النظام الاشتراكي العالمي ونضال الطبقة العاملة في العالم .

لقد تغيرت لوحة العالم اليوم عما كانت عليه ايام لينين ، غير انها قد تغيرت في ذلك الاتجاه الذي رآه لينين بوضوح منذ عشرات السنين . فهو لم ير غير المرحلة الاولية لحركات التحرر الوطنية ، ولكن مجرى التطور التاريخي قد أكد ما قاله لينين عن أهميتها وطابعها وآفاقها .

لينين والتربية

جرجي عيد كاتوريا

ان لآراء لينين في التربية ميزتين هامتين تعطيان هذه الآراء قيمة كبرى وتمنحانها القوة والتأثير البعيدين.

١ - لم يكن لينين رجل تربية مختص أو صاحب آراء نظرية مقصورة على هذا النوع من النشاط البشري. ولم يكن عالم نفس يصنف في احدى مدارس هذا العلم الحديث. اذا لو كان ذلك لدرست أقواله وطرقه ضمن ماتطرح التربية الكلاسيكية من نظريات وآراء.

ولكن لينين كان قائد ثورة ورجل دولة. وكانت العملية التربوية بالنسبة له جزءاً لاينفصل من كيان كامل هو المجتمع الذي تعمل فيه خميرة الثورة فتتقابل أوجه نشاطاته السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية وتتكامل مؤدية الى المجتمع الجديد الذي يبرر آلام الثورة ويكون ثمرة لها. فلم يبالغ لينين في قيمة التربية، كما أنه لم ينتقص من قيمتها، بل دعاها بالجبهة الثالثة بعد تدعيم القدرة العسكرية والبناء الاقتصادي للدولة. ان على التربية أن تخلق الانسان الجديد الذي يتطلبه المجتمع الجديد، مجتمع الكهرباء واستخدام الآلات والعلاقات الاجتماعية في الملكية والانتاج. فكانت أفكار لينين صرخة الى التعلم

وبداء الى تكوين الانسان الاشتراكي. ان لينين كان يعرف أنه لا يقدم آراء، وانما كان يضع حلولا. كان يشرع للتربية في زمن سارت الامور فيه بسرعة أذهلت المراقبين، وكانت التجربة الفورية هي المحك الذي سيعطي حكمه على هذه الحلول والتشريعات بالصحة أو البطلان. ومن هذه الناحية جاءت آراء لينين في التربية جديدة، وكانت رصينة وواقعية لأنها كانت مسؤولة.

٢ – لقد قدم لينين توجيهاته التربوية وبلاده، بل والعالم كله، يجتاز منعطفاً أي منعطف. انها فترة انتقال روسيا القيصرية الرأسمالية الى الاتحاد السوفييتي الاشتراكي. فترة تداعي المجتمع القائم على الاغتصاب والطبقية، ووضع الاسس للمجتمع الجديد مجتمع الاشتراكية القائم على العمل. فترة أزمة الرأسمالية وتداعي جميع القيم المرتبطة بها كنظام، وتقصير مؤسساتها عن تلبية الحاجات المتجددة للانسان. ان آفاقاً جديدة قد انفتحت أمام الانسان وبرزت حاجات جديدة، كما أن قيماً جديدة أخذت تفرض نفسها. وفي قمة هذه القيم، قيمة العمل واحترام العمل. ان هذا التحول قد وضع على عاتق التربية مهمات جساماً أبسط مافيها وجوب إعادة النظر في كل الثقافة وفرزها لأخذ الصالح منها والانطلاق منه وبه الى عالم جديد وقيم تربوية جديدة. وهل غير هذا ماتعانيه بلداننا العربية خاصة، والعالم الثالث، بل والعالم كله اليوم.

واذا لم يكن لينين رجل تربية مختص فهو لم يكن بعيداً عن عالم التربية، كما لم يكن بعيداً عن علوم العصر وتطور هذه العلوم والمشكلات التي طرحتها على الفلسفة وعلى التربية، فقد كان لينين من أسرة مثقفة وكان والده من مشاهير المعلمين.

وكان يهتم كثيراً بدراسة أوضاع المدرسة الابتدائية وابداء الرأي في كتبها ومناهجها، ويتطلع الى اصلاحها. كما كانت زوجة لينين مربية كبيرة وباحثة وموجهة أثبتت قدرتها بين أوائل المربين السوفييت في بناء وتطوير التربية في الاتحاد السوفييتي في الاتجاه الذي أراده لها لينين. وقد ساعدت كروبسكايا لينين في المجال التربوي في السنوات الأخيرة من حياته، وخاصة بعد ثورة اكتوبر. وكان لينين نفسه مثقفاً، ألم بثقافة عصره، وطالع أمهات الكتب، واطلع على كل المنجزات العلميـــة التي تحققت حتى أوائل هـــذا القرن. وكتابه «المادية والنقد التجريبي» دليل قاطع على تمكنه من معارف عصره وقدرته على نقدها وابداء الرأي فيها وتقدير اثرها في اعطاء الانسان وثقافته أبعاداً جديدة. وان كل ذلك يتطلب قيام تربية جديدة هي التربية الاشتراكية التي تتيح وحدها للانسان أن يضع كل مبتكرات العلم في خدمته.

يقول روجيه غال : ان كل مجتمع جديد لايناسبه الا تربية جديدة . ويضيف : ان العلم لم يبدل المعرفة فقط، بل بدل أيضاً طرائق تفكيرنا وعملنا، كما بدل على مقياس ضيق مفهوم الانسان نفسه وشرطه وموقفه ومسؤوليته في العالم والمجتمع . ولم يعد كافيا اعداد رجال الغد على ضوء حلول الماضي . يجب أن نعدهم للتعرف على الطابع الخاص بمشاكلهم وتزودهم بالمواقف والطرق التي تجيز لهم حلها . ان لينين أدرك ذلك وأدرك أن تبديل مفهوم الانسان لم يكن على نطاق ضيق فقط، وانما كان هذا التبديل جذرياً وعميقاً. فلم يحصر لينين التربية في المدرسة، بل رأى أن المجتمع كله سيقوم بهذه المهمة : المدرسة والبيت والمعمل والمزرعة والمجتمع بمختلف مؤسساته وقوانينه . ان كل خطوة يتخذها المجتمع في المجال السياسي والاقتصادي والادارة ستنعكس على التربية فتعمل على تنمية هذا الميل أو ذاك وستنمي هذا النوع من السلوك أو ذاك . كما لم يحصر لينين التربية في سن معينة وهو الذي رأى التربية عملية مستمرة لاتنقطع، وقد عبر أكثر من مرة عن هذه الديناميكية في التربية وجعل مهماتها تكوين القدرة على حسن التفهم للامور الجديدة ، وخلق أنماط السلوك التي تمكن الانسان من الاستجابة للظروف المستجدة ، ووعي الحقائق الجديدة . ولم يكن احساس لينين بذلك الا ارهاصاً بما لخص به السيد رينيه ماهو المدير العام لليونيسكو روح التربية في عصرنا حين قال : « انه بالنظر للتطور المستمر في حضارتنا التي يستمر فيها تجدد المعارف البشرية بحيث يضطر معه كل فرد الى تجديد معلوماته وفقاً لتقدم المعرفة الانسانية، بات من الواضح أن غاية التربية لم تعد تقوم على تحصيل مبلغ معين سلفاً وبصورة نهائية من المعارف، بقدر ما غدت تقوم على تعليم فن التعلم، بل والتعلم باستمرار، فالتربية تبدو من هذه الزاوية الجديدة وكأنها عملية لاتعرف الانقطاع »

وقد ربط لينين بين التربية وتنظيم المجتمع ، بحيث وضع التربية كوجه من وجوه الثورة ، للقضاء على كل عناصر التخلف في نفس الوقت الذي يبني فيه الشعب حاضره ويضع الاسس لمستقبله . لقد كانت التربية عنده، والمعرفة عامة ، والعلوم الانسانية ، هي الاساس لمجتمع الغد .

والآن، لنلق نظرة سريعة على النواحي التي أعطى لينين آراءه التربوية بمناسبتها :

المدرسة :

لقد نظر لينين الى المدرسة القديمة نظرة نقدية ووقف منها «موقف البناء من بناء قديم ، فمن حجارته مايصلح لتشييد البناء الجديد ومنها ما عفى عليه الزمن . » لقد كان طبيعياً ألا تتيح المدرسة القديمة العلم الا لأبناء البورجوازية لأنها كانت مفعمة بالروح الطبقية.

وفي هذه المدارس كانوا يهتمون، لابتربية الجيل الفتي من العمال والفلاحين، بل باعداده في مصلحة البورجوازية نفسها . كانت المدرسة تحشو ذاكرة الشباب بكمية من المعارف لاحد لها ، تسعة أعشارها لاتفيد، والعشر الباقي مشوه . كانت تكون الخدم الضروريين للرأسمالية، وكانت تجعل من رجال العلم أناساً ملزمين بان يكتبوا ويتكلموا وفقاً لأهواء الرأسماليين. ان من أفدح الشرور ومن أسوأ المصائب التي خلفها لنا المجتمع الرأسمالي ، القطيعة بين الكتاب والحياة العملية ، بين النظرية والتطبيق ، اذ كانت لدينا كتب تعرض كل شيء على خير مايرام . والحق ان هذه الكتب لم تكن في معظم الاوقات سوى كذباً ورياء يعطيان صورة كاذبة عن المجتمع الرأسمالي » .

أما عناية روسيا القيصرية بالتربية وإنفاقها على التعليم وموقفها من المعلمين، فقد كتب لينين متهماً عام ١٩١٣ « روسيا فقيرة حين يدور الحديث عن رواتب معلمي المدارس الابتدائية ، يدفعون لهم قروشاً تافهة . معلمو المدارس الابتدائية جياع يعضهم البرد في غرف لاتدفأ وتكاد لاتصلح للسكن .... روسيا فقيرة لاتستطيع ان تدفع للشغيلة العاملين في المعارف العامة . ولكن روسيا غنية جداً تستطيع ان تبدد الملايين وعشرات الملايين على الاعيان الطفيليين وعلى المغامرات الحربية وعلى دفع الهبات لاصحاب معامل السكر وملوك النفط ومن شاكلهم » .

واذا كان هذا صحيحاً، فصحيح أيضاً أن في أحشاء هذه المدرسة القديمة وفي بطون الكتب القديمة ومع تراكم الثقافة القديمة نشأت الحقائق الجديدة وترعرعت الحاجة الى مدرسة جديدة . فالعلم الحديث والثقافة الحديثة لم ينشأ هكذا صدفة ، ولم يأتيا من مكان مجهول ، ولم يخترعها الناس الذين يقولون عن انفسهم انهم اختصاصيون في ميدان الثقافة والعلم . ويضرب المثـل بالماركسية التي اعتمدت في نشوئها على أساس من المعارف الانسانية في ظل الرأسمالية وعلمها وثقافتها ومدارسها وجامعاتها . فقد كان لينين يحارب فكرة انشاء مدرسة جديدة ، وطرح كل مافي المدرسة القديمة . وكذلك حارب اقامة ثقافة جديدة بروليتارية دون أخـذ أي شيء من الثقافة السابقة ، ورمي كل التراث المكتسب في ظل الرأسمالية . ان معرفة الثقافة التي ابدعها كل التطور السابق للانسانية معرفة صحيحة ، ودراسة هذه الثقافة بصورة انتقادية،هما وحدهما اللتان تتيحان بناء الثقافة الاشتراكية . ودعا الى العناية قبل كل شيء لا بطبع الكتب ونشرهـا ، بل بقراءتها والتأكد من استعمالها والافادة منها . المهم هو ايجاد القراء . ودعا المعلمين الى زيادة ثقافتهم باستمرار ليبقوا دائماً مستعدين للعطاء . فما دامت الحياة في تجدد ، والعلم

يضيف الى معارفنا كل يوم شيئاً جديداً ، فسيبقى العلم بحاجة الى التزود بزاد جديد ، والا فقد ما يقدمه لتلاميذه . واذا كانت هذه القاعدة المنسجمة مع مجمل تفكير لينين تبقى صحيحة في كل زمن ، فهي تملك كل قوتها أثناء الثورات، إذ تجدد كل شيء : وانفتاح المجتمع الناهض على كنوز الحضارة البشرية ، واغترافه من الينابيع العالمية للعلم والمعرفة البشريين : ان على المعلم ان يساير التاريخ والا خلفه التاريخ وراءه ولم يعد جديراً بلقب معلم .

ودعا الى ان تقوم المدرسة الجديدة ، بدل ارهاق الذاكرة بكمية من المعارف ، بدلا من الدراسة المضنية ، بدلا من الحشو الآلي ، بدلا من الترويض القديم ، بتعليم الشباب كيف يتمثلون حصيلة المعارف الانسانية وكيف يعقلون ذلك بصورة لا يكون معها العلم شيئاً محفوظاً عن ظهر قلب بل شيئاً فكروا ويفكرون به بأنفسهم ، شيئاً يمثل الاستنتاجات التي لا مناص منها من وجهة نظر التعليم الحديث . يجب تنمية ذاكرة كل تلميذ بمعرفة الوقائع الاساسية لكي يتمثل وجدانه جميع المعارف التي اكتسبها كافة ولا يكتفي بمجرد استيعابها بل بامتلاكها بفكر نقاد يغني دفاعه بملء جميع الوقائع التي لا يمكن للمرء بدونها ان يكون اليوم انساناً مثقفاً .

ودعا لينين الى العنـاية بالمعلمين وتوفير وضع رفيع للمعلم لأ يمكن بدونه ان تكون هناك ثقافة بروليتارية ولا حتى بورجوازية ، وبعد نجاح الثورة ، وفي عام ١٩٢٣ يكتب عما يجب عمله في حقل التعليم وعن موقف الدولة الاشتراكية من المعلمين : « في الدولة البروليتارية الفلاحية ، يمكن ويجب ، بغية تطوير التعليم العام ، توفير الكثير الكثير سواء بالغاء جميع التعبات من الطراز نصف الاريستوقراطي ، او بالغاء المؤسسات التي تستطيع ويترتب علينا زمنـاً طويلا الاستغناء عنها . ونظراً لحالة التعليم التي كشفتها الاحصاءات ، ينبغي لنا أن نؤمن للمعلم الشعبي عندنا مكانة رفيعة لم يملكها في المجتمع البورجوازي ، وهذه حقيقة لا تحتاج الى برهان ، وينبغي أن نسير نحو هذا الوضع عاملين بانتظام ومثابرة على رفع مستوى المعلم فكرياً ، على اعداده في جميع الميادين لرسالته السامية حقاً ، ولكن الرئيسي ابداً ودائماً هو تحسين وضعه المادي » .

كما دعا الى تحسين اوضاع الاخصائيين العاملين في العلم فقال « ازاء الاخصائيين ، يترتب علينا الا ننهج سياسة المضايقات الحقيرة ، فان هؤلاء الاختصاصيين ليسوا خدم المستثمرين ، انما هم من صناع الثقافة الذين كانوا يخدمون البورجوازية في المجتمع البورجوازي » وقال عنهم جميع الاشتراكيين في العالم بأنهم ، في المجتمع البروليتاري ،

سيخدموننا نحن . وفي هذه المرحلة الانتقالية ، علينا ان نوفر لهم شروط حياة طيبة قدر الامكان » . ولقد وقع لينين مرسوماً بتوفير الظروف اللائقة للاعمال العلمية للاكاديمي بافلوف عالم النفس والباحث الكبير في السلوك البشري والعاملين معه . ورغم الاوضاع الاقتصادية الرديئة ، ورغم تقنين المواد الغذائية واولها الخبز ، فقد منح بافلوف والعاملون معه مميزات خاصة في هذا المجال .

ولعل احسن تلخيص لنقد لينين العلمي للمدرسة وللثقافة القديمة ومقارنتها مع ما يجب عمله في مجتمع اشتراكي ، قوله : « في الماضي كان كل الفكر البشري ، كل العبقرية البشرية ، تبدع من أجل ان تعطي البعض كل خبرات التكنيك والثقافة وتحرم الآخرين من التنوير والتطور اللذين هما الزم الضروورات . اما الآن فان كل منجزات التكنيك وكل مكتسبات الثقافة تصبح ملكية الشعب كله . ومنذ الآن لن يكتب للفكر والعبقرية البشرية ابداً بأن يكونا وسيلة للعنف ، وسيلة للاستغلال .

ربط العلم بالعمل :

كتب لينين عام ١٨٩٧ « لايمكن تصوير مثال عن مجتمع لايجري فيه توحيد العلم بالعمل الانتاجي في تنشئة الجيل الطالع . ذلك ان العلم والثقافة منفصلين عن العمل الانتاجي، والعمل الانتاجي منفصلا عن العلم والثقافة ، لن يكونا في المستوى الذي يتطلبه مستوى التكنيك المعاصر ، مستوى المعارف المعاصرة . »

وفي نفس المقال يقول « من أجل دمج العمل الانتاجي العام بالتعليم العام، يجب ان يدعى الجميع الى المشاركة في العمل الانتاجي».

وفي نفس السنة عارض مشروعا يدعو الى توفير اسباب التعليم لابنـــاء الفلاحين وبناتهم ، ويقوم على انشاء مدارس في القرى، تقتطع لها أراض واسعة لسد نفقاتها ، ويشارك الأغنياء في دفع المال عن ابنائهم ، ويدفع أبناء الفقراء قسطهم بالعمل في هـــذه المدارس وصيانتها . عارضه بمشروع المدرسة الالزامية العامـــة الواحدة القائمة على العلم والعمل ، حيث يتعلم جميع التلاميذ ويعملون . ولقد رأى ان التعاون بين ممثلي العـــلم العمال ، هو وحده الكفيل بازاحة نير البؤس والامراض والادران الى الابد . هذا أمر سيحدث . ولن تقدر أية قوة من قوى الجهـــل على الثبات امام وحدة ممثلي العلم والبروليتاريا والتكنيك .

وعن هذا المفهوم عبرت المدرسة، التي دعا اليها وعمل على انشائها ووضع لها الأســـ

والمقدمات . فأكد على مفوضية الشعب لشؤون التعليم ، بأن تطبق التعليم البولتيكنيكي . وبدأ هذا التعليم دون ان يكون هناك تجربة سابقة في هذا الميدان ، وفي ظروف الخراب الاقتصادي الشامل . فنظمت مدارس تجريبية ، بدأ فيها هذا التعليم بشكل اولي بحيث يعتمد الاطفال على عملهم الشخصي في ورشات التجارة والخياطة والتجليد ، وكانت هذه البداية مع بساطتها دليلا على صدق الدعوة الى ربط التعليم بالانتاج والعمل .

وفي عام ١٩١٧ وضع لينين برنامج الحزب ، وصاغ البند الخامس الخاص بالمدرسة على النحو التالي « التعليم العـام والبولتكنيكي كلاهما الزامي مجاني ، وذلك لجميع الاطفال حتى يبلغوا سن السادسة عشرة ، مـع دمج التعليم على نحو وثيق بالعمل الانتاجي الاجتماعي » .

قال احد المؤيدين لهذه المدرسة : « ان أنواع النشاط النافعة اجتماعيا يجب ان ينظر اليها في الوقت الحاضر على انها اهم ما يدور في علم التربية السوفييتي ، لانهـا تمثل ادق واظهر السمات التي تفرق بين المدرسة السوفييتية والمدرسة القيصرية ، وبينها وبين اية مدرسة معاصرة اخرى . فالمدرسة السوفييتية يجب ان تكون لامعة ووحيدة في نظامها مثل الاتحاد السوفييتي الذي ابدعها . وهي قد خلقت في عصر مسح هائل لبرنامج يهدف الى بناء البلاد ، وكذلك يجب ان تشترك بنفسها في هذا البناء . او بمعنى آخر ، يجب ان تكون التربية عاملا رئيسيا في تحويل الانسان والمجتمع » .

يقول الدكتور وهيب سمعان في كتابه المناهج المقارنة :

« وكان لينين اكثر المعبرين عن هذا الاتجاه . فذكر في خطاب له امام رابطة الشيوعيين الصغار في عام ١٩٢٠ بأن الفجوة بين الكتاب والحياة العمليـة من اسوأ الشرور والكوارث التي ورثناها عن المجتمع الرأسمالي القديم . ثم حذر المجتمعين بأنه بدون العمل فان المعرفة عن الشيوعية التي يحصل عليها الناس من النشرات لا قيمة لها مطلقا لانها تجعل الثغرة القديمة بـين النظريات وتطبيقاتها امرا مستمرا . ولقد أوضحت برامج المدرسة التي اصدرها المجلس العلمي للدولة ١٩٢٣ الموضوعات والطرق الجديدة التي تتبع في المدارس ، كما اوضحت الاسس الجديدة التي يقوم عليها توجيه التلاميذ وذكرت ان اطفال العمال والفلاحين يذهبون الى المدرسة لالا يرفعوا انفسهم فوق منزلتهم أو الصعود فوق طبقتهم كما كانت العادة في مدرسة ماقبل الثورة ، بل ليصبحوا عونا ورفقاء للعمال والفلاحين الثائرين . كما ذكر في البرنامج ايضاً ان أول واجب للمدرسة هو مساعدة الاطفال على اجادة العمل القيم اجتماعيا والملائم لقوامهم ومساعدتهم على الاشتراك بصفة فعالة في مثل هذا العمل» .

وكان لينين قد أصر عام ١٩٢١ على ربط النشاط المدرسي بالقضايا الاقتصادية العاجلة التي تهم الجمهورية او المنطقة او المكان المقصود . وتساءل هل من الملائم الجمع بين النشاط المدرسي وممارسة وظيفة من الوظائف ؟ ثم أجاب : (يبدو ان هذا ليس ملائماً وحسب ،بل ضروري ايضاً). ورفض الفصل بين الدراسة والعمل على إنه عدوى حملها البيروقراطيون عن انظمة الحكم في اوربا الغربية.ودعا الى الوقوف في هذه الناحية موقفاً ثورياً يتجاوب مع المواقف الثورية في النواحي الاخرى .

محو الامية والتربية خارج المدرسة :

كان لينين يؤمن بالموضوعة التاريخية القائلة إن « كل ثورة ملزمة بأخذ الاشياء وهي في الحالة التي تجدها عليها . وعليها إن تكافح الشر الاشد تفاقماً بالوسائل الموجودة». وهكذا كان على الثورة التي قادها لينين إن تبني المجتمع الجديد بالمواد التي لديها،وبالناس الذين عندها . فهناك المهمة العاجلة : بعث الصناعة والزراعة على أسس حديثة تنطبق على آخر منجزات العلم، على أساس الكهرباء. والكهربة لن يحققها الأميون، وانما تتطلب أكثر من المعرفة الأولية.ولا يكفي أن نفهم ماهي الكهرباء ،بل ينبغي أن نعرف كيف نطبقها عملياً في الصناعة والزراعة وفي مختلف فروعها . كل ذلك يجب أن يتعلمه الشعب بنفسه ، ينبغي أن يعلم لكل الجيل الكادح الصاعد . كان لينين يقول : « كان من الأسهل علينا لو أن المجتمع السابق قد ترك لنا علوماً متقدمة أكثر أو مدرسة أرقى ، ولكن علينا أن نبدأ بما هو موجود » .

بدأ لينين العمل لمحو الامية باصدار مرسوم يلزم الذين تتراوح أعمارهم بين ٨-٥٠ عاماً بتعلم القراءة والكتابة ، ثم تأسست لجنة استثنائية لتصفية الأمية في عامة روسيا خولت صلاحيات خاصة ، وكان بوسع اللجنة أن تستخدم كل شخص تحتاجه ، كما كان بوسعها أن تحيل الى المحاكم كل شخص يعيق هذا العمل العام .

واعلن لينين ان التوفير يجب أن يجري على حساب أية مؤسسة كانت ، باستثناء تعليم الشعب . وكان يرى في اتحاد الشبيبة خير من يزحف لتنفيذ هذه المهمة ، فقد كان يضم ٤٠٠٠٠٠ عضو. ورأى ان اكبر مهمات الثورة التعبئة العاجلة للمتعلمين ، والنضال لمحو الامية .

ويهمنا هنا ان نسجل نقطتين : اولاهما ان العمل الفوري الحاسم لمحو الامية دون التريث لانتظار تخريج المعلمين وبناء المدارس وايجاد الادوات ، بل بتدبير الامور

بواسطة الموجود من الادوات والامكنة والنـــاس المتعلمين واشباه المتعلمين ، لم يتم إلا بوضع المهمة بكل ابعادها امام الشعب صاحب المصلحة ليأخذ بيديه مقتنعاً بأنها مهمة فأدى مساهمته الجدية مدركاً الهدف والابعاد والصعاب. فكنت ترى في بيت من كل عشرة بيوت سراجاً يضيء حتى الصباح ، وحوله حلقة من المتطلعين الى العلم الثائرين على الامية .
والثانية هي ربط التعلم بالحياة العامة للشعب ، او ما يسميه علماء التربية اليوم بمحو الامية الوظيفي . ولما كان ربط التعلم بالحياة مسيطراً في كل تفكير لينين وآرائه ، فقد كان محو الامية يجري بطريقة يشعر معها الامي انه يعالج مشكلاته الخـــاصة ، ويعبر عن مشاعره وامانيه . لقد كان المتعلمون يتعلمون القراءة والكتابة جنباً الى جنب مع مناقشة واقعهم الاجتماعي والتعبير بحرية عن افكارهم . وكان هذا يشعرهم بالحاجة الى الكلمات التي يحملونها آراءهم . فأقبلوا على تعلم قراءتها وكتبوها ، وهم فرحون لأن افكارهم قد وجدت الوعاء الذي يحملها . فسرّع هـــذا من تعلمهم وقربهم من امتلاك الوسيلة اللغوية للفهم والتعبير ، وفتح امام الكثيرين منهم ابواب المعاهد والجامعات ، فأصبح من الاميين سابقـــاً علماء ومدرسون ومربون مشهورون .

لقد كان عنوان كتاب التهجي المطبوع عام ١٩٢٠ (فلتسقط الامية) . وهذا نفس اسم جمعية مكافحة الامية . وكانت اول عبارات احد الكتب الجديدة المطبوع على ورق الصر في مطبعة الجيش « نحن لسنا عبيداً ، والنصر لنا ، نحن نحمل الحرية الى العالم . تحالف العمال والفلاحين لا يقهر » . انها العبارات التي فاه بها احـــد الجنود المقبلين على التعلم امام معلمته ، والتي تصور بجلاء كيف كان الشعب يضع الجهل والامية في صف الاعداء المشخصين له ، وكيف يقبل على مكافحة هـــذا العدو بكل مايملك من قوة . لقد كانت كروبسكايا تصف هذه الطريقة ، بأنها طريقة ربط التعليم بالحيـــاة التي كان لينين يطلبها على الدوام .

ان ما يؤكد تقبل الشعب لمحو الامية كمهمة آنية وملحة ، هذه الوصايا الاثنتاعشرة التي كان على العمال الذاهبين في اجازات الى قراهم ان يراعوهـا . وتتلخص في ان يقوم العامل فور وصوله بالاستفسار عن وجود خلية لجمعية (فلتسقط الامية) وتسجيل اسمه فيها ، وان يقوم بجزء من العمل . وفي حالة عدم وجود مثل هـــذه الخلية ، العمل على انشائها مع المؤسسات المختصة ، وتسجيل اسمـــاء الذين اتموا الدراسة في مدارس الاميين واشباه الاميين وتقسيمهم الى جماعات تتألف كل منها من (٣ - ٥) أفراد ، وتعيين عضو نشيط لكل جماعة يتابع تثقيفهم ، ويقرأ لهم الكتب والجرائد ، وتأمين الجرائد لجميـــع

اشباه الاميين ، وتنظيم الارشاد لهم ، ونقل اسمائهم لكل المؤسسات التثقيفية في القرية ، والعمل على تنظيم سهرات ضد الامية ، ومساعدة موزعي الكتب وقرائها في مراكز اجتماعات الفلاحين ، والاشتراك في تنظيم النزهات والجولات السياحية ، والقيام بدعاية واسعة للانتساب الى جمعية (فلتسقط الامية) .

انه البرهان القاطع على تحالف العمال والفلاحين ، كما انه دليل على عدم جـدوى الاكتفاء بمحو الامية ، وضرورة متابعة التعلم والتثقف ، وان يكون ذلك مع الجماعة في المجتمع . فلقد كان لينين يريد ان يكون عمال المدن ، المنحدرين من الارياف ، رسل علم وثقافة الى اريافهم ، ناشرين افكار واخلاق المجتمع الجديد بين السكان ، خلافاً لما كان يجري في الدولة البورجوازية من بذل الجهد لتخبيل عمال المدن ، وباستخدام جميع المنشورات المطبوعة على نفقة الدولة على نفقة الاحزاب البورجوازية والقيصرية . ولم يقف لينين موقفاً يائساً كما فعل روجيه بابسون سنة ١٩١٤ ، عندما قال واصفاً ما يجري في الولايات المتحدة « مهما اصابت الحركات العمالية من نجاح ، ومهما تعددت وجوه هذا النجاح، فانها —أي الطبقة العاملة— لم تفلح في توجيه تربية اطفالها . ان رأس المال مايزال يُعِد الكتب المدرسية ويسيطر علمياً على النظم التربوية في العالم » . بل استحث لينين العمل قائلا : « اننا لا نكاد نفعل شيئاً من اجل الارياف خارج ميزانيتنا الرسمية، او خارج علاقاتنا الرسمية . يقيناً ان العلاقات بين المدينة والريف ترتدي بحد ذاتها — وترتدي حتماً— طابعاً آخر تماماً . فالتأثير الذي كانت المدينـة تمارسه على الريف في النظام الرأسمالي كان يفسد الريف سياسياً واقتصادياً واخلاقياً وجسدياً ، اما عندنا فان المدينة تبدأ تلقائياً في ممارسة تأثير معاكس اطلاقاً على الريف » . ودعا الى عدم الاكتفاء بما يجري تلقائياً ، بل يجعل ذلك عملا منظماً مدروساً واعياً دائباً . ان دعوة لينين هذه تتضح اكثر اذا قارناها بما دعا اليه عميد كلية المعلمين في جامعة كولومبيا في وقت قريب من هذا ، عندما طـالب بنوع من التعليم الريفي يخلق فلاحاً سعيداً قانعاً بدلاً من التعليم الذي يرسل اولاد الريف الى المعامل ويسلمهم الى رحمة اتحادات العمال وربما قادهم الى الاشتراكية والفوضوية . ان الخوف من الطبقة العاملة ومن نضالها يدفع الرأسمالية الى فصل الريف لتكبيله وابعاده عن حليفه الكبير ملوحة له بأن كل ما يحمله العمال الى الريف والى المدارس هو الفوضى وتدمير الاخلاق والقيم. ولكن من قلب المجتمع الرأسمالي -من قلب الولايات المتحدة ايضاً —يأتي الرد على لسان المعلمة هيلي امام الجمعية الوطنية للتربية سنة ١٩١٤ لتقول : « ان الفوضى التي يجب أن يخشاها الامريكيون، هي الفوضى التي ترسل ملاك سكك الحديد واتحـادات الشركات الكبرى الى الهيئات التشريعية ودوائر الضريبة ، نعم وحتى الى منصة القضاء » .

وكانت تجد الكثير من الكبرياء في المساعدة التي قدمها المعلمون النقابيون في شيكاغو في الكشف عن الاختلاس المقترف من قبل الشركات الخمس للخدمات العامة ، وإرغامها على إعادة بعض الملايين المسروقة .

ولم ينظر لينين قط الى مسألة الامية على انها قضية ثقافية صرفاً ، فقد طرحها بوصفها من قضايا النضال الطبقي والانتصارات الاولى التي تمت في الزحف في سبيل الثقافة وتصفية الامية قد أحرزت في نضال عنيف ضد اعداء الاشتراكية الذين توسلوا بكل طريقة لاعاقة قضية الثورة الثقافية . وقد طالب لا بتصفية الامية فحسب ، بل برفع مستوى الثقافة الى درجة كبرى . فالتعلم ليس غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة تمكن الانسان من فهم طبيعة عصره وطبيعة المهمة المنوطة به ، وتجعله قـادراً على تفهم الامور وقادرا على المساهمة في تنفيذ الواجبات .

التربية قبل المدرسة ، والمرأة :

اما عن الأطفال ، فقد كان للينين عناية خاصة بهم ، اذ كان يرى فيهم بناة المجتمع الجديد ، وهم وحدهم القادرون على تقبل المستقبل وحمل صفات الانسان الاشتراكي ، والتعبير عن ذلك المجتمع الذي نشهد نحن ولادته . ولم يخف ذلك حينا قال « أقصى ما يمكن ان نقوم به نحن الكبار ، ان نهدم المجتمع القديم وان نهيء الأرض الصالحة لقيام المجتمع الجديد». لذلك نرى من أركان التربية عند لينين – وعند كل المربين الاشتراكيين – العناية بالاطفال واحاطتهم بجو من الود والرعاية وتنشئتهم على العادات الاشتراكية في السلوك والعمل ومختلف أوجه الحياة . انهم الرياحين التي ستملأ الحقل بعد ان تقتلع الثورة أشواكه .

والعناية بالأطفال الصغار وايجاد الجو الملائم لنموهم الجسمي والفكري والخلقي ، جعلت للينين عناية خاصة برياض الاطفال ودور الحضانة . فلقد أكدت كروبسكايا ذلك وتابعت عمل لينين في انشاء هذه المؤسسات وتنشيطها .

وقد انعكست هذه العناية على الاطفال من جهة فوجدوا في الدولة الاشتراكية ما لم يجدوه في أي مكان آخر من تكريم وعناية ، وتلقوا من المعاملة المتساوية ما لم يحلم به أطفال أي مجتمع طبقي . وكانت المساواة بينهم من حيث واقعهم الاجتماعي أولاً ، فلم يعد ابن العامل أو الفلاح يجد ما يخجله أو يثير حسده عند ابن الغني ، فكلهم سواء من حيث المعاملة والقيمة الاجتماعية ، وهذا ما يسهل تكوين العادات الاشتراكية وقيام السلوك الجماعي . ثم

من حيث الجنس، فقد تربى الاولاد على ان قيمة الانسان لا في كونه رجلاً أو امرأة، بل فيا سيعمل وفيا سيقدم لخير الوطن وخير المجموع .

كما انعكس ذلك من جهة ثانية على المرأة في المجتمع . فقد وجدت المرأة نفسها، والمرأة العاملة بوجه خاص ، لأول مرة وقد تحمل المجتمع عنها مهمة تربية الأطفال وتهيئة الخدمة المنزلية في المطاعم الجماعية . فوجدت السبيل والوقت لتشارك الرجل في مهماته كند له ولتخرج من سجنها وتتخلص من مهانتها . ولم تكن هذه الفائدة في مصلحة النساء فقط، بل كانت في مصلحة المجتمع ككل . يقول لينين : « ان مساواة كاملة في الحقوق بين الرجال والنساء قد تحققت تشريعياً ، وتطبق تلك المساواة في كل الميادين . اننا نشرك النساء في الحياة الاقتصادية وفي الادارة والتشريع وقيادة الدولة . اننا نفتح لهن أبواب المدارس ومؤسسات التعليم ودوراً للأطفال الرضع وكل المؤسسات التثقيفية، ونعمل بجد لتنفيذ مطاليب برنامجنا كي يقوم المجتمع بالمهام المنزلية والتثقيفية للاسرة المنفردة. بهذه الطريقة تتحرر المرأة من العبودية المنزلية القديمة ومن تبعيتها للرجل ، وتتوفر له بها كل الامكانيات لنشر نشاطها في الحياة الاجتماعية حسب مؤهلاتها » .

وقد أثبت التطور صحة آراء لينين في التربيـــة ، وبالتالي تفهمه لمبادىء التربية الاشتراكية الحقة وللخطوط الأساسية للتطور المقبل . فان ربط الفكر بالعمل ، أصبح أمراً مفروغاً منه ومتفقاً على ضرورته من جميع مدارس وممثلي التربية الحديثة ، وكذلك ربط التربية بنواحي المجتمع الاخرى . فقد دعا المجتمعون في دورة موناكو لليونسكو عام ١٩٦٧ الى مزج التربية بالتخطيط العام، وقيام الدولة بالمبادرات الاساسية في التربية، والى قيام ثقافة أصيلة تستجيب في وقت معاً الى اماني الأهالي العميقة والى متطلبات العالم الثالث .

وجاء في التوصية رقم ٥٤ من توصيات المؤتمر الدولي للتعليم العام في جنيف عام ١٩٦٢ ما يلي : « في البلاد التي يوجد فيها تخطيط شامل لجميع النشاطات في الدولة ، ينبغي ان يلخص التخطيط التربوي في محتوى الخطـــة أو في منهاج التنمية الاقتصادية والاجتماعية ،وان يكون الحقل المخصص للتربية في هذا المخطط متناسباً مع الدور الذي يطلب من التربية ان تلعبه في التنمية».

كما أصبح محو الامية الوظيفي – القضاء على الامية مع قيام المتعلم بحل مشكلاته واكتساب الخبرات في حقل عمله – أصبح طريقة توصي بها اكبر منظمات التربية في العالم. ففي تقرير عن اجتماع اللجنة الاستشارية لليونسكو ١٨ – ٢٦ آذار ١٩٦٨ نقتطف

ما يلي : « لقد تقدمنا مع محو الامية الوظيفي نحو الانسان الواقعي ، بحيث ان الفرد بوصفه منتجاً هو الذي يصبح هدف العملية التربوية . وبعد هذا الأمر اعترافاً بالقيمة الأولية للعمل في المفهوم الحديث الواقعي للثقافة. ومحو الامية -خلافاً لما يزعم أحياناً- ليس في جوهره مجرد عملية تمكن من الحصول على وسيلة للتواصل، كما انه لا يعني مجرد الحصول على طريقة جديدة للتعبير؛ انه يعني الانتقال من نمط حضاري الى نمط حضاري آخر. من الحضارة المنقولة وما يواليها من تقاليد واعراف ، الى الحضارة المكتوبة وما يصحبها من مراجع واستحداثات وأسس للحقوق مختلفة وطرائق عقلية في الادراك الحي والتفكير . وهو في الوقت نفسه انتقال من مجتمع مغلق على نفسه ، الى مجتمع منفتح على العالم . ولهذا التطور نتائج لا تحصى على المدى القصير في كثير من الحالات ، ولا حصر لها على المدى المتوسط والطويل في سائر الحالات » .

ويبدو بتعبير آخر ان محو الامية لا بد -لكي يؤدي رسالته بصورة كاملة وفعالة- من توثيق أواصره وتوسيع علاقاته مع التربية المستديمة ومع المؤسسات الاجتماعية التي يمكن ان تؤدي خدمة في هذا المجال . ان قوانين البلاد عامة وطرق الادارة وفرض الضرائب وجبايتها والخدمات الاجتماعية ونظام التوفيق وغيرها، يمكن ان تكون مساعدة لاستمرار التعلم وازدياد ثقافة المواطن وتنمية سلوكه الاجتماعي، ويجب ان يلحظ هذا كله في الخطة العامة للبلاد .

يقول لينين : « **ليس يكفي القضاء على الأمية ، فالمسألة هي ان نبني الاقتصاد. وليس يكفي لهذا الغرض تعلم القراءة والكتابة . يجب ان نعمل بحيث تكون معرفة القراءة والكتابة اداة لتحقيق نهوض في الثقافة، ويصبح الفلاح قادراً على تحسين اقتصاده ودولته** » .

ويقول أيضاً : « من أبرز مظاهر الثورة الثقافية وأعمقها جوهراً ، الانعطاف الذي تحدثه في وعي الناس ، لذلك ينبغي الا تغيب عن نظر القيمين المسؤولين عن التربية السياسية في معالجاتهم التفصيلية ، تلك المهمة الرئيسية الأولى للثورة الثقافية وهي المعاونة على تربية الجماهير الكادحة وتثقيفها بحيث يتغلبون على العادات القديمة ورتابة السلوك المتواتر الموروث عن النظام القديم » . لقد كان يدرك خطر العادات القديمة وما يضعه السلوك القديم من عطالة في طريق تربية النشء ، فدعا الى محاربتها وافساح المجال أمام السلوك الجديد كي ينمو فقال : « لقد درسنا بدقة بذور الجديد ، ومنحناها

أكبر قسط من الاهتمام . هذه النبتات الضعيفة ، توسلنا بمختلف الأشكال الناجحة لكي تنمو » .

أما عن موقف أصحاب العلم – أصحاب الاختصاص وحملة ثقافة العصر – فقد بدأ يتحقق حلم لينين بأنهم سيقفون الى جانب الطبقة العاملة في صراعها المرير من أجل تحويل العلم الى سلاح في يد الانسان، ولخدمته وسعادته، بدلاً من تركه مسخراً لخدمة الأغنياء في المجتمع ، سالباً الفقراء والكادحين شخصيتهم . تدل على ذلك هذه الكتل الكبيرة من طلاب الجامعات في انحاء العالم الرأسمالي ، ممن يضربون ويثورون محتجين على الطرق المتبعة في الجامعات، على التدريس والمناهج، بعد ان شعروا بالفارق الكبير بين قصدرة العلم المتزايدة من جهة وما يحصلون عليه هم عند تخرجهم من جهة ثانية . انهم يرون انفسهم عمالاً حقيقيين ، يبيعون قوة عملهم في الادارة الواسعة للانتاج والتكنيك التي لا تعرف منهم الا عدداً قليلاً جداً وهم في كل الحالات من أبناء الطبقة الميسورة .

ان توصيات لينين بالوقوف من الامية كالموقف من عدو مدمر وتسخير كل القوى الخيرة في المجتمع للقضاء عليه، أصبحت دستوراً لكل ثورة تريد حلاً جذرياً لمشكلة الثقافة في المجتمع. ولقد أعطت احسن الثمار، حيثما طبقت فخلقت مجتمعاً جديداً .

ولقد كان لآراء لينين بمجملها الأثر الحاسم في الاتحاد السوفييتي، وكانت الاستجابة لها كاملة . وكان ولا يزال القائمون على التربية هناك يقتبسون آراء لينين ويعملون على تطبيقها ، فسارت التربية شوطاً كبيراً استطاعت معه ان تفاخر بأنها خلقت الانسان الاشتراكي الذي تطلع لينين اليه. ومن مراجعة القرارات التربوية الهامة والتاريخية في هذه الدولة المتقدمة، نجـد أنه في كل مرة تبحث بعمق المشكلات التربوية كان يشار فيها وبعمق ايضاً الى آراء لينين، وخاصة الى ربط المدرسة بالمجتمع والكتاب بالحياة ،كالقانون الخاص الذي صدر عام ١٩٥٨ بصيغة « توثيق الصلة بين المدرسة والحياة » . ان المدرسة السوفييتية والعلم السوفييتي والثقافة السوفييتية، مدينة للينين بقدر ما كان لينين معبراً عن التربية الاشتراكية وبقدر ما كان جاداً في تسليح الاشتراكيين بالعلم والمعرفة المطلوبين لانسان لا يتطلب منه ان يحل مشكلات الماضي والحاضر فحسب ، بل وان يغزو المستقبل باستمرار .

ان التربية البيئية تبقى دائماً التربية ، وتبقى السلاح الفعال بيد الاجيال الثائرة على تخلفها المتطلعة الى آفاق جديدة. وهذا شأن مجتمعنا العربي، فاذا كانت الامية لاتشكل نسبة مثل نسبتها في روسيا القيصرية فان مفهوم الأمي قد تغير، لأن الحد الأدنى من المعرفة المطلوب لكي لايكون الانسان أمياً قد ارتفع باستمرار، وهو اليوم أعلى منه بكثير مما كان مطلوباً في بداية القرن كما ان الافق المفتوح امام حضارة الانسان قد أصبح أبعدمدى والمعارف البشرية قد تضاعفت أكثر من مرة، وهي تتضاعف كل ثماني سنوات كما يقدر بعض المفكرين، فاذا كنا نتطلع الى التخلص من تخلفنا ، واذا اردنا ان نعمل وبشكل معقول على وضع الأسس الصالحة للانطلاق في نفس الوقت نحو الآفاق العالمية للحضارة الحالية ، فلابد من اعادة النظر في مدرستنا للابقاء على ما هو صالح فقط وحقنها بدم جديد من هذا العصر وربطها بالمجتمع بشكل صحيح ووثيق وتزويدها بالمعلمين الذين يرون مصلحتهم في مصلحة تقدمها واغنائها ، الرابطين لصيرهم بمصير شعبهم وتعلمه . ان اعداد المعلم الاشتراكي لايتم بدون انشاء مكتبات حسنة للمعلمين وتزويدها بخبرة ماقدمته التربية الاشتراكية من دراسات ومناهج وبكمية كافية مما الف المربون الاشتراكيون من كتب وما قيموا من تجارب ، وكذلك بالاحصاءات والمراجع عن وضع التربية في بلادنا وفي بلدان اخرى مشابهة ليكون المعلم على معرفة بواقع التربية وآفاقها ومهامها . ولابد من تسهيل وصول هذه الأمور الى المعلم ومساعدته على زيادة اطلاعه العلمي والثقافي والسياسي وتسهيل ايصال آرائه الى المراجع المختصة والى النشر ،ليشترك المعلمون في تقييم تجاربهم الخاصة التي هي خبرتهم الحقيقي والأول . وتأمين الوضع المادي اللائق بهؤلاء المعلمين،وانشاء دور الحضانة الكافية والحسنة لابناء المعلمات والموظفات مما يعفين من أكثر مشاغلهن اضاعة للوقت، وان تكون شروط هذه الدور المادية معقولة ومتناسبة مع الدخل كما يجب تنظيم التربية خارج المدرسة ، بحيث تكمل عمل المدرسة وتكون امتداداً له، والتخطيط لجميع المؤسسات التي لها علاقة بالتربية كالمراكز الثقافية والسينما والمسرح والصحافة ووسائل النشر وغير ذلك ، بحيث تؤدي عملها متكاملة وبحيث تساعد على تكوين انماط السلوك المطلوبة في المجتمع الاشتراكي . كما يجب العمل على تأمين اللوازم المدرسية من قبل مؤسسات الدولة ،وبشكل موحد . ان ذلك يتمم ما تقوم به الدولة من توزيع الكتب الموحدة للجميع والمجانية للابتدائي . يجب وضع خطة لانتاج وسائل

التعليم المعينة محلياً وتعميمها على جميع المدارس. اننا أحوج ما نكون الى وضع خطة زمنية للقضاء على الأمية وطرح هذه الخطة كمهمة عاجلة وملحة، وادخال التربية في التخطيط العام، والى وضع تشريعات جديدة للمدرسة وللجامعة وللقائمين عليها تكون متلائمة مع الغاية التربوية والاتجاه العام نحو الاشتراكية وتكون بسيطة باجراءاتها ومفهومة من الجميع. اننا لا ننكر أن شيئاً ندعو اليه قد تحقق، ولكن الذي نراه ان يكون كل ذلك مطروحاً كمهمة عاجلة. كما يجب ان يكون لعملنا في كل النواحي مقياس صحيح نسعى الى تقييم العمل والعاملين بموجبه، وان نستخدم كل القوانين والمؤسسات وسياسة التوظيف في سبيل ايصال المستحق الى ما يستحق وترسيخ المبدأ الاشتراكي الاساسي في اذهان الشعب: لكل انسان بقدر ما يعمل.

لينين والإنسان

ولينين الإنسان

حنا مينه

خمسة وثلاثون عاماً مضت على هذه الحادثة ، ولا تزال في الذاكرة طرية ، ندية ، معطرة بنضح الصبا ، مطرزة بالرجاء الذي أيقظته في حينا ذاك ، الهاجع على قنوط من العدالة ، ويأس من تبدل الأحوال .

الى الجنوب الغربي من مدينة اسكندرون ، في لوائنا السليب ، كانت منطقة سبخة واطئة عن مستوى المدينة ، ذات رائحة نتنة كالتي لمعامل الاسمنت ، ملأى بأدغال « البردي » الصغيرة الإبرية كالمسلات . وكانت الأدغال ترتفع حتى منتصف قامة الانسان ، فيأتي الحلبيون في الصيف ويحصدون الطويل منها ويجففونه لصنع الحصر .

ونحن الذين طردتنا المدينة ، أو جئناها من أصقاع شتى ولم نجد لنا فيها مكاناً ، احتوتنا هذه المنطقة السبخة التي كنا نسميها « الصاز[1] » ، وأنزلتنا بين

---

(١) SAZ كلمة تركية : مستنقع .

أدغالها النامية في مياه مالحة ، مما يخلفه البحر عند انحساره في الصيف ، أو تنزّ به الأرض المستنقعية على مدى العام . واعتبرتنا ، هكذا ، نوعاً اضافياً من الحشرات والزواحف التي ترتفع فيها ، وجيراناً أدنى مرتبة من البهائم التي كانت تعيش على التل ، حيث تطرح قمامة المدينة ، فتنبش فيها الخنازير ، وتزاحمها ، نحن ، في النبش ، للعثور على ما يصلح للأكل ، أو الاستعمال ، أو الانتفاع بثمنه الزهيد من أصحاب « الروبا بيكا » .

سقوف أكواخنا كانت من قش يشبه الحلفاء ، وجـــدرانها من قصب وطين . وحول الأكواخ كنا نحفر الخنادق ، لتصريف المياه النازة من الأرض ، أو المتخلفة عن الأمطار ، وفي هذه الخنادق كانت تسبح الأفاعي ، والضفادع ، فاذا خرجت دخلت الأدغال ، وهناك يتعالى النقيق في الليالي ، وتنبعث صيئات مديدة ، حادة ، محزنة ، كسكاكين ، صدئة ، على بلاطات القلوب ، ترسلها الضفادع كنداءات استغاثة وهي في أفواه الأفاعي التي تبتلعها على مهل .

ولم تكن بين البيوت أشجار . لم تنبت ، ولم تزرع وقد لاتعيش . ففي الشتاء تغمر المياه الصلصالية الأرض حتى تبلغ العتبات ، وتغطي الأحجار التي نضعها لنتنقل عليها ، ويضطر الآباء والأمهات لحمل أولادهم على الأكتاف ، اذا أرادوا التزاور ، ولم يكن أحد منا قد عرف ان في أجزاء اخرى ، شقية ، من العالم ، اناساً مثلنا ، يعيشون حياتهم في القوارب ، وينتقل بعضهم الى بعض على متونها ، اضافة الى أن القوارب لاتنفع في المستنقعات الصلصالية عندنا ، ولا يبقى لنا الا الغوص فيها حتى الركب ، وهذا ما كنا نفعله .

من أجل ذلك كانت الشجرة ، وخاصة في الصيف ، شيئاً عزيزاً علينا ، ولحسن الحظ ، كانت ،على المرتفع المجاور ، عند مدخل المدينة ، وبمحاذاة الطريق

العام، حديقة عامة، منشية، تتسامق فيها أشجار الكينا الضخمة، كغابة من الرحمة، نفيء الى ظلالها، ونلعب حول جذوعها، وننتفع من أوراقها فنغليها ونشرب ماءها لمكافحة الملاريا التي كانت تفتك بنا. عدا ذلك كانت لهذه الأشجار بعض الفوائد وبعض الحكايات. ففي ظلها يلتقي فتى وفتاة، ووراء الجذوع تتخطف قبل، وعليها تنقش أسماء وذكريات. وعلى الغصون الثخينة، يعلق الذين ضاقوا ذرعاً بالحياة حبالهم، ويشنقون أنفسهم، وتحت الشجرة العتيقة، والضخمة جداً، انتحر «سليمان الجامد» ببندقية صيد، حشاها برصاص سكبه بيده، وتحتها زعم «ابن السوف» ان جنية تخرج له في أنصاف الليالي، فتجلس في حضنه، أو ينام على ركبتها، وشعرها الأسود، الطويل، يغطي وجهه، وأنها ستحمله يوماً الى مملكتها، فيتخلص من الحي ويسعى لأخذنا جميعاً، نحن الباقين، الى حيث لافقر ولا صلصال.

على هذه الشجرة العتيقة، الجارة، حفر رجل اسماً غريباً بحروف كبيرة، عميقة. كان قد جاء الحي من مكان مجهول، وسكن في كوخ محمود الشعلة الذي يعمل منظفاً في سكة الحديد، وبعد ذلك اعتقله البوليس، وفتش الكوخ وصادر كتباً ونشرات، وتحرى وسأل عما كان يفعله الرجـــل الغريب، وتتبع كل حركاته، حتى وصل الشجرة الكبيرة، العتيقة، ووجد ثمة، على الجذع، الاسم المحفور: لينين.

لفظها البوليس الفرنسي - وكانت تلك أيام الانتداب - برطانة حاولنا تقليدها زمناً. ربما كانت تلك المرة الاولى التي يدخل الفرنسيون حينا. ولقد تدافعنا، كباراً وصغاراً، لنرى كيف يكون الفرنسي وكيف يتكلم، وقد أشار الى الاسم المحفور عالياً على الجذع بكرباجه، وانصرف وهو يصدر أوامر

لم نفهم منها شيئاً . وفي ذلك اليوم أوقف المسؤول عن المنشية ، وهو أرمني عجوز اسمه كره بيت ، وجاء حارس مع سلم وصعد الى الجذع فمحا الاسم بتشويهه ، لكننا نحن الصغار ، كنا قد حفظناه ، وطافت الحي ، ذلك المساء ، حكايات عجيبة ، عن الاسم الذي محي ، والذي صاحبه ، في بلد لاندري أين ، انزل الملك عن العرش ، وفتح قصور الأغنياء للفقراء ، ووزع عليهم الأراضي والخيرات ، ورفع الظلم عن الناس .

وقام الرجال ، في الظلمة ، الى الكوخ « المشموس »[1] وطافوا حوله . لم يقترب منـــه أحـد ، ولم يجرأوا على دخوله ، لأن عجوزاً أكد أن الـبلة سيكبسونه ، وانهم ، قد يكونون مترصدين بين الأدغال ، لمعرفة من يتردد عليه . وأقسمت امرأة انها رأت بوليساً ، بثياب مدنية ، يدخل الكوخ ويغلق الباب عليه . ونقل هذه الأقاويل « اسبيرو الأعور » من بيت الى بيت ، وهو يخوض في الوحول حافياً ، مكشوف الرأس ، مفتوح الصدر ، شاكلاً وراء اذنه سيكارة ، ومن شواربه التي تهتدل على شفته ، وفمه الواسع ، تفوح رائحة العرق ، اثر جرعات ، على الماشي ، جاد بها عليه الرجال ، الذين يشربون مع العشاء أو بدونها ، طالبين منه أن يقعد قليلاً ويحدثهم . وكان هو يرفض لأن « الليلة حامية » كما يقول وسيعود اليهم ، حتماً ، بالاخبار . وقد قرفص ، عند قدمي والدي قرب الخوان ، وجرع كأساً دفعة واحدة ، وتناول قليلاً من الملح فذره على لسانه كمازة ، ومسح فمه بقفا كفه ، ولف سيكارة ، وقبل ركبة والدي دون سبب ، وتحـــدث عن صاحب الاسم الذي « أنزل الملك عن العرش » ووزع البيوت والأراضي والخيرات على الفقراء ، وقال لأمي : « ابشري ! » فنصحته ان « يربط

---

(١) المشموس : المشتبه به .

لسانه ، لئلا يقطعوا رأسه ، وعندئذ هب واقفاً ، طويلا ، متطوحاً ، وركز عليها عينه السليمة ، بتحديقة جانبية وأقسم : « وحياة هذه الكريمة[1] - وأشار الى عينه - ما أنا ساكت ولو قطعوا رأسي ! » ، والتفت الى والدي ، بهيئة من يخاطب رجلا يفهمه : « ليقطعوه !.. يوفرون علي حق الحبل والرصاص ... » وفتح الباب فألقى نفسه في الظلمة .

صار الرجل الغريب ، الذي كتب أسم لينين على شجرة الكينا العتيقة ، لينيناً آخر من عندنا هذه المرة ... أصبح الاسم عزيزاً على القلوب ، مضيئاً في تلك العتمة ، ومنذ أن عرف الناس السر ، راحوا ينتظرون عودته ، ليسيروا معه ، ويقلبوا « عرش السلطان » ويوزعوا البيوت والأراضي والخيرات على الفقراء ، وطفقوا يمشون وأقدامهم تمدد الأوحال والبعوض الذي يأكل وجوه الأطفال ، والأفاعي التي تنساب في الخنادق ، وتبتلع ضحاياها في الأدغال ، واسبيرو الأعور يتابع جولاته الليلية قائلا « ابشروا » ويقص عليهم ما تناهى اليه ، أي ما قاله له الذين « يعلمون » ويزورون الحي خفية ، ويجتمعون ببعض الرجال .

فجأة ، أدرك « الخوضون في الوحول » أن الخلاص من حي « الصاز » ممكن وان هذه اللعنة ليست أبدية . وتحدثوا بذلك أمامنــا ، نحن الصغار ، وهكذا تعمشقنا ، ولداً على كتف آخر ، وأعدنا اسم لينين ، على شجرة الكينا العتيقة ، الى ما كان عليه . وابلغ حارس « المنشية » ذلك للشرطة ، فطلبوا منه أن يمحو الاسم ، ولكي ينتهي منه ، أخذ بلطة وهوى بها على الجذع ، فقشطه الى عمق فتر ، وفي دائرة كبيرة . لكننا في اليوم التالي ، وقد ترصدنا

(١) عين الأعور السليمة تسمى (الكريمة) عند عامة الشعب .

غيابه في السوق ، أعدنا حفر الاسم في موضع آخر . ونكاية حفرناه على جذوع كثيرة ، فجن جنون الحارس ، واشتكى من جديد ، لنفيق في أحد الأيام ، على أوتاد تدق ، وأسلاك شائكة تمد ، وحاجز حول المنشية يقام .

خاف بعضهم من التمادي ، ونصحوا بالاقلاع عن « نطح الصخر » ، والبعض الآخر حزن على الحديقة ، وعلى الحرمان من فيء أشجارها وفوائدها الأخرى . ومضت ليالي « وأسبيرو الأعور » غائب . ثم عاود تطوافه ، حافي القدمين ، مشعث الشعر ، قائلاً ، حينما دخل « ابشروا ! المنشية لكم منذ الغد» وفي الغد وجدنا الأسلاك مقطوعة بمقراض ، وجذوع الأشجار تحمل اسم لينين ، محفوراً كيفما اتفق ، ولكنه واضح لاتخطئه الابصار .

انتشرت ، بعد ذلك ، اشاعة محققة : الحكومة قررت قطع جميع الأشجار ! كانت الضربة فوق ما يحتمله حي « الصاغ » ، وقالت العجائز : «هذه نتيجة الولدنات . » ، وتصور أهل الحارة الصيف بدون منشية وأشجار ، ومرض بدون شراب الكينا . كما تصوروا البعوض والغبار والحر ، وغياب الاسم الذي أنبت لهم أملا ، فقرروا ان يقفوا في وجه « الحكومة» ولو أطلقت عليهم النار . كان البقاء هنا في مملكة الإنس ، الى ان يأتي اليوم الموعود ، وتوزع البيوت والخيرات على الفقراء ، قد استقر كاليقين في الضمائر . وفقدت حكاية « ابن السوف » عن الجنية التي ستحمله وأهل الحارة الى مملكتها ، تأثيرها وبهرجها السابقين . وقضت الخطة ان يخرج الرجال والنساء والأطفال بالعصي والاخشاب والحجارة ، الى المنشية ، ويتحلقوا حول الأشجار ويمنعوا قطعها . واقترح شاب أن تكون للحي « بنديرة » (١) مركزها على « سارية » في المنشية . وقال آخر نرفعها

(١) راية .

أمامنا عندما نخرج لكي يعرفوا أن المسألة جد . وصفق « اسبيرو الأعور » وقال « ابشروا ... أنا أحملها » . ودق بقبضته على صدغه وأضاف : ولم أعد بحاجة الى هذا العين ... ليقطعوه اذا استطاعوا ، فداكم » ، وبحركته هذه وقعت سكارته التقليدية من وراء أذنه ، فراح يبحث عنها بين الأرجل وأوحال الأقدام .

المهم أن الاشاعة لم تتحقق . ربما كانت كاذبة أصلاً ، وربما فكرت السلطة ان الذين كتبوا اسم لينين على أشجار المنشية يمكنهم أن يكتبوه على أشجار المدينة . وقد تكون وعت الحقيقة التي كانت ، آنذاك ، غريبة وأصبحت الآن عادية ، وهي ان اسم لينين قد أصبح منقوشاً ، لا على الأشجار والجدران والأوراق ، بل على قلوب جميع الذين يريدون لأوطانهم الحرية ، ولشعوبهم السعادة ، ومن المستحيل محوه ، بأية طريقة وأية أداة .

ترى ... الذين كانوا في حي « الصاز » ، مدينة اسكندرون العربية السليبة ، كانوا بدعاً في الناس ، وحيهم بدعاً في الاحياء ؟ الرحلة ، عبر التاريخ والسيرة والمذكرات ، تجعل حظ هؤلاء ، الخوضين في الأوحال ، قليلاً في المباهاة . لقد تأخروا ، عشرات الأعوام ، عن الذين سبقوا وأضاءوا ظلمة حياتهم بشمعة الاسم الخالد ، في كثير من بقاع الأرض ، وفي بعض بلادنا العربية بالذات .

ولأجل أن يقدم المرء صورة عن الأمل الذي أيقظه ونماه لينين في الصدور ، ثم حققه لها ، عليه أن يؤلف كتاباً بعدة مجلدات . حسبنا ، اذن ، أن نجتزىء ، أن نكتفي بالخط عن اللوحة . . ببعض الحكايا عن السيرة تاركين السيرة ذاتها . وحسبي أن أؤالف هذه الحكايا التي كتبها أناس عاشوا وعملوا وناضلوا مع لينين ، في محاولة متواضعة ، لتظهير خطوطها الرئيسية ليس إلا .

قرأت ، في مقال غوركي « أيام مع لينين » هذه العبارات : « كنا جماعة نتعشى في مطعم صغير غير غال في لندن . فلاحظت فلاديمير ايليتش يأكل قليلاً جداً ... كان يبدو انه يهمل نفسه . والذي أدهشني ، مقابل ذلك ، عنايته القصوى بالعمال . سأل مرة م . ف اندرييفا ، التي كانت مسؤولة عن اعاشتهم :

– قولي ، أليس الرفاق جائعين ؟ كلا ؟ احم ، احم ... ربما ينبغي زيادة السندويشات !

وجاء الى الفندق الذي كنت أنزل فيه ، فرأيت أنه يجس شراشف سريري باهتمام .

– ماذا تفعل ؟

– انظر الى الشراشف ، عسى الا تكون رطبة .

لم أفهم بادىء الأمر . لماذا تهمه شراشف لندن ؟ وحين رأى دهشتي ، شرح لي :

– ينبغي ألا تهمل صحتك . »

قلت في نفسي : « ليس مستغرباً أن يهتم لينين بصحة كاتب كبير مثل غوركي » . ثم قرأت في ذكريات انا ارماند ، ابنة الثورية السوفياتية الشهيرة اينيسا ارماند ، ما يلي :

« بعد وفاة أمي ، عام ١٩٢٠ بقيت أنا وشقيقتي وأخي الصغير ، وكان لينين ، في تلك الظروف القاسية ، يأتي لزيارتنا ، ولو في ساعة متأخرة من الليل ، ولو لبضع لحظات فقط . لم يكن يجلس ، بـل يذرع الغرفة من جانب لآخر كعادته ، ويوجه إلينا الأسئلة حول ظروف حياتنا ، ويسألنا ما إذا كان لدينا ما هو ضروري ، وكيف نغتذي ، وما إذا كنت أتعب في العمل وأحتاج لمساعدة .

« كان لينين يعلم بأننا ، شقيقي وأنا ، قد تأثرنا لوفاة والدتنا ، لذلك كان يأتي لزيارتنا ، بكل بساطة في مصح تشايكا بجوار موسكو ، رغم

مشاغله الهائلة ، ورغم برد الشتاء ، وذلك لكي يساندنا معنوياً ، ويقوي عزيمتنا . وكان يقصد الطبيب باستمرار ليسأله عن علاجنا ، وحالتنا الصحية . وما زلت أذكر كيف كان يهتم بما أقرأ ، وكيف كان يطرح على شقيقي مسائل في الشطرنج ، هي معضلات عويصة حقاً . وكان يوصينا دائماً بالإكثار من النزهات، وبممارسة التزلج واكتساب القوى . وقبل مغادرتنا ، كان يزور دائماً مطعم الاستجمام ، ويتحدث مع نزلاء الدار الآخرين ويمازحهم » .

كذلك قرأت عن اهتمام لينين بالعمال والفلاحين والمثقفين والطلبة ، وزياراته للمعاهد ، كي يعرف كيف يعيش الجيل الجديد ، ويدرس ، ويسهم في الثورة . كان يجس الاسرة ، ويعاين الطعام ، ويتذوقه ، ويسأل عن الحمامات ، ويصغي الى شكاوى الناس ، ويتفهم المطالب الحقة ، الممكنة التنفيذ، ويلاحقها.

ويروي بوخوموف ، الفلاح من باخوموفكا ، ورسول الفلاحين الى لينين ، انه جاء موسكو ، ودخل الكرملين ، لمقابل الذي يحكم روسيا كلها « كان الفلاحون ، في منطقته ، قد استولوا على الأراضي ، منذ أن سمعوا بمرسوم الأرض ، ولكن الملاكين العقاريين راحوا يهددونهم قائلين : « غداً تذهب السلطة السوفياتية ونصفي حسابنا معكم » . وانتدب الفلاحون بوخوموف للسفر ،ومعرفة ما إذا كانت السلطة السوفياتية باقية . وبعد تطواف ، بين أروقة الكرملين ، توصل بوخوموف الى لينين . فتح الباب قليلاً ، ودخل غرفة المكتب وكيسه على ظهره .

كان رجل متوسط القامة ، ركين البنيان ، يرتدي بدلة ملبوسة ، يجلس الى طاولة صغيرة ، قريبة من مكتب كبير ، ويأكل شيئاً من قصعة عسكرية مخدشة .

« هل هو لينين ؟ » تساءل باخوموف وتوقف في الباب .

— ادخل ، ادخل ، أيها الرفيق — دعاه الرجل الجالس وأشار باليد التي تمسك الملعقة الى مقعد — تفضل بالجلوس .

« نظر باخوموف ، الجالس على المقعد في حذر ، الى لينين ، والقصعة والملعقة مع الهريسة الجافة ، ولم يستطع قط أن يفيق من دهشته ، بالرغم من أنه كان يسمع بوضوح .

— هريسة ؟ - قال ، واشار برأسه الى القصعة بحركة لا ارادية — هريسة … بلا سمن ؟

— بلا سمن . في الوقت الحاضر ، ايها الرفيق باخوموف ، أجاب لينين .

— يسوع الرب ! يارفيق لينين ! — هتف باخوموف ، ونهض ، وراح ينبش في كيسه بسرعة .

اخرج من الكيس شحماً ملفوفاً بخرقة ، وقطعة خبز ، وملحاً في ورقة وبصلة ، وقدمها للينين الذي اعتذر أولاً ، ثم تذوقها وابدى اعجابه بالخبز والشحم . وجواباً على السؤال ، قال باخوموف :

— يتساءل الفلاحون في شك : ترى هل سيعاقبون فيما بعـــد ، بسبب استيلائهم على الارض ؟

— آها ! — هتف لينين بقوة وهو يضحك ضحكته المعافاة — يتساءلون هل السلطة السوفياتية باقية ؟ هذا واضح ! يقولون : نستولي على الأرض ، وبعد ذلك ، تنهار السلطة الجديدة ، ويولي البلاشفة الأدبار ، ويعاقب الفلاحون على تجاوزهم ! مفهوم — وخرج لينين من وراء المكتب ، وقال وهو يتقدم من باخوموف — لن يقهر السلطة السوفياتية احد ، ولن يكون ذلك أبداً ، بالرغم من أن كل عالم الرأسمالية يتألب عليها . ان وجودها يتوقف علينا جميعاً ، وعليكم أيضاً ، يارفيق باخوموف .

خفض باخوموف بصره ، وبعد ان صمت احتراما ، تســـاءل ، كأنه يكلم نفسه :

— يأكل هريسة بلا سمن ، ويحكم روسيا كلها ... أية سلطة هذه ؟

أجاب لينين :

— سلطة الشعب . سينتخبونك الى مجالس السوفييت . وستكون أنت ، يارفيق باخوموف سلطة بأحذية من قشرة شجرة وسترة ريفية ، وارجو المعذرة ، مربوطـة بحبل ، فأية سلطة ستكون هذه ؟ سلطتك ، السلطة الشعبية » .

مرة أخرى نعود الى غوركي الذي كتب يقول : « عـام ١٩١٩ أصعب الأعوام .. عام المجاعة ، كان لينين يشعر بالانزعاج الشديد من تناول الأغذية التي كان الرفاق والجنود والفلاحون يرسلونها اليه من الريف ، فعندما كانت تصل اليه الطرود في منزله الخالي من وسائل الراحة ، كان يقطب جبينه ويسرع ، خجلاً كل الخجل ، في توزيـع الطحين والسكر والزبدة على الرفاق المرضى ، او الذين أضعفهم نقص التغذية . كان يغضن جبهته السقراطية ويتطلع جانباً بعينيه اللتين لايفلت منها شيء ويقول :

— يرسلون إلي كل هذا وكأني انا سيد عظيم ! كيف نبعدهم عن هذه العادة ؟ من الاهانة الامتناع عن القبول . وكل الناس من حولي جياع .

« هذا الرجل القنوع ، الذي لايعرف الخمرة ، ولا التـدخين ، والذي ينهمك من الصباح الى المساء في عمل معقد وقاصم للظهر ، لم يكن يعرف مطلقاً كيف لقيني بنفسه ،مع انه ، بالعكس ، يسهر بغيرة على صحة رفاقه . قال لي، وهو جالس الى مكتبه ، دون ان ينقطع عن الكتابة بسرعة :

— صباح الخير ، كيف حالك ؟ بعد ثانية أكون لك . انني اكتب الى رفيق في الريف يحس بالضجر . انه تعب بلاريب ، وينبغي تشجيعه . الروح المعنوية لها شأنها ! »

ويقول « غيل » سائق لينين :

« لينين انسان من جبلة خاصة . ليس له مثيل . كنت مرة ذاهباً به في شارع ، وكان الازدحام شديداً ، الى حد انني كنت أتقدم بعناء شديد . كنت أخشى أن تتخرب السيارة ، فما كنت اكف عن التزمير ، وأنا متهيج الأعصاب ففتح الباب ، وجاء الي عن طريق الرفراف ، معرضاً نفسه لخطر السقوط وقال لي : ارجوك ياغيل ، هدىء روعك ، سر مثل الناس » .

وتذكر « درابكينا » ، انها كانت بعد الاطاحة بالقيصر ، وقبل ثورة اوكتوبر ، مهتمة مع ناديجدا كروبسكايا ، زوج لينين ، بانشاء روضة للاطفال ، وانها لاحظت في رسوم أحدهم ، اليوشا ، موضوعاً يتكرر عدة مرات ، هو عبارة عن زهور غريبة ومربع غامض . سألت عن عنوان الصبي وزارته في البيت ، فوجدت الفناء عبارة عن بئر ، تحت ستة طوابق ، وفي البئر سلم درجاته متآكلة يؤدي الى سرداب ، ودهليز طويل مظلم في نهايته باب ، وداخله سرير ينام عليه ثلاثة اطفال أحدهم اليوشا الذي فتح لها . سألت عليه وجلست قربه على السرير ، فرأت من النافذة ، وعلى ارتفاع عال ، نفس المربع المربد من رقعة السماء الذي كان يصوره الطفل في رسومه . لم يكن قد رأى زهوراً قط ، ولهذا ارتبطت في ذهنه بصورة شيء رائع لايوصف ، فكان اليوشا يظن أن الزهور تغرد ، ولهذا رسمها على شكل طيور .

وحين عرف لينين بالأمر في ذلك الوقت العصيب ، وكيرنسكي ، رئيس الحكومة الموقتة ، طلب أن يرى الرسوم ، فلما بلغت درابكينا قصر كيشينكايا في ساعة متأخرة من الليل ، وعرضتها عليه ، تولاه الغيظ وهو يشير الى البطانة الحريرية الوردية لغرفته في ذلك القصر والى السقف المرمري :

— لكي تعيش عظيمة القيصر في هذا الترف ، حرم اليوشا كالينوف من الطفولة ».

وفي الصباح التالي سافر لينين الى فنلندة لمدة اسبوع ، وأخذ الرسوم والمذكرة التي شرع بوضعها عما يجب اتخاذه لاجل الأطفال ، قائلا انه يريد رؤية الصبي بعد عودته . الا انه بعد بضعة أيام ، حصلت أحداث ٣ - ٥ تموز ، وعاد لينين الى بترغراد ، واضطر الى التخفي من الاعتقال والتنكيل اللذين كانا يتهددانه من جانب الحكومة المؤقتة : وضاعت الأوراق التي كانت عنده ، ومن بينها رسوم اليوشا . لكن لينين، في غمرة تلك الظروف ، أرسل للاطفال بطاقات سفر في القطار بمساعدة عمال سكة الحديد ، لكي يرى الأطفال النور والزهور الذين حرموا منها في طفولتهم .

هذه الحكايات ، وغيرها كثير ، قرأتها بنفس المشاعر التي تملكت أصحابها ، يوم جرت حوادثها . ولم أدهش ، مع كل ما تندى به القلب من أسى وحنان ، لانسانية الانسان الذي كانه لينين . غير أن حكاية واحدة ، بينها ، أدهشتني حقاً وصدقاً .

« في فجر السلطة السوفياتية ، كان النضال من أجل الخبز يعني النضال من أجل دكتاتورية البروليتاريا . ويقول البولشفي القديم الكسندر تسوروبا المسؤول عن التموين : « طلبت في تلك الايام الى مكتب لينين ، فلما دخلت رأيته يشرح شيئاً لدزرجينسكي - وزير الداخلية - الجالس على مقعد ، وهذا ينصت صامتاً ، مقطب الحاجبين .

« التفت لينين الي ومد يده قائلا بقلق :

— دزرجينسكي يشكو منك يارفيق تسوروبا . يظهر يا أخي ، اننا نقلل عشرين حصة من حصص الخبز للبورجوازيين الذين اعتقلتهم اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا . كيف هذا ؟ ها ؟

« اجبته : انت تعرف يا فلاديمير ايليتش ، ان الخبز ينقص حتى للعمال الذين يحملون السلاح وينتجونه للجبهة ؛ فمن أين نأخذ عشرين حصة زائدة من الخبز للمعادين للثورة ، المحجوزين في اللجنة الاستثنائية ؟ »

« خطا لينين خطوة نحو دزرجينسكي رئيس اللجنة الاستثنائية ثم توقف :

— أترى ، ماذا يحصل مع من هم تحت وصايتك ؟

أجابه هذا : افهم يا رفيق لينين ، افهم كل شيء ، ولكن أية فائدة من ذلك؟ نحن اعتقلنا أناساً ، ونحن ملزمون باطعامهم .

أكد لينين : نعم هذا انصاف ! وتحول الى مرة أخرى :

— اسمعني ! ماذا لو تبحثون في المخازن ، فقد تجدون هذه العشرين حصة !

ولم ارد أن احزن لينين مرة أخرى ، الا انني اضطررت الى التذكير بالوضع البائس في موسكو وبتروغراد ... والتفت لينين الى دزرجينسكي ثانية ، لكن هذا اكتفى بهز كتفيه .. عندئذ فكر لينين وقال :

— تقول هناك نقص في الطعام لعشرين نفساً آثمة فقط ، يعني حالة الآخرين محتملة؟ ايها الرفيقان ! يوجد مخرج ، ولو انه بسيط . يا رفيق دزرجينسكي ، إختر عشرين من البورجوازيين المعتقلين الأقل عدواناً ، وخذ منهم كلمة شرف بان لا يكرروا مكائدهم ضد السلطة السوفياتية ، واطلق سراحهم بكفالة ! ولما كان الناس جياعاً ، فافعل ذلك بدون تأخير ! ... »

وفي اليوم التالي سأل لينين لمعرفة ما اذا كان « عدم التأخير » قد نفذ .

هذا الانسان الصارم في عدائه للاقطاع ، العنيد والمتشبث في حقده على النظام الرأسمالي ، السابح في الثورة كالسمكة في الماء ، كان يجد الوقت ، في قلب الثورة ، في قلب المجاعة ، وسط حروب التدخل ، خلال الاختفاء والملاحقات في السجن ، في المنفى ، خارج الوطن ، داخله ، لكي يهتم بالناس ، بالانسان ، هذا الاهتمام الذي يتشكل ، لا من اخلاقيات « الاحسان » و « ازرع المعروف ولو في البحر » « والكرم الذي يصنع وجاهة » ، بل من

انسانية واعية ، صادقة ، ذاكرة الذات ، بلغت ذروة عطائها بالحياة التي اوقفتها ووعيتها لتغير مجتمع القياصرة والتخلف والاستثمار والاستعباد ، بمجتمع انتفت منه هذه الآفات ، وغدا فيه الانسان ، بذاته ، وبما يصنع من مصيره ، أثمن ما في هذا المجتمع .

ولينين الذي كان يعرف خطر الرجعية ، وعداء البورجوازية الاسود الذي يستمر طويلاً . حتى بعد انتصار الثورة ، والذي كان يرى البورجوازية تحمل السلاح بجيوشها البيضاء ، وتستعدي كل العالم الرأسمالي على وطنها ، وتهلل للتدخل العدواني ، وتضع تحت تصرفه كل طاقاتها ، لينين ، في تلك الظروف البالغة الشدة والتعقيد ، وجد الوقت ليهتم ، لا بصحة وعمل وغذاء واستحمام الناس ولا بمصائر اليتامى ، ورسوم الأطفال ، والنيزك الذي سقط في سيبيريا ، والمسرح الفني في موسكو ، والاختراع البسيط لأحد العلماء ، بل أيضاً بعشرين حصة من الخبز كانت تنقص المعادين للثورة الموقوفين من قبل اللجنة الاستثنائية . ذلك أن القانون — في اعتبار لينين — هو الذي يحكم المعادين للثورة . لا الجوع . برغم أن الكثير من هؤلاء المعادين ، كانوا يحكمون بحقدهم الطبقي الأعمى ، ويرتكبون قبل الثورة وبعدها ، في المناطق التي اجتاحتها جيوشهم البيضاء وجيوش المتدخلين في العالم الرأسمالي ، من الجرائم ما يثير الهلع . وتكفي قراءة « الدون الهادىء » لشولوخوف ، لأخذ فكرة ، ولو في الاطار الأدبي ، مرعبة حقاً ، عما فعلوه بالثوار الذين وقعوا في أيديهم .

وإذا كان لينين قد قال ، خلال حديث له مع المثقفين حول خشيتهم من « قساوة التكتيك الثوري »[1] : « ان دبمناهضة الثورة بتقدم نحونا من جميع

(١) راجع مقال غوركي : « ايام مع لينين »

الجهات . فهل تريدون الا يكون لنا حق النضال والدفاع عن النفس ؟ هذا كثير جداً ، ولسنا بلهاء . نحن نعلم أن أحداً لن يعطينا ما نريد ، فعلينا أن نأخذه بأنفسنا ؛ وإذا كان قد سالمهم ، بعد نقاش حاد : « كيف تعرف عدد الضربات الضرورية وغير الضرورية في معركة ما ؟ » فانه هو ، كان يرفض ، وباصرار ، الضربة اللاانسانية ، المتعمدة ، التي يمكن معرفة ضرورتها من عدمه حتى خلال معارك الدم والنار التي كانت تغطي الاتحاد السوفياتي . وقد تجلت انسانيته في عمل نادر ، خطر ، في تاريخ الثورات ، حين اوصى باختيار عشرين ، من البورجوازيين المعتقلين الأقل عدواناً ، واطلاق سراحهم بكفالة ، لأن السلطة عاجزة عن ايجاد عشرين حصة من الخبز لهم !

ولتجنب الخطأ الفكري، ولفهم مواقف لينين الانسانية ، مثل افكاره بدقة ودون اية اضافة أو نقصان ، يحسن أن نشير الى ان المسألة الانسانية حتى في النطاق الفردي مسألة نسبية وليست مطلقة . فان يقتل الانسان انساناً آخر ، فهذه اثم في حقل الانسانية ، ولكن ان يكون أحدهما معتدياً ، وجاء ليقتل ، انفاذاً لهذا العدوان وبسطاً لسيطرة المعتدي ، فقتله ، من قبل الانسان الآخر ، المدافع عن حقه وأرضه ووطنه ، عمل لايجانب الانسانية ، لأنه موقف دفاع عنها . هذا هو الشأن في الصراع الطبقي والنضال التحرري والحروب العادلة . ان القتل، هنا برغم بشاعة العملية من وجهة النظر المطلقة ، هو ، فعل ضرورة ، نفي للنفي ، قتل لانهاء القتل من وجهة النظر النسبية . كل شيء يتحدد ، ويتفسر ، بالموقف الطبقي ، وازاء العنف الذي تباشره الطبقات الرجعية المالكة ، والقوى المعتدية - مثلاً قوى العدوان الاميركي في فيتنام ، وقوى الصهيونية والامبريالية المعتدية على البلاد العربية ، وقوى العدوان الاستعماري والرجعية في كل مكان - لابد من

اتخاذ موقف النضال والدفاع عن النفس ، موقف العنف لوقف العنف ، موقف الكفاح الضاري العنيد لدحر العدوان وتحقيق التحرر الوطني واحداث التغييرات الاجتماعية الجذرية لمصلحة التقدم والاشتراكية ، ثم موقف اليقظة الدائمة ازاء قوى الرجعية والعدوان التي تستمر زمناً طويلاً ، فتتقنع بأقنعة مختلفة ، وتعـــاود الظهور بأشكال مموهة مباشرة أو غير مباشرة ، حتى بعد أن تنهزم في المواجهات والمعارك الكبيرة ، الحاسمة ، وحتى بعد أن تجرد من قوة الملكية وقوة العدوان لانها ، عندئذ ، تعتمد على رواسب « العقلية القديمة » التي تبقى لفترة زمنية قائمة ، وعلى الثغرات والنواقص في التطبيقات الجـــديدة ، فتتحرك ، كرأس الأفعى المقطوع الجسم ، وتعود ، حيثما سنحت الفرصة ، الى اللدغ والتخريب ، بانتظار أن تتجمع وتتقوى لتعـــاود الوثوب ، بتشجيع القوى الخارجية المعادية وبالاعتماد عليها .

في ضوء هذا المفهوم الديالكتيكي ، يصبح الموقف الانساني موقفاً واعياً ، صحيحاً وعميقاً ومبدئياً في آن ، وكل « انسانية مطلقة » تتزلق الى اللاعنف ازاء العنف الى « الذل الذي يتأنق بثوب الغفران » [١] ، وتدير خدها الأيمن لمن ضربها على خدها الأيسر ، هي « إنسانية » مثالية بالمفهوم الفلسفي ، طوباوية ومؤذية ، وتحمل الماء ، في آخر المطاف ، الى طاحونة أعداء التحرر والتقدم ، أعـــداء الانسانية .

لينين وعى هذه الحقيقة في نشاطه النظري والعملي ، على مدى حياته . كان ، كما في المقتطفات السابقة ، شمعة أضاءت ظلمات الناس ، ايقظت أشواقهم

(١) اشارة الى بيت بدوي الجبل :
تغضي على الذل غفراناً لظالمها تأنق الذل حتى صار غفرانا

وآمالهم . كان ملهماً ومشجعاً لهم ، ويداً قوية مع أيديهم ، وعيناً ساهرة على شؤونهم وقلباً شجاعاً صامـــداً في الدفاع عنهم ، وقلباً كريماً ، يمنع ضربة الجوع . برغم المجاعة – حتى عن المعادين الأقل عدواناً منهم ، فكيف حصل على هـذا التكوين الانساني ، نظرياً وعملياً ، وصدر عنه ، مناضلاً وثائراً وحاكماً ؟

في الجواب على هذه النقطة نجد أنفسنا أمام لينين الانسان ، لينين طفلاً فياضـــاً فرجلاً فكهلاً ، وهنا ، مرة أخرى ، نعود الى التاريخ والسيرة والمذكرات .

ولد فلاديمير ايليتش اوليانوف (لينين) في ٢٢ نيسان ١٨٧٠ ، لأبوين من فقراء الطبقة الوسطى ، هما ايليا اوليانوف ، المربي ، وماريا الكسندروفنا ، ابنة الطبيب ، والزوجة المجدة القنوعة بحكم تربيتها .

كان ثالث ولد في هذه العائلة ، فقد سبقه أخوه الكسندر ، الذي سيشترك في عملية اغتيال القيصر ويعدم ، وأخته حنه ، التي ستتزوج الشاب ايليزاروفا ، صديق الكسندر في الدراســـة ومشجع لينين في نشاطه الثوري . وكان لينين ينبض حيوية ونشاطاً ، مرحاً يحب اللعب الصاخب والركض ، ويحطم لعبه بأكثر مما يلعب بها . وفي الخامسة من عمره تعـــلم القراءة في البيت ، ثم جرى اعداده في أحد الكتاتيب ، وفي التاسعة دخل الصف الأول من « المدرســـة الاعدادية » وكانت أخته اوليا ، التي ولدت بعده بعام ، ورفيقته في الطفولة ، وتلميذته في الدراسة البيتية .

تعلم بسهولة . كان أحسن تلميذ في صفه . نال الجوائز الأولى ، وهي كتب نقش على جلدها بأحرف مذهبة ... من أجل الأخلاق الحميدة والنجاحات . وكان لمثال الأب والأم ، ودأبهما على العمل ، ولمثال أخيه الاكبر الكسندر

خاصة ، اثر كبير عليه ، فقد كان الكسندر من الأفذ اذ في جــده وتفكيره وصرامته في القيام بواجباته ، وبانصافه ودقته ودمائته .

وفي عهد الدراسة كان لينين يشاطر زملاءه معلوماته ، فيشرح لهم الدروس والمسائل الصعبة ، ويساعدهم في الترجمة من اليونانية واللاتينيـــة . وفي السنتين الأخيرتين من المدرسة الثانوية تطوع لتدريس معلم عن القومية التشوفاشية وأعده لدخول الجامعة ، ونجح برغم قلة كفاءات هذا المعلم .

عام ١٨٨٦ ، توفي والده ايليا ، وبعد سنة اعدم أخوه الكسندر في ٨ آذار ١٨٨٧ ، فأحدثت هذه النكبة أثراً عميقاً في نفس لينين ، وصهرته ، وحملته على التفكير الجدي في الطريق التي يجب على الثورة ان تتبعها . وقــد رفض طريقة أخيه في الاغتيالات الفردية : « لا ، لن اتبع هذا الطريق » . ورغم ألم النكبة انهى المدرسة الثانوية هذا العام ، واحرز الميدالية الذهبية ، لكن اعدام الأخ ، جعل الأسرة موضع الشبهة ، ولينين موضع الريبة ، فتقدم هنا ، مدير مدرسته ، لمساعدته . أعطاه شهادة حسن سلوك لدخول الجامعة ، وعن حسن نية ، تصرف المدير بالحقائق ، فأكد في شهادته أن فلاديمير ايليتش « منكمش . . . منعزل عن الناس . ولم يحدث ، ولا مرة ، أن أثار ، بالفعل أو بالقول ، خاطرة غير حسنة عن نفسه » . مع أن لينين كان جريئــاً ، يحب المزاح ، ويلاحظ بدقة النواحي المضحكة في الأشخاص ، وقد سخر من معلم اللغة الفرنسية ، بسبب تكلفه وسخفه ومداهنته التي أوصلته الى الزواج من ابنة أحد الملاكين .

على أساس هذه الشهادة ، ومواهب لينين الفذة ، قبل في جامعة قازان ، التي انتقلت اليها الاسرة في أواخر آب ١٨٨٧ . كانت الحياة السياسية وقتئذ في خمود . فحزب ارادة الشعب ، قد تحطم ، والحزب الاشتراكي الديموقراطي ،

لم يولد ، والجماهير لما تنزل الى حلبة النضال ، والطلبة هم الفئة الوحيدة التي لم تخمد فيها جذوة الاستياء . انها تلتهب ، تعلن سخطها وتسعى للنضال . والحكومة القيصرية تقمعها بضراوة ، وتبث في الجامعة رجالها وعيونهـــا ، يترصدون ، ويحصون الأنفاس ، حتى اذا كانت اضطرابات تشرين الثاني من ذلك العام ، ثم اجتماعات كانون الأول ، لأجل المطالب الجامعية والسياسية ، كان لينين أشد المشتركين فيهـــا حماسة . اعتقل مع ٤٠ طالباً نفوا من قازان ، وقال مفوض الشرطة للينين عند اقتياده بعد الاعتقال ، وكان قد رآه في الاجتماع الاحتجاجي واقفاً في الصفوف الاولى : « لماذا تثور أيها الشاب ؟ ألا ترى أنك تواجه جداراً عالياً ؟ » فأجاب لينين : « نعم ، إنه جدار عال ، ولكنه متداع ، ضربة واحدة تكفي حتى ينهار » . وقد صدقت فراسة لينين ، كما صدقت فراسة رجل الشرطة السرية ، الذي سيكتب في تقريره ، بعد ١٣ سنة ، اي عام ١٩٠٠ « ليس ثمة في الحركة الثورية من هو أعظم وأخطر من اوليانوف ! » .

الى قرية كوكوشكينو، حيث تعيش أخته حنه تحت الرقابة نفي لينين، ومن هناك شرع بكتابة الرسائل ، ضاحكاً من مخاوف اخته ، الى زملائه المنفيين أو المبعدين بالطرد من الجامعة. وفي الشتاء كان يصطاد ، ولم يحالفه التوفيق طواله. وفي الصيف التالي رجع من نزهة مع ابن خالته ، فقال: «اليوم هرب منا أرنباً ، فواتت النكتة اخته التي قالت : « انه ولاشك نفس الارنب الذي كنت تصيده طوال الشتاء ! » . وفي صيف ١٨٨٨ ، سمح له بالعودة الى قازان ، واليها انتقلت الأم مع أولادها ، هذه الأم التي صمدت بقوة ارادة هائلة أمام النكبات المتلاحقة : وفاة الأب ، إعدام الابن ، نفي البنت حنه ، نفي لينين ، وفيما بعد ، مرضت البنت أولغا بالتيفوس وهي تدرس في المدرسة النسائية العليا في بطرسبورغ .

من أجل ذلك ، جهد لينين فوق الحب في اظهار اسمى الاحترام لهذه الوالدة . وحين شرع ، وهو يتردد على الحلقات الثورية في قازان ، بالتدخين كعادة الشبان ، حاولت اقناعه بتركه ، حرصاً منها على صحته التي لم تكن قوية ولما نفدت حججها عن اضرار التدخين اشارت الى تبذير النقود التي كانوا بحاجة ماسة اليها ، لأنهم يعيشون على راتب التقاعد الذي خلفه الأب ، فتأثر لينين وترك التدخين الى الأبد .

عام ١٨٩١ ، قدم امتحان الحقوق في جامعة بطرسبورغ ، ونجح بتفوق ، فأدهش ذلك الكثيرين . وكان ، وهو مطرود من الجامعة ، ومحروم من اية مساعدة خارجية قد أكب على العلوم القضائية خلال صيف هذا العام ، واتخذ لنفسه ، وهم في سامارا ، مكتباً منعزلاً في عريش بين الأشجار ، وغرز في الأرض ما يشبه الطاولة ، فاذا تناول شاي الصباح ، قصد العريش مثقلاً بالكتب ، ومواظباً بدقة على موعده هذا وحتى ليخيل للمرء أن في انتظاره معلماً صارماً . كان ينهي دروسه في ساعات الصباح ، ويعود بعد الغداء الى ذات المكان المنعزل حاملاً الكتب في المواضيع الاجتماعية ، ومنها كتاب انجلز بالالمانية « وضع الطبقة العاملة في بريطانيا » ، ثم كان يتنزه ويستحم . وبعد شاي المساء يحمل المصباح الى حديقة البيت وينكب على الكتب التي لم تحوله الى عث ، لأنه كان يعرف كيف يعمل كالآخرين ويستريح كالآخرين ، ويقوم بالنزهات ، ويمزح ، ويثرثر ، ويؤنس المحيطين به ، ويجعل عدوى ضحكاته تسري اليهم .

في منطقة سمارا اجتاز ، لا امتحان الحقوق فقط ، بل عتبة المدرسة النظرية الى واقع الفلاحين الروس الذين كان يتتبع أخبارهم ، فيتحدث اليهم ، والى كل من له صلة بهم من الموظفين ، مما ساعده في صوغ القسم الزراعي من

برنامج الحزب فيما بعد . ومع هؤلاء الفلاحين ظهرت مقدرته الخاصة في التحدث الى أي شخص ، والانتزاع ما هو بحاجة اليه من كل انسان ، وعدم ابتعاده عن الواقع ، وعدم انجرافه وراء النظريات . انه ، كما سيظل دائماً ، ذلك المتبصر بدقة في الحياة ، المصغي الى نبضاتها ، المتتبع بثبات ظواهر أية نظرية حتى يستوفيها . وفي سكون قرية سمارا المنعزلة ، تطور بصورة غير ملحوظة ، ونما الرجل الذي سيضع أسس الحزب البولشفي في الاتحاد السوفياتي ، ويقوده الى النصر .

ان السنوات التي قضاها في قازان وسامارا ستمهد لعمله الواسع، وترسخ سماته الثورية ، وتعطيها شكلها النهائي، حتى تصبح هذه المناطق ضيقة على نشاطه، قليلة العطاء بالنسبة لغذائه الفكري، فينتقل عام ١٨٩٣ ، الى العاصمة بطرسبورغ، ليبدأ نشاطه الثوري الفعلي في حلقات الطلاب وعمال المصانع .

ثمة ملاحظة لابد منها ، تحاول خطاً رئيسياً في صورة حياته ، هي ثقة لينين بالجماهير ، وقدرته على ايصـال أفكاره اليها . فحين جرى الانتقال من حلقات المثقفين الى العمال ، أي من الدعاية بين جماعات صغيرة الى الدعوة في اوساط الشعب ، نشأ خلاف بسيط ولكن جوهري : هل تبدأ الدعوة مع الجماهير بالحديث عن حاجاتها الاقتصادية في المرحلة الاولى ، والسياسة في المرحلة الثانية ؟ لينين قال : « لا مراحل هنا ، الوعي السياسي للناس يجب أن يتطور من الاحاديث والمناشير الاولى » فقالت له اخته حنه « كيف تبدأ الأحاديث عن السياسة مع عمال متأخرين ، يرون في القيصر إلهاً ثانياً ، ويشكون بالمناشير المتضمنة مطاليبهم الاقتصادية بفزع ووجل ؟ أفلا ينفرهم ذلك ؟ » ، فأجاب لينين : « القضية كلها في كيفية تناول الحديث ... فاذا تكلمنا رأساً ضد القيصر والنظام القائم ، فذلك ينفرهم طبعاً ، ولكن السياسة تخللت الحياة اليومية ، وموقف سلطة القيصر

الى جانب أصحاب المصانع ، يربط بينها في ظلم العمال ، ويربط بينها عند الدعوة للخلاص من هذا الظلم . وسيفهم العمال انه للخلاص من استثمار واضطهاد أصحاب المعامل ، يجب الخلاص من سلطة القيصر التي تحمي أصحاب المعامل ... الخ » .

كان ذلك عام ١٨٩٥ . وبعد حوالي ربع قرن من هذا التاريخ سيقول عالم الفلك كورشونوف للينين : «وانت يافلاديمير ايليتش ، في بلاد ليس كل واحد فيها يستطيع قراءة كلمة (الاشتراكية) ، تبني (الاشتراكية) » ؟ وسيبتسم لينين ، ويجيب الزمن نيابة عنه : نعم ، نستطيع ! ... سيحل - وقد حل - الوقت الذي تخرج فيه المصانع مداخنها ، والأرض خيراتها ، وبطامن الفضاء متنه لغاغارين وتيريشكوفا ، وتتحقق كلمات بوشكين وتولستوي ، وتصبح روسيا المظلمة ، نصف المتوحشة ، بلاداً تمحي فيها الأمية محواً تاماً ، وتصل البعثات الى القطب الشمالي ، وتنزل الى قاع المحيطات ، وترتفع فوق الغلاف الجوي للفضاء ، وتتغير الحياة ، نحو الأرقى بلا ايقاف ، وستتم كهربة البلاد ، التي كان ويلز ، الكاتب البريطاني ، يعتبر مشروعها قدرة فائقة من لينين على الخيال .

أما في ذلك الحين ١٨٩٥ ، فقد كان لينين على أبواب الاعتقال ، حيث سيدخل السجن وينفى الى سيبريا ، بعد أن عاد من الخارج ، ومعه حقيبة ذات طابقين ، تحوي الجرائد والنشرات السرية . وفي السجن يتابع نشاطه العجيب ، فيهتم برفاقه السجناء ، ويشد من عزائمهم ، ويكتب اليهم الرسائل ويوصلها بطرق عجيبة ، ويجمع المواد العلمية لكتابة « تطور الرأسمالية في روسيا » وبدون بالحليب بين أسطر الكتب التي يقرأها ملاحظاته ، صانعاً من لب الخبز محابر ، يسهل عليه أكلها عند المداهمات . وقد كتب بروح الدعابة التي اشتهر بها « اليوم أكلت ست محابر » . وقال لأخته في احدى الزيارات « عبثاً يبحث الدرك في كومة

الكتب والاحصاءات الموجودة في زنزانته . فلن يفهموا شيئاً منها ، ثم أضاف ضاحكاً : « اني أسعد حالاً من سائر مواطني الامبراطورية الروسية ، فليس بوسع أحد أن يقبض عليّ هنا » .

وبرغم المداهمات ، وابتلاع « المحابر » وظروف السجن ، كتب في هذه الزنزانة المناشير وكراس « حول الاضرابات » ومنهاج الحزب مع « مقدمة تفسيرية » مسهبة . وسخر من سجانيه قائلاً : « لاتوجد حيلة الا وهناك حيلة فوقها » .

ويأتي أخيراً يوم النفي . وكانت والدته قد حصلت على اذن يسمح له بالسفر الى المنفى بمفرده ، بعد اقامة ثلاثة أيام في موسكو لرؤية عائلته ، لكنه رفض هذا الامتياز ، وأصر على السفر مع قافلة المنفيين برغم سوء صحته ، ولم يتراجع الا بعد أن تدخل رفاقه المنفيون لاقناعه .

قضاء مينوسينسك في سيبريا ، قرية شوشينسكويه : هنا كان منفى لينين . وكان يسميها مازحاً في رسائله « شو ، شو ، شو » . ومنذ وصوله نظم كعادته أوقاته ، وشرع يعمل بجهد واسع . الف كتاب « تطور الرأسمالية في روسيا » الذي كان قد جمع احصاءاته ومواده من مئات الكتب الروسية والأجنبية وهو في السجن ، ودونها على الدفاتر ، وبين صفحات الكتب التي هربها الى الخارج . وكتب جملة من المقالات ، نُشر قسم منها باسم مستعار في مجلة الماركسيين العلنيين ، ثم جمعت في كتيب « مباحث ومقالات اقتصادية » . كما نظم أول وآخر قصائده ، ومطلعها المرح : « في شوش ، عند سفح الطاي » ، واصفاً فيها كثبان الرمل التي كان يتسلقها للنزهة . وشرع في منفاه الذي لم يضجر منه ، ولم يسع لتغييره ، بكتابة الرسائل الكثيرة الى المنفيين والثوريين ، والرسائل العادية الى أهله ، طالباً فيها

الكتب ، ذاكراً المؤلفات التي يضعها ، متحدثاً عن حياته وحياة رفاقه . وكانت أخته حنه تكتب اليه بالمواد الكيماوية التي لاتقرأعن سير النشاط والعمل الثوريين في روسيا .

ولكونه حقوقياً ، فقد أسدى المشورة الى الفلاحين في كل مايتعلق بشؤونهم المحلية ، وبالدرجة الأولى القضائية . كان يعرف كيف « يحل عقدة لسان محدثه حتى ينطلق على سجيته ويفضي بكل ما في دخيلة نفسه » . وقد أحبه الفلاحون وتقاطروا عليه من كل الجهات ، واستطاع أن يفهمهم ، ويكوّن عنهم وعن نفسيتهم ، هنا وفي قرى حوض الفولغا سابقاً ، معرفة ستسدي اليه خدمة جلى ، خلال النضال الثوري وبعد الوصول الى الحكم .

الى هذه القرية وافته خطيبته ، ورفيقته في النضال ، ناديجدا قسطنطينوفا . فتزوجا وعملا معاً . وتعتبر مذكراتها عنه بالغة الأهمية ، وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب الشخصية من حياته . وهي تروي أنه كان محباً للأغاني الثورية ، ومعجباً بأغاني العمال البولينيين ، ويقول بضرورة وضع مثلها في روسيا . ومن الأغاني التي أحبها ، و كان ينشدها بحماسة ، أغنية « تعسفوا أيها الطغاة ! » و « أعاصير البغضاء » و « العلم الأحمر » التي تقول : « لون العلم الأحمر من لون دماء المناضلين » وأغنية المناضل تسيدير باوم ، التي وضعها في المنفى :

ليس هذا عواء وحش جائع
انها عاصفة للجبة تدوي .
ومن خلال الريح ، تطرق السمع
قهقهة العدو الغالب .
تشجعوا ، يا أخوة ، تشجعوا ،
فرغم مصيرنا المرهق
ننشد أغنيتنا بقوة .

في روسيا رجال في منتهى الحماسة ،
وهم جديرون بأزياء البطولة .

وتنتهي أيام النفي ، ولينين يذوب تعطشاً للنضال . لقد أصيب بالتهيج العصبي قبل انتهائها ، لعدم ثقته في حلول أجلها . على أن الفرحة بعودته ستكون قصيرة ، لأنه بعد فترة وجيزة يعتقل من جديد في بطرسبورغ . وقبله كان قد اعتقل شقيقه الأصغر ديمتري وشقيقته الصغرى ماريا بتهمة باطلة . كان التوقيف ، هذه المرة ، نكبة ، لأن لينين اكتشف كثوري خطير ، ولا يملك حق الذهاب الى بطرسبورغ . وكان يحمل جواز سفره الذي سيسافر به الى الخارج . لكنه استطاع التخلص برباطة جأشه ومهارته ، وانتزع ، بطريقة مضحكة ، هي التهديد بالشكوى الى المراجع العليا جواز سفره من مفوض الشرطة . وسافر الى داوفا فاجتمع برفاقه ، ومنها الى الخارج ، حيث ساهم في انشاء الايسكرا - الشرارة - جريدة الاشتراكيين - الديموقراطيين الروس ، التي سينسحب منها ، بعد مؤتمر جنيف عام ١٩٠٣ ، والانقسام بين « البولشفيك » (الأكثرية) و « المنشفيك » (الأقلية) وبدء الصراع ضد التحريفية والانتهازية اليمينية في قلب الحركة الثورية الروسية .

ويصفه المناضل الثوري كرجيجانوفسكي بانه كان ، « في أيام الانقسام تلك ، يتميز بأكبر الهدوء والضبط النفسي بين جميع هؤلاء المتقلبين[1] ... ان لينين ، مع كل التكامل المذهل لعالمه الداخلي ، كان انساناً نادراً في تواضعه ، غير مزهو بنفسه ... واذكر أن احدى مناقشاتي معه استمرت الى ساعة متأخرة من الليل . كنت أحاول اقناعه بضرورة المصالحة ، واصفاً الضرر المميت الذي

(١) المقصود بالمتقلبين المناشفة ، من تحريفيين وانتهازيين .

يلحقه هذا الانقسام في عملنا بروسيا بالذات ... ثم قلت : ان الجميع يقفون ضدك بحزم ، وحتى بين القلائل الذين يصوتون معك ، يوجد ، حسب رأيي ، اناس يقدمون على ذلك ، بشكل رئيسي ، ولاء لشخصك . اذن ، فانت واحد ضد الجميع » .

ويضيف كرجيجانسكي : « دلت الأحداث التي أعقبت ذلك ، على أن لينين وحده كان حاد البصيرة حقاً في الفهم التاريخي . واذا كانت العبقرية تكمن بالذات في التنبؤ بالأحداث والتعرف عليها قبل سنين طويلة من ادراك الناس الاعتياديين لجوهرها ، فإن بصيرة لينين التاريخية العبقرية قد ظهرت بجلاء في هذا التعرف المبكر بسقوط المناشفة ثورياً .. لقد كانت البلشفية والمنشفية فهمين متعارضين كلياً لجوهر الأمور الموضوعي ، الا أن ذلك لم يظهر بوضوح ثابت الا مع مجرى الأحداث اللاحق ، وبمقدار نمو واتساع متاريس الانتفاضات الشعبية في سهول روسيا (١) » .

وككل التحريفيين والانتهازيين ، في جميع الأزمنة والبلدان ، حاول المناشفة ان يستروا عورتهم بالزعم أنهم «منفتحون»، و «مجددون» ، و«متمسكون بماركس» ، وان خصومهم « متحجرون » ! - وبالفظاعة ! - . غير أن هـذا الخداع سرعان ما انكشف بانتقال اكثر المناشفة الى معسكر الأعداء .

تقول بوبوفسكايا (زيليكسون) التي حضرت مؤتمر جنيف العاصف : « في ليلة رأس السنة ، بينما كنا نذرع ساحة (بلين باله) في جنيف ، ومعنا لينين ، صادفنا جماعة من المناشفة الذين لم نعد نسلم عليهم . ويرمينا أحدهم بملاحظة خبيثة : « جاء المتحجرون ! » فنرد في أثرهم : « افسحوا الطريق للمانعين (٢) » .

(١) انظر كتاب « خالد الى الأبد » ص ٣٢ الطبعة العربية - موسكو
(٢) المرجع السابق ص ٦٣

تأملوا ، حتى لينين ، الذي كان يوصي باستعمال تكتيك مرن ، محذراً من التطبيق الجامد ، النمطي للحقائق العامة على المهمات الحسية ، يتهم بالتحجر من قبل المحرفين ! هذا يفسر لماذا يحاول المرائون ، من كل الأصناف ، الآن ، أن يتجاهلوا اللينينية ويفصلوها عن الماركسية ، ومتى ؟ في عهد الاستعمار ، حيث اللينينية هي ماركسية عهد الاستعمار .

الفترة التالية من حياة لينين ، حتى وفاته ، كانت فترة نضال نظري وعملي ، لرجل ثوري قوي الحجة صعب المراس ، يلبس السترة والكسكيت ، ويزدان وجهه بشارب صغير ولحية قصيرة ، وله رأس مغولي بعض الشيء . وعينان مقطبتان ، وهو « يخفي وراء جبهته العريضة قنبلة الفكر الثوري ليقذف بها في حينها على العالم [1] » . وهذه الفترة ، المتعلقة بنشاطه الفكري والحزبي والثوري ، لا بد أن يتعرض لها الذين سيتكلمون على هذه النواحي في حياة لينين فلأكف اذن ، وكلي رغبة في المتابعة ، عن رصد بقية المراحل في رحلة العمر ، للرجل الذي قال عنه جون ريد ، في كتابه « عشرة أيام هزت العالم » : « كان قائداً للشعب منقطع النظير . انه زعيم بفضل عبقريته فقط . بعيد عن أي تكلف وتظاهر ، صلب ، قوي الارادة ، خال من أية عادات مثيرة للفضول ، يملك قدرة هائلة على تفسير اعقــد الحقائق بأبسط العبارات ، وعلى تحليل كل وضع تحليلاً دقيقاً » .

ان هذه الشخصية الانسانية الفريدة في قربها بشكل غير مألوف من قلوب الملايين من الجماهير الكادحة ، تلك الجماهير التي كانت تقول بحق « لينين هو نحن » ، هذه الشخصية التي قطعت الآن الشوط التاريخي الذي لا تخضع

(١) انظر « فكر لينين » لهنري لوفيفر ص ٧٦

أهميته العظيمة للجدل ، مثلما لا تخضع للجدل حقيقة ان بلاده -الاتحاد السوفييتي- وربما بلاد العالم - وهذه الـ «ربما» تجنباً للمغالاة - لم تقدم حتى الآن مثيلاً له ، اقول ان هذه الشخصية التي وصفها جون ريد ، الصحفي الأميركي بالعبقرية ، ليس من اليسير النفاذ الى سر عبقريتها ، وابراز الملامح الاساسية لها ، وذلك أنه «عندما يظهر في تاريخ الانسانية - كما يقول كرجيجانوفسكي - اناس يضيئون طريق الحياة للآخرين ، مثل منارات من نور ، وحين نصف هؤلاء الناس بالعباقرة نعجز ، في بعض الأحيان ، في محاولاتنا لتفسير عبقريتهم» .

وقد كان بوسعي أن أمضي معكم في هذا التوليف لاظهار عظمة لينين الانسان ، غير أن ذلك يكون ضرورياً ، حين يكون ثمة شك ، أو حاجة الى البرهنة ، على هذه العظمة . وأحسب أن الموضوع ، من هذه الناحية ، قد أعطى فيه التاريخ حكمه ، وما بقي أن نتامس ، لا سر العبقرية وحدها ، بل سر الانسانية في شخصية جمعت صفتين قلما تجتمعان ، بمثل هذا الاكتمال في شخصية انسانية واحدة ، لهذا أتساءل : اذا كان من المستحيل قيام حركة ثورية بدون نظرية ثورية ، فهل يصح قيام موقف انساني بدون نظرة انسانية ؟

الجواب : لا ، وفي ذهني التكوين الخـــاص ، البيئي والفيزيولوجي ، لانسانية الانسان . وأكرر : لا ، لأن النظرة الانسانية ، هي ذاتها ، حصيلة معرفية ، ونتاج موقف من العالم الانساني ، وبدون حب صادق للانسانية ، نابع عن فهم مطامحها ، والاستعداد للنضال ، بتفان ونكران ذات ، والى درجة التضحية ، في سبيل هـذه المطامح والمصالح ، يظل الموقف الانساني عضوياً ، مترجرجاً ، عرضة للتقلب ، ما دام لا ينبع من مبدأ ولا يملك ثباته . وهنا أسمح لنفسي ، دون أي تحفظ ، أن اضع شارة التشديد ، تحت كلمة الاشتراكية

باعتبارها المنبع الأساسي الثابت ، الذي لا ينضب ، للنظرة الانسانية بعامة ، والنظرة لينين الانسانية بخاصة .

في ملاحظات كروبسكايا عن زوجها ، هذه العبارات : « كان لينين ماركسياً ثورياً ، مؤمناً بالروح الجماعية من أعماق روحه . وكانت حياته كلها ، ونشاطه كله ، موقوفين على غاية واحدة عظيمة : النضال في سبيل انتصار الاشتراكية . وقد ترك هذا أثره على جميع مشاعره وأفكاره . كانت غريبة عليه التوافه ، والحسد الرخيص ، والحقد ، وحب الانتقام ، والغرور ، وهي صفات يتميز بها كثيراً الفرديون من ذوي الملكات الصغيرة » .

ويلاحظ المهندس المعماري ايفان جولتوفسكي : ان الود الكبير ، والانتباه الحساس ، والأناة التي كان لينين يصغي بها الى محدثه ، والذهن الحي اليقظ ، كانت تجعل من لقاءاتي منه ، أحداثاً سعيدة من أحداث حياتي ! كان يحب أن يجلس قرب محدثه ، فيكتسب حديث الأعمال الأكثر جدية معه ، طابع حديث ودي حميم . ولدى اصغائي الى لينين رأيت بعين التصور ، منذ ذلك الحين ، اية مدينة جميلة ستصبح موسكو .

أما اندريه أندرييف ، رجل الدولة السوفياتي البارز ، فيقول : « حين كان يخطب لينين في المؤتمرات ، ويقابل بعاصفة من التصفيق ، يرتبك هذا الرجل العظيم . وبكل بساطة ، كان لا يعرف ماينبغي فعله خلال هذا الوقت وهو على المنصة . فيظهر ساعة يده للمندوبين ، لتذكيرهم أن هناك وقت يضيع . إلا أن عواصف التصفيق تستأنف بصورة أشد ، فيخرج منديله دون أية ضرورة ، أو يبحث عن شيء ما في جيب سترته ، وهذا الارتباك أمام التكريم الموجه لشخصه كان مميزاً للينين الذي كانت سماته العبقرية تمتزج ببساطة وتواضع لا مثيل لها » .

وبخلاف الارتباك أمام المديح والتكريم الشخصي ، كان الهدوء والحسم من أبرز سماته أمام مهمات العمل الثوري . وخلال ثورة اكتوبر ، حين كان الثائرون يبحثون ، حائرين ، عن كيفية ارسال البرقيات من محطة البرق الموجودة في يد الحكومة المؤقتة ، حسم لينين الموقف بقوله :

« القضية بسيطة ... نحتل مديرية البرق أولاً » وهكذا كان .

وفي تموز ۱۹۲۱ ، لدى انعقاد مؤتمر الكومنترن – دخل لينين المؤتمر متأخراً . ولكي لا يقطع خطاب أحـــد المندوبين ، وبستطيع تدوين بعض الملاحظات التي خطرت له ، سار بهدوء الى سلم المنصة وجلس على الدرجات، واضعاً حقيبته على ركبتيه ، وبضع أوراق فوقها ، وعكف على هذه « الطاولة » المرتجلة وراح يكتب سريعاً بقلمه الرصاصي ، فهب المصورون السوفييت والأجانب ، والتقطوا له الصورة المعروفة .

وأخيراً ، فإن لينين ، الابن البار لعائلته والصديق الصدوق للشغيلة ، والرفيق المخلص لأصحاب قضية : الاشتراكية ، كان زوجاً حنوناً وفياً لزوجه . وتكتب كروبسكايا في أيار ۱۹۲۳ ، ولينين تحت وطأة المرض الذي سيشتد عليه حتى الموت بعد بضعة أشهر ، فتقول « انني لا اعيش إلا لأن لينين يكون سعيداً برؤيتي كل صباح ، وهو يمسك بيدي ، وأحياناً نتبادل الحديث دون كلمات ، عن مختلف الأشياء التي لا يضيرها ان تكون بلا تسميات » .

وبتأثير رصاصات الاغتيال التي أطلقتها عليه « مثقفو »التحريفية المنشقة» ، وبقيت احداها في جسده ، تتدهور صحة لينين ، حتى يتوفى في ۲۱ كانون الثاني ۱۹۲٤ ، فيطير النبأ الأليم ، ويحس الناس ، في كل مكان ، بالألم الممض ، لوفاة الانسان الذي كان عزيزاً عزيزاً على كل منهم .

لنترك لناظم حكمت ، الذي كان في موسكو آنذاك ، يرسم لنا لوحة احساس الناس بفقد هذا الانسان العزيز عليهم . ففي صورة الموت تبرز الصورة المقابلة للحياة ، يبرز من خلال الشعور بفداحة الفقد ، مقدار أهمية الوجود الذي كان فارتحل . يقول الشاعر التركي الكبير في روايته « الرومانتيكيون » : وصلنا الى قرب المكان الراقد فيه جثمان لينين . وطلعت من البوابات شاحنات . رجال . وسمعت صرخة . كان العديد من الأشخاص ، بالتأكيد قد صرخوا معاً ، أما أنا ، فخيل اليّ أنني سمعت صرخة واحدة . كأنن واحد صرخ ، أقوى من الشارع الواسع ، المشع ، الضاج بالحركة . أقوى من الليل والبرد : مات لينين. ماذا حدث بعد ذلك ؟ الاحداث رأيتها نتفاً ، وكذلك المسموعات. كانت الصحف تنتزع من أيـــدي الذين خرجوا من البوابات الخشبية . توقفت أمامي حافلة ترام . أصبحت خالية في لحظة . كل الحافلات توقفت . كلها خاليـــة . اني لا أسمع شيئاً . عجوز يبكي . ينتزع « قلبقه » ويضغط على قلبه . انه أصلع . وهو يبكي . الزحافات توقفت . الزحافات فارغة . فرغت دور السينما ، الجموع تبدو كأنها هاربة من طريق . والمطـــاعم والبيوت . كل شيء ينصت في الشارع . تغطت جادة تفرسكوي بالناس . يتجمعون ، يتدافعون حول بائعي الصحف . سائق ترام ، جالس على درجة الحافلة ، يبكي . اناس يرتمون بين أذرع بعضهم باكين . عجوز صغيرة ، مجعـــدة الوجه ، ملفوفة الرأس بشال ، تشدني من ذراعي . تقول لي شيئاً بفم أورد . لا أفهم ، أنحني نحوها . تسألني ، بصوت طفلة ، وخوف طفلة « لينين مات ؟ » أشير برأسي أن نعم : « مات.. » . أظن أنها سترسم الصليب ، لكن لا ، تترك ذراعي وتولول: « اية داهية حلت بنا ! » انها تردد : « اية داهيـــة ! اية داهية ، اية داهية ! » .

الصوت يزداد قوة ، يمتلىء ، يكبر ، كجني الحكايات الذي يطلع من الزجاجة السحرية ... يوم دفن جدي ، سمعت نحيب عشرة ، ربما عشرين ، في وقت واحد . يمكن تصور مئة شخص ينتحبون في لحظة واحدة ، لكن مدينة بكاملها تنتحب بصوت واحد ، صوت كهذا ليس في الامكان سماعه لأكثر من بضع دقائق ، أو ربما ، عندئذ ، نسمعه ، لكن الغريزة تدفعك الى عدم سماعه، لانقاذ أعصابك وعقلك ، لكي لاتجن ، فلا يعود هذا الصوت هو المسموع، بل انتحابات لانهاية لها ، ومن كل الجهات .

« نقل لينين الى قاعة الاعمدة ... من زوايا البلاد الاربعة ، تأتي القطارات بالناس الى موسكو . كل الذين يريدون رؤية لينين المرة الأخيرة . ونهايات الصفوف ، من الرجال والنساء ، صارت خارج المدينة . في الشوارع ، في الساحات ، ليلاً نهاراً ، تشتعل نيران هائلة . ليلاً نهاراً تتقدم صفوف البشر نحو صالة الأعمدة ..

« قيل لي : ستتولى الحرس أمام جثمان لينين ، خمس دقائق، ممثلا الجامعة . أذهب ، أشق طريقي بين الجموع . أصعد السلالم . في مكان مايعزفون اللحن الجنائزي .

ادخل غرفة رخام . أشياء مذهبة . مخمل أحمر . انها تغص بالناس . شغيلة . ضباط من الجيش الأحمر . فلاحون ملتحون ، بلا لحية . رجال . نساء ، من كل الأعمار ، من كل البيئات . يعزفون اللحن الجنائزي ، في الغرفة المجاورة لاشك ، وبعدة جوقات معاً . لاأحد يتكلم . كم من الوقت انتظرك؟ احدهم يقترب مني . يهمس : تعال ، يفتح بابا ، اللحن الجنائزي يصفعني على وجهي ، كالبحر الزاخر الواسع . أضواء يستحيل تخيلها ، وتحت الضوء موج بشري يتـــدفق . تتقدم .

كروبسكايا أول من أرى . واقفة أمام أكداس من الورد . شعرها شائب ؛ أملس ؛ مفروق . رداؤها مستقيم ؛ ذراعاها مسدلتان عيناها جاحظتان ؛ مفتحتان ؛ مثبتتان على نقطة . وحيث يتجه نظرها ؛ رأيت لينين . جبهته الصفراء ؛ يصعب تصديق كم هي عريضة ؛ محدبة مثل الكون . لينين ممدد . يداه على صدره ؛ في نعش مكشوف ... رجال يتولون الحرس . أقف جامداً عند رأس لينين والموج البشري يتدفق . لم تعد الغالية تبكي ؛ الآن ؛ الذي يحاذون لينين ؛ الذين يرون أمامه ؛ يتوقفون فجأة .... ثم يتقدمون تحت ضغط الآخرين . وحتى اللحظة التي يخرجون فيها من القاعة ؛ ورغم أنهم ماعادوا يرون شيئـــاً ؛ يبتعدون وهم ينظرون الى خلف ؛ بحـــارة يدخلون عن اليسار ؛ بدون معاطف ؛ صدورهم مكشوفة . الثلج يتساقط بغير شك ؛ لان اكتافهم ، قمصانهم ، بيضاء من الثلج ... انهم شبان ضخام ؛ أقوياء ، في غاية الصلابة ؛ يتقدمون بصفوف متراصة . عريف ، على رأس مجموعته ، يتوقف عندما يصل الى محاذاة النعش ، يصرخ : « آه يا أمي ! » وينهار . البحارة يحملون عريفهم ؛ يتابعون مسيرتهم ؛ وعيونهم مغرورقة بالدمع . أما أنا ، فكان انطباعي ان ما وراءهم من ناس ، هو البحر ... هنا فقط ؛ بدأت ألاحظ أن المُغمى عليهم يُحملون وينقلون . ألمح رأس لينين ، أو على الأصح جبهته العريضة . أسمع اللحن الجنائزي .. الموج البشري المستمر في التدفق لم يعد يثير اهتمامي . انظر الى لينين وأحس برغبة في البكاء . أسأل أنوشكا ، أيمكن البكاء أثناء تولي الحرس ؟ لا يهمني الجواب . احس برغبة في البكاء ... » .

لقد مات لينين . ولكن لينين قال : « كل الأمم ستأتي الى الاشتراكية ،

هذا أمر لا مفر منه ، و "الأمم ، واحدة بعد أخرى ، تأتي الى الاشتراكية ـ النبوءة تتحقق بحتم العلم ، وبرغم التحريفية التي تزعم أنها لن تتحقق ، وأن علينا تحت ستار « الانفتاح » ! و « التجديد » ! و « التطوير » ! أن توقف النضال ضد « الرأسمالية الاحتكارية للولايات المتحدة التي لن تأتي الى الاشتراكية » وأن نوقف بالتالي ، النضال ضد الاستعمار الذي هو أعلى مراحل الرأسمالية .

غارودي ، صاحب هذه الآراء في كتابه « التحول الكبير للاشتراكية » ينصحنا بالتسليم ... لماذا ؟ لأننا عاجزون في المعركة المشتركة والمتلازمة ، عن ازالة الرأسمالية الاحتكارية واستعمارها و « كل ما هو ممكن ـ يقول ـ أن نضغط في اتجاه رأسمالية ذات أهداف محددة للولايات المتحدة[١] » . أي أن نضغط باتجاه استعمار ذي أهداف محددة ، أي أن نتفاهم مع الرأسمالية والاستعمار ، نتصالح ، نتوافق ... نبقى تحت النير !

ولأن غارودي أخرج عملياً من صفوف الثوريين الفرنسيين ، كما أخرج قبله ، المناشفة والمحرفون من صفوف الثوريين الروس في عهد لينين ، تقوم في الغرب ، ونوعاً ما في البلدان العربية ، ضجة على اسم غارودي «القديس الشهيد!» . وتأسف الرأسمالية والاستعمار لأنه فقد موقعه داخل الصفوف الثورية ، فالرمي منها ، على لينين واللينينية كان أجدى .

ولكن لينين أقوى .. ولا فائدة من قطع الأشجار ولا من حفر الصدور لاستخراج القلوب ، فالجماهير وعت ، ولينين جـــاء الى الجماهير ، لا المناشفة

(١) راجع كتاب غارودي « التحول الكبير للاشتراكية » وخاصة الفصل الأخير منه .

ولا للمحرفين ، ولا للذين ، تحت غطاء « التجديد » يخفون « البضاعة » المنشفية القديمة .

لينين كان انساناً ، منفتحاً ، متجدداً ، متطوراً ، لكنه كان ، في كل ذلك ، لينينياً وماركسياً ، وهنا كل المسألة هنا مرتكز نبوءته القائلة : « كل الأمم ستأتي الى الحرية والاشتراكية وهذا أمر لا مفر منه » .

ولادة لينين

شوقي بغدادي
- الجزائر -

يعضني الا اغنيك بصوتي القديم
ما زلت يا لينين
على تفاؤلي المقيم
ثمة من أحب
ثم خين
ولم يزل يؤمن أن الحب
اقوى من الخيانه
لكنها الاهانه

لا بدّ ان تحفر اخدودا على الجبين
بلى .. بلى .. فانني ..
بالرغم مني عاشق حزين

* * *

ما اسهل القرع على الطبول
والنفخ في البوق بلا اصول
اقدر ان اقول
منتفخ الاوداج كالفحول
إني كسبت معظم المباريات
وان عندي أفخم الميداليات
وابهر الهواة
هواة جمع الطرف
بأن مجوعتي
انفس كلّ التحف
لكنني لست من الهواة
وانت لست رائد الغواة
الجامعين صور الامجاد
كأنها طوابع
والمقتنين بزة الجهاد
لموسم الاعياد
والمرافع

ثمة اشياء تمزقت
كيف احميها ؟
ثمة اصنام تحطمت
لا .. لست ارثيها
لكنني اين أواريها
فهل من الايمان
ان يهتف الانسان :
لم يك في الامكان
ابدع مما كان ؟

احببت يا لبنين كل الحب
آمنت بالجوى وبالمصب
وانه في مرجل الغضب
لا بدّ ان ينفجر اللهب
وان من طبيعة الأشياء
ان يولد الربان
من رحم الانواء
فهل تراها اصبحت عميقه
آلامنا العظيمه
اذ لم تلد سواك حتى الآن ؟
بلى ... بلى

لا يرجع النهر الى وراء
لكن ماءه يشح في متاهة الصحراء
وقد تغيّب المدى غياهب الظلماء
لا بدّ من حفّار
ونافخ في النار
ونجمة في افق التيار
لست اقول عد الى الرفاق
من يطلب المحال فهو ينشد الفراق
زواجنا الغالي بلا طلاق
ثمة في احشائها جنين
مثلك يا لينين
لكن اشهر الحمل غدت سنين

* * *

لا لست مؤمنا
بان طلقة الرصاص
تثقب صدغي
منفذ الى الخلاص
فانت في ذاكرتي
كالريح في هبوب
وانت في ذاكرة الشعوب
كالماء مشتاقا الى الوثوب

وعندما الكلام يبتذل
ويغلب المنتظر الملل
ينتصب المثل
مثلك المضروب
للعالم المغلوب
فتكتسي هياكل الكلام
لحما
وتنتشي العظام
بالرغبة الاولى من الغرام

* * *

لينين والأدب

د. أحمد سليمان الأحمد

قبل ان نحاول الالمام بموضوعنا الشامل – لينين والادب – لابد لنا من الاشارة الى ان اسم لينين قد غدا منذ زمن طويل يشع في صفحات الأدب بكل تألقه . وماتظن ثمة ادباً لم يتحدث عن لينين ، ولم يستلهم شخصه وأفكاره وأعماله .

هذه العبقرية النظرية والعملية التي كانت لينين ، قد وَسعَتْ مجالات متنوعة في الحياة ، بل وسعت الحياة نفسها . وليس في هذا أيّ مَيل الى نوع من تكريس عبادة الأفراد ، فما كان أقسى ذلك على نفس لينين ، وما كان أبعده عن مفاهيمه الاجتماعية . ولكن الانسانية تدين بالكثير لهذا الرجل الذي جعل من سيرته ومن فكرته هادياً ودليلاً للعمل ؛ وبهذا المفهوم كانت أفكاره أيضاً حافزة للعطاء ، والاجتهاد ، والاخلاص للجماهير الشعبية ، بينما كانت توطد الأسس المتينة للبناء ، وتفتح الأبواب العريضة على الابداع .

ومن الطبيعي ، ولينين قائدحزب ، ومنظم ثورة ، ونظريٌ ايديولوجية وموجه أمة ، ان ينظر الى الأدب والى الثقافة ، على وجه العموم ، من خلال هذه المهمة العظيمة التي أخذها على عاتقه ، والتي وقف عليها معرفته ودأبه واخلاصه وحماسته . وما كان لينين ، وهو الماركسي الذي جمع بين التطبيق الخلاق للماركسية ضمن ظروف جديدة معقدة ، وبين التطوير والاغناء من خلال نتائج وموضوعات جديدة على غاية من الأهمية ، ما كان له إلا أن ينطلق من موضوعة ماركس القائلة بأن « أساليب الانتاج الحياتي يحدد عمليات الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية عموماً . وليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم ، وانما بينهم الاجتماعية هي التي تحدد وعيهم » . أي أن الوعي والأفكار والمشاعر والعقائد انما تنعكس عن الوجود وعن طريقة الحياة .

كان لينين ماركسياً في تفسيره للأدب والفن ، ولم يكن بحاجة الى اقامة قوانين جديدة لعلم الجمال . ولكن لابد له من تطوير وتعميق واغناء موضوعات ماركس وانجلز الأساسية في علم الجمال ، كي لايغدو هذا العلم بدوره عقيدة جامدة منطوية على ذاتها .

والحق أن لينين لم يصل الى الماركسية دفعة واحدة . فقد قرأ قبل ذلك مؤلفات الكلاسيكيين الروس العظام مثل تورغنيف[1] وتولستوي[2]

(١) ايفان تورغنيف (١٨١٨ — ١٨٨٣) كاتب روسي كبير ، كان واحداً من أفضل الروائيين الذين رسموا لوحة الحياة الشعبية الروسية . أشهر مؤلفاته « آباء وأبناء » و « حكايات صياد » .

(٢) ليون تولستوي : (١٨٢٨ — ١٩١٠) كاتب روسي كبير ، مؤلف « الحرب والسلم » و « آنا كارنينا » و « البعث » . تميز برسم الاخلاق الروسية كمصور النفس الروسية بعمق وأصالة .

وتشيرنيشيفسكي[١] . ولم يكتف باطلاعه ودراسته العميقة لهؤلاء الكلاسيكيين الذين غدا يعرفهم جيداً ، بل امتدت معرفته حتى شملت الأدب العالمي . وقبل التعرف الى أعمال ماركس ، وقبل وعيها ، وجد لينين أساتذته الأوائل في أعمال الديموقراطيين الثوريين الروس وخاصة تشيرنيشيفسكي الذي كان دليله الى معرفته المادية الفلسفية ، والى استشفاف دور « هيجل[٢] » لأول مرة في تطوير الفكر الفلسفي ، ومن خلال تشيرنيشيفسكي فهم المنهج الديالكتيكي ، وكان سهلاً عليه بعد ذلك معرفة ديالكتيك ماركس .

قرأ لينين كل أعمال تشيرنيشيفسكي حول الأدب والفن ، كما أن تحليل الديموقراطي الثوري « دوبرولوبوف »[٣] لأعمال « غونتشاروف »[٤] و « تورغنيف » قد ترك في نفسه أثراً ساحراً عميقاً . وكان يهتم كثيراً بآراء « بيلنسكي »[٥] و « شيدرين »[٦] الجمالية النقدية والاجتماعية . كل هذا يدل على انه قبل أن يتعرف الى أعمال ماركس وانجلز كان لديه منهج جمالي قدمه له نظريو

(١) تشيرنيشيفسكي : (١٨٢٨ – ١٨٨٩) ديموقراطي ثوري روسي كبير ، كاتب وفيلسوف مادي .

(٢) هيجل : (١٧٧٠ – ١٨٣١) فيلسوف ألماني مثالي موضوعي ، قام بتحليل مفصل عميق للديالكتيك ، الشيء الذي ألف فيما بعد أحد المصادر النظرية للمادية الديالكتيكية .

(٣) دوبرولوبوف (١٨٣٦ – ١٨٦١) ديموقراطي ثوري روسي عظيم ، فيلسوف مادي ، وناقد أدبي .

(٤) غونتشاروف : (١٨١٢ – ١٨٩١) روائي روسي .

(٥) بيلنسكي : (١٨١١ – ١٨٤٨) ناقد وفيلسوف روسي ، ديموقراطي ثوري ، لعب دوراً كبيراً في تاريخ الرأي العام وعلم الجمال .

(٦) شيدرين : (١٨٢٦ – ١٨٨٩) كاتب وناقد روسي ، ديموقراطي ثوري .

الثورة الديموقراطية الروسية ، ومعلوم أن علم الجمال لدى هؤلاء الأفذاذ انما هو قمة التطور في الفكر المادي الجمالي فيما قبل ظهور الماركسية . أما فيما بعد ، فقد بدا لينين مؤسس منهج نظري جمالي (من خلال أعماله النظرية الأساسية والتقارير العديدة حول الأدب والفن) يستكمل ويعمق موضوعات ماركس وانجلز في هذا المجال المعقد من مجالات الحياة الفكرية الانسانية ، ضمن الشروط الاجتماعية الجديدة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

لقد كان لماركس وانجلز فضل تبيين وشرح القوانين التي تحرك المجتمع وتغيره . كما أرسيا قاعدة نظرية المعرفة التي أكب عليها لينين وتوسّع فيها . وقد سمحت هذه النظرية باعطاء فكرة علمية حقيقية عن الفن كانتاج للمعرفة، متميز عن غيره من الانتاج الفكري . وهكذا فان تفهم الفن ، من خلال ذلك، بكل عمقه وتنوعه وتناقضاته وخصائصه ، يتيح لنا رؤية العبقرية الانسانية في أعمال مبدعين من مختلف المدارس والمناهج والأساليب . ولكن القاسم المشترك في تقييم العمل الابداعي يظل منطلقاً من كون هذا العمل الأدبي ذا أهمية للمجتمع، وبذلك استطاع لينين من جهة أن يرى كل النواحي الايجابية والابداعية في الأدب على اختلاف ألوانه ، وفي الوقت ذاته ان يؤكد أن كل عمل عبقري، أو كل عبقرية — مهما كان انتاؤها الطبقي — لابد أن تكون — بشكل من الأشكال — مرآة لعصرها كما كان « تولستوي مرآة الثورة الروسية » . ولكن مثل هذا يجب أن لا يجعلنا نغفل عن الجوانب الخاطئة والضعيفة الأخرى في سائر انتاج هؤلاء العباقرة . ومن الواجب علينا نقدها وتعريتها ، كي لا تكون سبيلًا الى ممارسة تأثير ضار على الشعب .

ويقترن اسهام لينين في علم الجمال الماركسي قبل كل شيء ، باكتشاف

نظرية الانعكاس وتطبيقها ، هذه النظرية التي عرضها بشكل واف في كتابه « المادية والنقد التجريبي » وبيّن ان أساس نظرية الانعكاس هو الاعتراف بموضوعية العالم الخارجي وانعكاسه في فكر الانسان . ومن هنا تتبين لنا رحابة افق لينين ، وتلك الحدود الضيقة التي تحرك بها بليخانوف[1] ولافارغ[2] عندما لم يعالجا الفن إلا كتعبير عن ميول الكاتب الطبقية . فبدأ الفن ، لا كانعكاس للواقع وانما كتجسيد مبسط لمختلف الأفكار وكترجمة بسيطة لها الى صيغة محسوسة .

وتنهض نظرية الانعكاس ـ كما بدت من خلال تحليل لينين لأعمال تولستوي مثلا ـ اساساً منهجياً ثابتاً في دراسة الماهية الجمالية للواقعية الاشتراكية .

إن قضايا الأدب التي درسها لينين في أعماله ، وذكرها في تقاريره وأحاديثه ، تحتفظ بكل جدتها وقوتها ، وتتسلسل في انسجام علمي . وهكذا يبرز أيضاً مذهبه حول وجود ثقافتين في كل أمة ذات مجتمع غير منسجم : ألا وهما الثقافة الديموقراطيـة الاشتراكيـة ، والثقافة البورجوازية الرجعية . ولا شك أن وعي هذه الازدواجية إنما هو ذو أهمية قصوى في مجال الفهم الصحيح لكيفية الاستفادة من التراث القومي .

ومن الطبيعي أن تكون العناصر الديموقراطية والاشتراكيـة في هذا

(١) بليخانوف : (١٨٥٦ ـ ١٩١٨) واحد من كبار المنظرين الماركسيين ودعاة الماركسية في روسيا . وقف عام ١٩٠٣ بجانب المنشفيك . وكان موقفه سلبياً من ثورة اكتوبر ، غير انه لم يسهم في المعركة ضد حكم السوفييت .

(٢) لافارغ (١٨٤٢ ـ ١٩١١) سياسي بارز في الحركة العمالية الفرنسية والاممية ، تلميذ كارل ماركس وصهره .

التراث ، هي الجزء الذي لا يجوز التخلي عنه أو نسيان القيم الجمالية والفكرية التي يحملها . لقد أكد لينين ضرورة « الاكتساب الفعلي للثقافة التي أنتجتها العلاقات الإجتماعية القديمة والتي تبقى هي أساس الاشتراكية المادي » . وكان لا بد هنا أن تبرز مشاكل من أخطر وأدق المشاكل التي ما تزال تعالج حتى الآن ، وما زال يدور حولها النقاش ، ونعتقد أن الفكر اللينيني قد قطع بها بشكل علمي ، واقعي ، ثوري صحيح .

كانت هناك إذن مشكلة القديم والجديد ، ومشكلة التراث ، ومشكلة انتماء الأديب او التزامه ، ومشكلة حرية الأديب ، ومشكلة علاقة الأديب بالجماهير ، ومشكلة الأممية والقومية ، ولكنها مشاكل يجب على الثورة وعلى الأدب أن يقولا كلمتهما فيها ، لأن في توضيح هذه المشاكل وفي وعيها وتطبيقها بشكلها الصحيح نجاحاً للثورة والأدب ، نجاحاً لجماهير الشعب .

إن كل ثورة لا بد أن تطمح الى التغيير ، والى التهديم ، ولكن لا بد لذلك أن يكون تحت شعار : في سبيل الأفضل والأجمل ؛ ولا بد له أيضاً – في سبيل التوصل الى نتائج صحيحة مجدية – أن يكون هناك أساس مبدئي ، علمي ، يحفز على هذه الأعمال ، وعلى هذه الأقوال . ومن هنا ثار لينين بدوره على تلك « الثورة » الفوضوية البلهاء الرامية الى قطع الصلة مع القديم ، والاقبال عليه بالتهديم . كان هناك اتجاه ينهض به أصحاب « الثقافة البروليتارية » الذين كانوا يدفعون التطور الثقافي في اتجاهات ومجالات ضيقة متعصبة . كانوا يقترحون برامج جريئة وساذجة لقطع كل علاقة بالتراث الجمالي – الثقافي الذي وصل الينا من الماضي ، ويدعون الى إبداع أدب بروليتاري محض ، حتى أنهم رفعوا شعار

قذف بوشكين (١) ورفاييل(٢) « من مركب العصر » ، وتهديم الآثار التاريخية وما الى ذلك ؛ بما يذكرنا بحركة « دادا »(٣) والحركة السريالية(٤) في فرنسا من حيث نتائجها المؤذية للأدب والمجتمع . ولكن لينين وقف في وجه كل محاولة للنيل من قيمة التراث الذي اصطفته الانسانية عبر القرون . ورفع المبدأ العلمي الحكيم : « علينا أن نبني على أساس » ، كما ان علينا أن نطلق بين الجماهير كل الأدب القديم الثوري ، بما فيه المحلي والعالمي . وسفّه تلك الاتجاهات التي تزعم بأنها من الثورة ، ودرع للثورة . وأبان أنّ على الثقافة البروليتارية أن تكون التطور المنطقي لمجمل المعارف التي صاغتها الانسانية إبان رزوحها تحت نير المجتمع الرأسمالي ، ومجتمع الملاكين العقاريين ، والمجتمع البيروقراطي . إن على هذه الثقافة الاتصال بكل ما هو هام في أدب الماضي ، على الصعيدين الجمالي والإجتماعي ، والارتباط بالشعب ولكن بمفهوم ثوري ، أي بنضال الشعب من أجل التحرر وبناء الاشتراكية .

ولقد شاهدت العشرينات من هذا القرن موجة عارمة تحمل مختلف التيارات الحديثة في الأدب والفن السوفييتيين كالمستقبلية(٥)

---

(١) بوشكين (١٧٩٩ – ١٨٣٧) الشاعر الكبير ومؤسس الأدب الروسي الحديث .

(٢) رفاييل (١٤٨٣ – ١٥٢٠) الرسام الايطالي المشهور . ترك مجموعة من اللوحات الخالدة مثل « العائلة المقدسة » و « البستانية الجميلة » . وكذلك مجموعة لا تضاهى من صور العذراء .

(٣) حركة دادا : مدرسة في الفن والأدب ظهرت حوالي ١٩١٩ وكانت ترمي الى الغاء كل علاقة بين الفكرة والتعبير للتوصل الى الواقع الأصيل .

(٤) السريالية : حركة أدبية وفنية ترمي الى التعبير عن الفكر الصرف ، وذلك باستبعاد كل منطق وكل اهتمام جمالي وخلقي .

(٥) المستقبلية : مدرسة فنية حديثة تطمح الى جمع مشاعر الماضي والحاضر والمستقبل في لحظة واحدة .

والتكعيبية[1]. وكانت هذه التيارات قد جذبت اليها فنانين وأدباء موهوبين من الجيل الطالع المُشرف في حماسته لكل ماهو حديث، لكل ماهو من صنع العالم الجديد.

وكان فلاديمير ماياكوفسكي في طليعة هؤلاء المستقبليين. ولم يكن لينين براض عن هذه المرحلة في عطاء هذا الشاعر — الذي غدا فيما بعد شاعر الثورة الروسية.

وفي مذكرات غوركي التي كتبها عن لينين بعد وفاته نقرأ هذه الكلمات: «كان (أي لينين) لا يرتاح الى (شعر) ماياكوفسكي بل كان يغيظه فيقول: إنه (اي ماياكوفسكي) يصيح، يخترع لست أدري أي نوع من الكلمات الغريبة. ليس الأمر كذلك، في رأيي، ليس الأمر كذلك. إنه يكاد لا يُفهم. كل شيء مبعثر، صعب على القراءة. تقول (والخطاب موجـــه لغوركي) إنه موهوب؟ وحتى انه فائق الموهبة؟ سنرى إذن! ثم الا ترى بأنهم يكتبون كثيراً من الأشعار؟ اذ صفحات كاملة تعج بالأشعار وتكاد الدواوين تصدر كل يوم».

وجاء في كلمة كتبها لينين في السادس من آذار عام ١٩٢٢: «قرأتُ يومَ أمس في جريدة «ازفيستيا» قصيدة لماياكوفسكي حول موضوع سياسي. إني لا أعتبر نفسي في عداد المعجبين بموهبته الشعرية رغم أني لا أستطيع مجال من الأحوال اعتبار نفسي خبيراً في مجال الشعر ..... وأنا لا أستطيع الحكم عليها من الناحية الشعرية، أما من الناحية السياسية فاني على يقين بأنها قصيدة سليمة رائعة».

ولا بُدَّ لنا، ونحن بصدد ماياكوفسكي أن نذكر لقاء لينين مع طلاب المدرسة الفنية العليا بموسكو. سألهم لينين: ماذا تقرأون؟ هـــل تقرأون

(١) التكعيبية: مدرسة فنية حديثة ترمي الى اظهار الاشياء بأشكال هندسية.

بوشكين ؟ . ولعل هؤلاء الطلاب أرادوا إرضاء لينين ، أو لعلهم كانوا متأثرين أيضاً بوجة الجديد البروليتارية ، فأجابوا : كلا ، لقد كان (بوشكين) بورجوازياً . نحن نقرأ ماياكوفسكي . وابتسم لينين وقال : رأيي أن بوشكين أفضل » .

واضح من كل ما ذكرناه أن لينين – وان كان يشدّدُ على عدم خبرته في الشعر أو في غيره من الفنون – لا يخفي عدم ارتياحه الى هؤلاء المتطرفين المتنكرين للثقافة التقليد في مجال الشكل وفي مجال المضمون أيضاً . وقد ذكرت الكاتبة الألمانية : كلارا زيتكين[1] ، في حديث لها مع لينين عن طرق تطور الحضارة المعاصرة أنه قال : « إننا « نهدم » أكثر من اللزوم في ميدان الرسم . فالجميل ينبغي الحفاظ عليه واتخاذه مثالاً وقدوة والانطلاق منه حتى وان كان « قديماً » . لماذا يتحتم علينا أن ندير ظهورنا لما هو جميل حقاً وفعلاً ونرفضه كنقطة انطلاق لتطورنا في المستقبل لمجرد أنه « قديم » ؟ ولماذا تنبغي عبادة الجديد لمجرد أنه « جديد » ؟ هذا غير معقول ، بل هو جهل مطبق ! وهنا يختفي قدر كبير من النفاق بل ومن الإجلال غير الواعي ، بالطبع ، للأزياء الغنية السائدة في أوروبا الغربية . نحن ثوريون جيدون ، ولكننا نشعر لسبب ما بأننا ملزمون بأن نثبت أننا نقف نحن أيضاً في « مستوى الثقافة العصرية » . أما أنا فأملك الجرأة لأعلن بأني « همجي » ، ولا أعلن بأن التعبيرية والمستقبلية والتكعيبية وما شاكلها من التيارات أعلى ما توصلت اليه العبقرية الفنية » . ويخلص لينين الى النتيجة التي يرمي اليها ، الى التأكيد على دور الفن الاجتماعي والتربوي : « ولكن

(١) كلارا زيتكين : (١٨٥٧ – ١٩٣٣) مناضلة عمالية المانية ، وأمينة حر موقة ، كانت في عداد مؤسسي الحزب الشيوعي الالماني .

المهم ليس رأينا في الفن ، والمهم كذلك ليس ما يقدمه الفن لبضعة مئات وحتى لبضعة آلاف من مجموع السكان الذين يُعَدُّون بالملايين ... ذلك لأن الفن ملك للشعب وعليه أن يمد جذوره الى أعمق أعماق الجماهير الكادحة الغفيرة كما يجب أن تفهمه هذه الجماهير وأن تحبه » .

كان لينين عندما يفكر بالأدب وبالفن إنما يضع نصب عينيه الشعب . كان كل ما يعمل ، وكل ما يفكر به ، له بطل واحد هو الجماهير الشعبية الكادحة . وكان يرى أن الثورة الثقافية لابد لها أن تسير مع الثورة السياسية والاجتماعية كي يغدو البلد اشتراكيا . كان قد توصل الى اكتشاف الطبيعة الاجتماعية في الفن ، والى ارتباط هذا الفن بالتطور المادي للمجتمع . فاذاما سُلّط الفكر الديالكتيكي على هذه الموضوعة كان الفن بدوره وسيلة لتوعية الشغيلة ، لتربية الجماهير الكادحة بالايديولوجية الأكثر تقدمية في عصرنا ، بالاشتراكية العلمية . واذا ما ألحنا وراء هذا الفكر الديالكتيكي توضح لنا أن لينين لم يكن يعتقد أن على الثقافة عموماً أن تتحرك وحدها فقط باتجاه الجماهير الشعبية ، وإنما على هذه الجماهير أن تتحرك أيضاً باتجـــاه الأدب ، ويكون ذلك بخوض نضال دائب ضد النظام الاجتماعي الذي فرض حياة الجهل والبؤس والعمل الشاق . وهذا أيضاً معناه التركيز على التعليم ، ورفع مستوى المعرفة بين الجماهير لأن المهم أن يصل الأدب الى الناس جميعاً ، ثم تكون هناك عمليـــة إغناء متبادلة . وهكذا يقترب الأدب من الشعب ، والشعب من الأدب . وعلى الشعب أن لايجهل أعمال عباقرته ، وعلى الكتّاب في المقابل أن يقدموا للجماهير أعمالا هامة ، نبيلة وانسانية . وهم إذ يقفون في صف الثورة الاشتراكية إنما يؤدون ديناً للثورة التي حررتهم هم أيضاً عندما حررت الشعب .

وهكذا تبرز نظرية لينين عن التحزب في الأدب ، أو الالتزام ، كمحور لمفاهيمه الجمالية . والالتزام كظاهرة اجتماعية ليس شيئاً آخر إلا النضال الواعي الذي يقوم به الأديب في سبيل مصالح طبقة معينة . ولكن مثل هـــذا النضال الايديولوجي في ذاته ليس أمراً مجرداً . انه صراع ثقــافتين : بورجوازية واشتراكية . ومن هنا العلاقة الوثيقة بين نظرية لينين عن الثقافة ونظريته عن التحزب في الأدب .

كان على الطبقة العاملة إذن أن تقدم إسهامها العظيم في بناء الثقافة . وعلى صفحات « الحياة الجديدة » عام ١٩٠٥ أثبت لينين « ايديولوجية العامل » صاحب الحياة الحقيقي والشرعي الوحيد » باعتبارها قوة محركة لتطوير الأدب الروسي . وعلى صفحات الجريدة نفسها شعّت ' كلماته بحماسة وواقعية : على الأدب أن يغدو أدباً متحزباً ، عليه أن يكون جزءاً من القضية الحزبية والبروليتارية العامة للنضال من أجل تغيير المجتمع تغييراً ثورياً . وارتفع هتافه : فليسقط الادباء غير المتحزبـــين ! . ان التحزب في الأدب هو ، حسب لينين ، أصلح طريق لبلوغ الموضوعية التي هي أحدُ الشروط الأساسية لتصوير الحياة تصويراً حقيقياً . ولكن أساس التجسد الفني لكل طبيعة انسانية يكمن في التطابق مع القوانين الموضوعية لكل تطور المعرفة ، ولما كان تحليل هذه القوانين قد قدمته نظرية الانعكاس ، فان هذه النظرية هي الأخرى مرتبطة بنظرية تحزب الأدب .

إن الانتقال الى مواقف الحزب في الأدب ، كما في الايديولوجية عموماً ، يتم — حسب لينين — عندما يدرك الأديب العلاقات بين الطبقـــات ولا يبقى أمامه إذ ذاك إلا أن يختار ويقف في صف هذه الطبقة أو تلك في مجابهة الأحداث . وبكلمة اخرى فان الأديب يجد نفسه أمام ضرورة اختيار سياسي . وهو يختار

حسب ما يمليه عليه واجبه الطبقي . لقد أثبت لينين في تعميقه للنظرية الماركسية في حرية الابداع، أنها تكمن من جهة ، في الوفاء الكامل للشعب ، للطبقةالعاملة ولقضية الاشتراكية ، ومن جهة اخرى في استخدام القوانين الموضوعية للمعرفة الفنيـــة . وينجم بالتالي عن هذا كون الانتماء في الأدب هو التعبير عن حرية الابداع الأصيلة .

ان الماركسية - اللينينية ترفض جميع الأقوال والنظريات القائلة بالحرية المجردة للابداع ، وبأن الفن فوق الطبقات ، وغير متحزب . لقد كان لينين يرى في هذه الصيحات والهاذية ، التعبير عن فردية بورجوازية ، ذلك لأنه في الواقع لايمكن أن توجد حرية حقيقية صحيحة في مجتمع قائم على سلطة المال ، وحيث تكون الجمـــاهير الكادحة حليفة البؤس بينما حفنة من الأغنياء تعيش عالة على المجتمع .

ومقابل الحرية بمفهومها التجريدي ذاك ينتصب مفهوم الأدب المتحزب ، أو إذا شئنا الأدب الملتزم ، على أنه الوحيد الذي يمكن أن يقدم للأديب حرية أصيلة غير وهمية إذا ما طبّق بشكل واع .

لقد كانت أعمال لينين في ميدان الأدب والفن مكملة ، ضمن شروط تاريخية جديدة، للنضال الايديولوجي الذي لاينلين والذي نهض به ماركس وانجلز ضد المفاهيم المثالية والبورجوازية حول طبيعة وأهداف الابداع ، وضد ضيق الافق في معالجة هذا الجانب الأساسي من الوجدان الاجتماعي . إن علم الجمال الماركسي - اللينيني لم يدْعُ مطلقاً الى نقل السياسة بخططها ومناوراتها نقلاً آلياً الى عالم كثير التميز في مجالات النشاط الانساني كالأدب . ولكن هذا العالم ،

ورغم تميزه ، لايعتبره علم الجمال الماركسي – اللينيني ظاهرة قائمة بمعزل عن القوانين الأساسية للتطور والنضال الاجتماعيين .

ويعبّر مبـــدأ الالتزام في الأدب ، الذي أعلنه لينين ، عن الرابطة الايديولوجية بين الفنان وبين مصالح الطبقة الأكثر تقدماً في المجتمع ، وإيمانها العميق بصحة أفكار الاشتراكية ، وعملها الخلاق الهادف الى تأكيد هذه الأفكار وانتصارها . ويتوضح التزام الفنان في التطابق الموضوعي بين الهامه العميق ، والاتجاه الاجتماعي في أعماله .

كان لينين يعتبر الأدب والفن وسيلة للمعرفة والتغييرات الثورية . وقد أبان أن الابداع الفني يكمن في عكس الحياة بشكل أمين في حركتها التاريخية ، وإغناء فكر الانسانية الثوري « بتجربة ونشاط البروليتاريا الاشتراكية » . ورأى في العلاقة التي لاتنفصم مع الواقع قانوناً رئيسياً للابداع الفني . ولاحظ لينين أن هناك انتهازيين من كل الاصناف يحبون هم أيضاً أن يتحدثوا عن ضرورة التثقف في مدرسة الحياة ، ولكنهم في الواقع يطفون على السطح ، متهيبين الاعماق في جبن ورياء « متخلفين » عن مـــد الثورة الجبار الذي يعبر عن أعمق حاجات الحياة ، والذي يمس المصالح الاكثر جذرية للجماهير الشعبية » .

لقد نظر لينين الى مسألة الالتزام من خلال علاقتها العضوية بحرية الابداع . فالقانون الموضوعي للفن يعني أن حق الفنان في اختيار حر يقتضي ، كنتيجـــة طبيعية ، وجوب ممارسة هذا الحق انطلاقاً من « تعليمات التاريخ الصارمة ، في مصلحة المجتمع ، في مصلحة الشعب . ذلك لان الحياة وسط المجتمع وعدم التأثر به أمر مستحيل كما يقول لينين . والماركسية ، اذ تعترف بالطابع المتميز للابداع

الفني ، فانها لاتنظر الى ذلك نظرة اطلاق وتجريد والا لانفتحت الطريق عريضة أمام الفوضى ، وأمام الذاتية .

إن التأثيرات الفوضوية – الذاتية التي تبعد الفنان عن الحياة الحقيقية ، عن النضال الاجتماعي ، هي العدو الحقيقي للحرية الخلاقة ، كما أبان لينين . والفوضوية والفردية متنافيتان مع طبيعة الاشتراكية ومُثلها . ولا شك أن هذا القانون الجمالي – قانون الالتزام أو التحزب في الأدب – قد أثار تقولات وانتقادات عديدة ، وما زال يثير . ورأى فيه بعض النظريين وضعاً لإلهام الفنانين تحت وصاية حزبية ، كما رأوا أن التشبث بأفكار معينة يعكس نتائج غير محمودة على الابداع الفني ، وأن الالتزام يجعل من الأدب نقلاً للأفكار الاجتماعية والسياسية وغيرها ، ونفياً للخيال ، وتقييداً وإفقاراً للاشكال الفنية .

قبل كل شيء ، نريد الاشارة الى أننا لا نزعم بأن كل ما كتب بروح الالتزام إنما هو شيء ذو قيمة جمالية ، بل نذهب الى ابعد من ذلك فنزعم أن كثيراً مما كتب بهذه الروح – في مرحلة معينة تمتد أو تقصر – لم يكن ليرتفع كثيراً أو قليلاً عن كثير او قليل من المقالات السياسية او الخطب الدعائية . ولكن لو أعملنا الفكر الديالكتيكي لوجدنا ايضاً أن كل ما كتب بروح « الحرية » المقنعة ليس ايضاً هو الآخر بالشيء ذي القيمة . والأمر يتعلق ، الى مدى بعيد ، بالموهبة والاستعداد الذاتي ، وما نعتقد أن علم الجمال الماركسي – اللينيني قد اغفل ذلك بل لقد أكد عليه اكثر من مرة ، وإن كان قد أنزل الفائدة الاجتماعية والسياسية في المنزلة الاولى ، او بشكل اصح ، كان اكثر تأكيداً على الناحية الاجتماعية والسياسية .

وهنا لا بد لنا من جلاء شيء من هذه المفاهيم الفنية ، إذ أن حدود الأدب

لا تبدو أحياناً واضحة المعالم كثيراً ، او ليس ثمة من خط فاصل مستقيم يحدد هذه المعالم ، كأن نقول : ما وقع على يمين هذا الخط باطل ، وما وقع على يساره حق .

إن كل إبداع ادبي انما هو ذو علاقة وثيقة بالواقع ، حتى ان الخيال الأكثر جموحاً يغترف عناصر صوره ونماذجه من ينبوع الواقع . والانسان نفسه بكل حالاته النفسية ملك الواقع . فلا شيء أكثر واقعية من افكاره ومشاعره ، الأمر الذي يقودنا الى القول بأنه ليس ثمة ، في حقيقة الأمر ، نزاع اصلي بين العالم الذاتي والعالم الموضوعي ، وهذا الخصام يمحي ويزول بفضل شكل جديد من الواقع ألا وهو الواقع الاجتماعي ، هذا الواقع الجديد الذي يشكل خلاصة مركبة من الواقع الموضوعي والواقع الذاتي ، بينما يؤدي الوعي والوجدان الذاتيان الى تكوين وعي ووجدان اجتماعيين .

ولكن هذه الوحدة لا تكتسب قيمتها الحقيقية الا اذا تصورناها من خلال السمة الأساسية للواقع في شموله واتساعه ، وخاصة من خلال التطور والتغير، من خلال النشاط الابداعي الذي يهدف، بلا انقطاع، الى تجاوز الواقع المباشر ، وهكذا لا يمكن للعمل الادبي القيم أن يكون مجرد انعكاس للواقع ، كما يتمثل للحواس . إذ أن مثل هذا الواقع لا يعدو كونه استقرائياً وسطحياً . ان الكاتب الحقيقي يتغلغل عبر السطح، ويكتشف الخصائص الاساسية والعلائق الرئيسية . انه يندفع مع مد الواقع ، ويغوص على المعاني والموحيات المعقدة ، ويحملها الينا في انتاجه . وهكذا كان على المبدع أن يرينا الواقع ليس فقط كما هو ، بل كما يجب أن يكون .

من هذه العلاقة القائمة بين الكاتب وبين شتى مظاهر الواقع ينطلق معنى التيارات الادبية . انما من الخطأ أن يتصور المرء هذه التيارات دروباً منفصلة ، الواحدة عن الاخرى ، بشكل جذري . فكل كاتب يجد نفسه وجهاً لوجه مع مشاهد الواقع المتنوعة ، وبالتالي فان انتاجه يحمل ألواناً من هذه المشاهد، وليس ثمة من ابداع دون حركة داخلية ، وفي الوقت ذاته دون تأثر بالعالم الموضوعي . ان الفرق يكمن في غلبة هذا الوجه او ذاك من الواقع ، ولكن دون أن يستبعد الواحد الآخر نهائياً وبصورة قطعية . فاذا ما سيطرت الذاتية في الرومانسية فالصحيح ايضاً أن الرومانسية هي التي تكشف لنا الطبيعة في الادب وبشكل واسع . وهكذا نجد أن الواقعية في القرن التاسع عشر قد انطلقت من الرومانسية ، وهذا ما يفسر تلك المقاطع الرومانسية التي نشاهدها لدى كبار الواقعيين مثل بلزاك وفلوبير وستاندال ، وحتى الطبيعي - الواقعي إميل زولا .

إننا نود أن نشير ايضاً الى أن ظلمات الحياة - ولو كانت كثيفة كما رآها شوبنهاور وكافكا وبروست - فانها ايضاً تعج بالحياة ومنها تنبثق التطلعات نحو حياة افضل وأكثر ضياء . ويغدو القلق والاضطرابات العميقة دافعاً الى الانطلاق نحو الاعلى ، كما يسبغ ذلك على الحياة معنى ايجابياً ألا وهو معنى روحية العصر المستمرة .

لقد سخر لينين من مارتينوف [1] ومن كرتشيفسكي [2] عندما زعما بأنه لا ينبغي للماركسي أن يحلم . وفي الواقع ، فان النشاط الثوري - كما أكد

---

(١) مارتينوف : (١٨٦٥ - ١٩٣٥) أحد زعماء « الاقتصاديين » . كان منشفياً مرموقاً . وبعد ثورة اكتوبر انضم الى الحزب الشيوعي .

(٢) كرتشيفسكي : (١٨٠٦ - ١٩١٩) صحفي اجتماعي - ديمقراطي روسي وأحد زعماء المذهب الاقتصادي .

لينين - لا يمكن تصوره من دون أحلام ، وان الخيال ضروري للفنان والشاعر والعالم ايضاً . ودور الخيال - كما يراه لينين - يكمن في كونه وسيلة للتنبؤ بالسير الواقعي لتطور الأحداث التاريخية .

ان لينين لم يلغ اطلاقاً الجمالية في الادب الجماهيري، بل كان في جانب رفع المستوى للجماهير والادب . كان يقول لكلارا زيتكين ، الثورية الالمانية :

ان الثورة الثقافية في روسيا يجب أن تكون عملية ديالكتيكية جبارة لرفع المستوى الثقافي والجمالي لأوسع الجماهير الشعبية ، وفي الوقت ذاته يجب نصح وتوصية هؤلاء الذين يبدعون الثقافة ، هؤلاء الذين يبدعون الكنوز الجمالية ، بأن يأخذوا بعين الاعتبار ذوق الجماهير ومتطلباتها .

وكان لينين يستبعد ابتذال الثروات الثقافية والجمالية ، ومن جهة اخرى يناضل ضد ابعادها عن الشعب . هذه الستراتيجية لا يمكن أن تكون الا ديناميكية وصاعدة تحمل الجماهير على السير نحو قمم الفن والادب ، هذه القمم التي كانت امتيازاً لبعض الناس المختارين .

والى جانب موقف لينين من الأدب كان هناك موقفه من الأدباء ، كان يرى توفير الرعاية الدائمة والعناية البالغة للكتاب والفنانين . ولكن هذا يعني ايضاً ضرورة انتقادهم وتبيين أخطائهم ، ولقد وجد غوركي نفسه تحت تأثير بوغدانوف (١) .
وقد يكون دفعه الى ذلك ماعاناه من قلق أمام وضع فلاحي روسيا الأمين حتى

---

(١) بوغدانوف (١٨٧٣ - ١٩٢٨) فيلسوف واقتصادي وعالم اجتماعي اشتراكي ديمقراطي، رمى في ميدان الفلسفة الى توطيد طريقة خاصة Empiriomonisme وهي لون من فلسفة ذاتية - مثالية منطبقة مع مذهب الفيلسوف المثالي الذاتي ، النمساوي ماخ .

قاده ذلك ، خلال فترة من الزمن ، الى الاعتقاد بأن الجماهير الشعبية ستظل طويلا محتاجة الى قيادة من خارجها ، أي الى قيـــادة المثقفين . ولكن توجيهات لينين وانتقاداته الودية ساعدت غوركي كما ساعدت لوناتشارسكي (١) بعـد ذلك على الابتعاد عن الفئات المنحرفة . وقد رجع غوركي عن خطئه فيما بعد ، معترفاً بأننا نتعلم من أخطائنا كما يقول لينين .

ولا شك أن موقف لينين من الأدباء إنما هو جزء من موقفه من الأدب عامة ، وكلاهما متمم للآخر . لقـــد كان كثير الاهتمام بغوركي وبتطوره الايديولوجي وتفتح مواهبه ، بل وبتوزيع كتبه ووصولها الى جماهير العمال والفلاحين . وكان ينصحه بالتنقل عبر روسيا وبتأمل أعمال البناء الجديد في المدن والأرياف . وقد كتب غوركي « لقد كان موقفه (أي موقف لينين) حيالي ، موقف معلم صارم وصديق طيب ممتلىء بالعطف والعناية » .

وفي كابري ، حيث حل ضيفاً على غوركي ، قال لينين لبوغـــدانوف : « عليك ان تكتب رواية للعمال تظهر كيف ان الرأسماليين الكواسر قد نهبوا الأرض ، وبددوا البترول كله والحديد كله والخشب وكل الفحم . سيكون هذا كتاباً مفيداً للغاية أيها السيد الماخي (نسبة الى ماخ) (٢) » .

كان لينين « رغم ضخامـــة المهام الملقاة على عاتقه » يجد لديه الوقت

(١) لوناتشارسكي : (١٨٧٥ - ١٩٣٣) أديب روسي ، كان بلشفياً ثم انضم بعد ثورة ١٩٠٥ الى فريق « فبريود » المعادي للحزب الشيوعي. وبعد ثورة اكتوبر الاشتراكية غدا عضواً في الحزب الشيوعي ، ومفوضاً - أي وزيراً - للتعليم .

(٢) ماخ (١٨٣٨ - ١٩١٦) فيزيائي وفيلسوف نمساوي ، مثالي ذاتي وأحد مؤسسي المذهب (التجريبي - النقدي Empiriocriticisme) .

المطالعات الأدبية وللتأمل والنقد والتحليل في مجال الأدب. وقد قرأ رواية «الأم» لغوركي وأعجب بها ورأى في صدورها حدثاً ضخماً، ولكنه كان يرى بأن العيب الرئيسي في هذا الكتاب تلك الصورة الكاملة، المثالية التي عرضها غوركي للمثقفين الثوريين. وهذا يعني أنه، وان كان ينتقد بشدة المؤلفات التي تعبر عن روح متخاذلة غير سامية، فهو لا يرضى بأن ينطلق الكاتب مع أدب النفوس الجبارة الناهضة دوماً بأعباء الخير والصواب، المستعدة لاعطاء الجواب الجاهز الصحيح على جميع المشاكل المطروحة. وهكذا فإن على التفاؤل والبطولة، أن لا يغدوا سوقاً للتملق والانتهاز والسطحية. وقد قال لينين: «لسنا بحاجة الى متملقين، ومداحين، بل نحن بحاجة الى أن تقال لنا الحقيقة». وثار ايضاً على العبارات الفارغة الليبيرالية المبتذلة المطروقة مثل «صوت الانسانية المتمدنة»، و«الصدى العالمي الاجماعي»، و«أفكار الحقيقة والخير» الخ، هذه العبارات التي أضفاها النقد البورجوازي على تولستوي، في حين أن تولستوي كان قد هاجم، بحق، العلم البورجوازي لاستعماله إياها دون الاهتمام بالتحليل العلمي، ونضيف الى ذلك، دون التطرق الى مواقفه من الفلاحين، والى صلة ابداعه بخصائص ثورة ١٩٠٥ الروسية.

حقيقة أخرى لابد من ذكرها للينين ولنظرته الى الأدب ولمفهومه في الأدب، ألا وهي كونه لا يحب فرض رأيه في النواحي الجمالية، فكثيراً ما أشار الى أنه غير خبير في هذا المجال، وهو يتحاشى أحياناً أخرى أن يخوض فيه. وقد تحدث لونا تشارسكي – وكان أول وزير سوفييتي للتعليم – في مذكراته عن معرض أقيم لاختيار نصب تذكاري ينهض مكان تمثال القيصر الكسندر الثاني الذي حطمته الجماهير. وقد رافق الوزير لينين لمشاهدة النماذج المعروضة. وكان

لينين يتوقف طويلا أمامها ، يتفحصها ، ولا يبدي إعجابه بأي منها . ولما سئل عن رأيه بتمثال من صنع أحد الفنانين المستقبليين قال : « لست أفهم شيئاً في هذا النوع من الفن ، فاسألوا لونا تشارسكي . إنه أدرى مني بذلك » وعندما اعترف لونا تشارسكي بأنه لايجد بين هذه النماذج المعروضة مايستحق الاختيار، بدا الارتياح على وجه لينين وقال : « عجباً ، وأنا الذي كنت أخشى أن تختاروا احدى هذه الفزاعات المستقبلية » .

ومثل هذا جرى في معهد الفن التشكيلي بموسكو ، حيث كان يدرس شباب متحمسون للثورة وأهدافها ، مقبلون على الدراسة بكل ورومانسية الأحلام وأوهامها أيضاً . كانوا يساريين وكانت تجتذبهم التيارات « اليسارية » الحديثة في الفن . وكلما ازداد الفن ابتعاداً عن الفن التقليدي بما فيه الواقعي ازداد « ثورية » في نظرهم . وقد جرت بينهم وبين لينين احاديث على غاية من الأهمية والدلالة وغادرهم وهو منشرح النفس لهم ، معجب بهم وبمستوى وعيهم السياسي ، واثق من ان هذه الشبيبة ، وكل شبيبة مبدعة حقاً ، لا بد أن تتوصل ، عن طريق الحياة نفسها ، الى فهم الفن بشكل صحيح .

لم يكن لينين يؤمن بأساليب العنف أو القسر أو اللجوء الى استعداء السلطة في مقاومة التيارات الأدبية التي كان يرى ضررها وأذاها على فكر الشبيبة وعلى ابداعهم ومستقبلهم ، هم مستقبل الوطن . ولكنه كان يرى بأن المثال الصحيح ، المتفوق في الجمال والصدق ، جمال الشكل التعبيري وصدق المضمون الاجتماعي ، إنما هو وحده المخول بأن يقود المعركة في سبيل الانتصار على الزيف والغوغائية والتطرف غير الواعي وغير السليم في الأدب ؛ وهو ، هو الفن الواقعي.

وبهذا نفهم الكلمة التي كتبها لينين الى ميخائيل بوكروفسكي [1] متسائلاً : « ألا يمكن إيجاد بعض الفنانين المحترمين ممن يقاومون المستقبليين ؟ » . أي عليهم أن يقاوموهم بالتفوق عليهم في العطاء والإبداع .

بل لقد ذهب لينين إلى أبعد من ذلك ، فرأى في اجتذاب المثقفين البورجوازيين وكسبهم وتكوينهم الفكري من جديد إحدى مهام الثورة .

لقد دعم لينين جانب الواقعية ، لانطلاق أسسها من مبدئه الثوري العلمي ومن مصالح الشعب الثقافية ، ولأنه كان يرى في الأدب ، أو كان يرى أن الأدب يجب أن يكون حافزاً للتقدم ، مساعداً للثورة ؛ ولكنه ، رغم كل ذلك ، ما كان له ـ وهو الديالكتيكي التفكير ، وهو الذي نمى ذوقــه الأدبي بقراءة الكلاسيكيين الروس وغيرهم ـ إلا أن يقيم الأعمال التي يتوفر فيها الابداع من خلال الشكل الفني أو الخيال المجنح ـ كي نستخدم نحن أيضاً كلمة غير مسؤولة أو أنها تبدو كذلك ـ حتى ولو كان هذا الابداع لا يرمي الى محتوى ثوري . ففي أقسى أعوام الثورة ، كان يشاهد على مكتبه ديوان للشاعر الغنائي « توتشيف » ، وكان يقرأه ويعيد قراءته . وفي محادثاته مع غوركي ، الذي كان يحاول الدفاع عن بعض أبطاله بكون الشعب محتاجاً الى البطولي ، كان لينين يرى ان الغنائية ضرورية كما ان « تشيخوف » ضروري . كل ذلك يرينا رحابة الافق الذي كان يطل منه لينين على العناصر الفنية والظواهر الجمالية . ولكنه كان ، كمنظم وقائد للثورة ، وعلى رأس بلاد يحيط بها الأعداء من كل جانب وهي تجتاز مصاعب رهيبة ، أقول كان ـ وهذا منطقي ـ يقف في جانب الأدب الواقعي ، ماضياً وحاضراً . لقد أحب لينين بوشكين وتوتشيف وتشيرنيشفسكي حباً عظيماً ،

---

(1) بوكروفسكي : مؤرخ روسي كبير ومناضل اجتماعي بارز معاصر للينين .

ولكنه أحب نيكراسوف ، الشاعر البروليتاري ، وأراد لشعره أن يصل الى الجماهير لأن شعر نيكراسوف كان مساعداً للقائد الثوري في معركته الحاسمة. وبهذه الروحية رأى أن رواية « الأم » ضرورية ، لأن كثيراً من العمال الذين شاركوا في الحركة الثورية دون وعي متكامل لماهية الثورة ، أو بشكل مشوش فوضوي ، سيكون الآن بوسعهم أن يقرأوا « الأم » ويفيدوا منها.

وبهذه الروحية أيضاً كان لينين يقدر الشاعر داميان بيدني [1] ويهمه أن يصل صوت هذا الشاعر الى الجماهير والى المثقفين ، رغم علمه بأن فنه ليس هو ذلك الفن الرفيع السامي. ويعلل ذلك بأن الانسان في المعركة الصعبة يحرم أحياناً من بعض أشكال الجمال الفني ، كما يحرم من بعض الكماليات أو الحاجيات الضرورية. وفي جيش الأدب يجب أيضاً تجنيد الضروري قبل كل شيء والتأكيد عليه في النضال من أجل الاشتراكية.

وبهذا المفهوم كان لينين أيضاً يقدر بعض روايات الكتاب الشعبيين [2] – رغم اختلافه معهم في الأسس النظرية – فنراه يعجب بروايات غليب اوسبنسكي ويذكرها كنموذج لتصوير حياة العمال والفلاحين الفقراء ويعتبر كتاباتهم وثائق ثورية على غاية من الأهمية ، ومرد ذلك الى أن هؤلاء الشعبيين قد ذهبوا الى الشعب وعاشوا مع « الطبقات الدنيا » ، ودرسوا بدقة وتفصيل حياة العمال والفلاحين وصغار الحرفيين وجمعوا مواد غزيرة ثمينة.

لقد تكلم لينين عن انتماء الأديب ، عن التزامه ، عن « حزبيته » ، وانتقد بعنف جميع أنواع الزيف في التجديد الرامي الى انكار التقاليد الفنية. ووقف

---

(١) داميان بيدني (١٨٨٣ – ١٩٤٥) شاعر سوفياتي مرموق.
(٢) الشعبيون ، كانوا يرون ان مهمتهم في الأدب في الأوساط الشعبية.

بجزم ضد كل انفصال عن أبهى تقاليد الماضي . ولكن علينا أن نفرق هنا بين التقاليد البالية وبين التقاليد التقدمية . فالتقاليد التقدمية سلسلة لاتنفصم عراها من الاكتشافات البناءة العائدة الى مجددين أصبحوا ممثلي بعض التقاليد لأنهم فتشوا بجرأة ووجدوا طرقاً جديدة في الفن . والتقاليد التقدمية ذات أهمية كبرى لأنها تفتح آفاقاً واسعة على المستقبل . وهدف الأدب انما هو في أن يجمع بين الماضي والمستقبل . وعلينا كي نفهم الأدب المعاصر أن لانجهل الأدب الذي سبقه . فالمشعل يتوارثه جيل بعد جيل . وعلى الكاتب أن لايهمل تراث الماضي ، وعلى الكاتب أيضاً ، باعتباره من حفظة الثقافة ، أن يحيط بكل ابداعي وجميل في الآداب العالمية ، دون أن يألو جهداً في البحث المستديم عن ذلك . كما أن علينا أن نهاجم بقوة ، المحاولات الرجعية الهادفة الى فصل الثقافات وإظهارها بمظهر المنعزلة المتنافرة . والى هذا أشار لينين في قوله : « الحفـــاظ على التراث لايعني البتة الاقتصار على التراث » .

ولكن هناك أيضاً حقيقة أخرى تواكب هذه الحقيقة المتقدمة وتلازمها وهي أن الثقافة الأممية ليست ثقافة لا قومية فوق الأمم . ففي كل ثقافة قومية — كما أشار لينين — بعض عناصر ، ولو في شكل غير متطور ، من الثقافـــة الديموقراطية الاشتراكية .

وفي مجال الأدب ، كلما برزت الناحية القومية ، بكل غناها وجوانبها التقدمية كانت جذورها أعلق بالأممية . ولكن هذه العملية — مثل كل عملية ابداعية — بحاجة الى توفر شروط فنية وايديولوجية رفيعة صحيحة ، تتجلى من خلال ما عرضه علم الجمال الماركسي — اللينيني .

لقد كان لينين ، بحق ، انساناً عظيماً . لم يكن ذلك العظيم الذي تملأ

عليه عظمته كل شيء فيعود لايرى الناس أو يسمعهم ، ويعود لايتحدث الا الى نفسه ومعظله – كي نستعير الصورة التي رسمها غوركي لأمثال أولئك « العظماء » – ولكنه كان ذلك الرجل العظيم الذي تمتلىء نفسه بكل ماهو خلاق ومفيد في العلم والحياة ، فيفيض منه على الآخرين ويملأ نفوسهم بالنور ، ويفتح لهم آفاقاً ، دوماً جديدة ، إنسانية ، للبحث والتقدم والسعادة والجمال .

لينين والثورة الثقافية

للكاتب السوفييتي
د. أ. أرنولدوف [1]

الثقافات القادمة للانسانية ترتبط بعالم الاشتراكية . ويشهد التقدم الثقافي كله بان المجتمع يسير نحو الثقافة الشيوعية ، نحو حياة روحية تظهر فيها الملكات الابداعية لدى الانسان والانسانية ظهوراً كلياً وتخدم فيها القيم المادية والروحية جميع الناس .

والى لينين تعود مأثرة كونه قد دعم قانون الثورة الثقافية الموضوعي بالحجج . فلاول مرة في العلوم الاجتماعية ، ادخل لينين مفهوم « الثورة الثقافية » واوضح فيه المحتوى المحسوس للعمليات المعقدة في تطور الحياة الروحية في ظل الاشتراكية واستنبط المبادىء الاساسية للبناء الثقافي . ونوه بان الثورة الثقافية ليست مجموعة اجراءات محلية او سطحية فقال انها « ... ستكون مرحلة تاريخية كاملة وبدون هذه الفترة التاريخية لن نستطيع بلوغ هدفنا » .

(١) دكتور في الفلسفة

والثورة الثقافية قانون تاريخي موضوعي تخلقه الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتطور المجتمع . وكما هو معلوم ، تتحقق بعد انتصار الثورة الاشتراكية ثورة فكرية كبيرة ، في وجدان الناس : تتحقق قفزة نوعية في كل بنيـــة الحياة الروحية للمجتمع . واثناء هذه الفترة تتصف جميع الثغرات الحاصلة في الحيـــاة الروحية بصفة جذرية الى درجة جعلت لينين يصفها بأنها ثورة ثقافية .

وتكمن احدى خصائص الثورة الثقافية في كونها تبدأ بعد الثورة السياسية ، بعد اقامة سلطة البروليتاريا . ولما كانت شعبية بطبيعتها وطابعها، فانها تتحقق في الظروف التي تكفل فيها الدولة الاشتراكية المهمات الثقافية والتربوية الفعالة .

لقد تم — في وضع تاريخي معقد — تحرير شعوب البلاد السوفييتية من الجهل والخمول الفكري . وقد اثبت نصف القرن من الحياة الاشتراكية اثباتا ساطعاً صحة الطريق المختارة ، صحة السياسة اللينينية في تطوير الثقافة الاشتراكية .

واليوم يعيش ٢٥ ٪ من علماء العالم ويعملون في الاتحاد السوفييتي، حيث كان ٨٧٪ من السكان قبل الثورة اميين . ويحتل الاتحاد السوفييتي المكان العالمي الاول في نشر الكتب، وتكوين المهندسين والاطباء، وفي عدد الطلاب. ولكي نتصور كم ارتفع مستوى تعليم السوفييتيين، يكفي أن نستشهد برقم واحد، وهو أن ٧٦ مليون نسمة، اي اكثر من نصف السكان العاملين حاصلون على التعليم الثانوي والعالي .

ان العملية الثقافية تتسم في ظل الاشتراكية بوتائر عارمة، وبالاتساع الذي لم يسبق له مثيل في العمل الشعبي في جميع ميادين الحياة الروحية .

فقد نشر في ظل الحكم السوفييتي قرابة مليونين من الكتب والكراريس في اكثر من ثلاثين مليار نسخة . واليوم تطبع الكتب السوفييتية في ٨٩ لغة من لغات شعوب الاتحاد السوفييتي و ٥١ لغة اجنبية . واصبح اليوم، حتى اشد المتشككين ، مقتنعين بان الاشتراكية تخلق امكانيات خارقة لتطوير الثقافة لم يسبق لها مثيل . فحتى ألد خصوم الاشتراكية ، لا يستطيعون انكار ذلك .

لا يكون نشاط الناس الفكري تقدمياً، الا اذا كان يعكس الاتجاهات الموضوعية وحاجات التطور التاريخي ، الا عندما يفتح آفاقاً واسعة لتطور الشخصية وتفتحها .

فالتناقض الاساسي كعزل مبدعي الثقافة المادية — الجماهير الشعبية — عن استخدام القيم الفكرية بنشاط وعن اشتراكهم في حياة المجتمع الفكرية هو تناقض مميز للتشكيلات

التناحرية . ويظهر ذلك ايضـــاً في كون الدول البورجوازية تكبح التطور المادي والفكري — لشعوب المستعمرات والبلدان التابعة — كبحا اصطناعياً .

وقد اثبت مجرى الثورة الثقافية في الاتحاد السوفييتي، صحة الموضوعة الماركسية — اللينينية القائـــلة بان الجماهير الشعبية هي التي تخلق القيم المادية والروحية وليس بعض الاصفياء ، من « كهان الروح » . فالثورة الثقافية حركة شعبية واسعة للجماهير يظهر فيها الدور الخلاق الذي يلعبه الشعب بكل سطوعه .

وتطلع الثورة الثقافية الجماهير الشعبية على الثقافة ، وتغـــير دور الشعب تغييراً جذرياً بوصفه (الشعب) موضوع الحركة الثقافية والتاريخية . ولاول مرة في تاريخ البشرية ، يصبح الشعب مبدعاً — واعياً ونشيطاً — للثقافة .

اشار كارل ماركس وفلاديمير لينين ، الى ان وتائر التقدم الثقافي واتساعه وخصبه انما تتوقف على اتساع دائرة مبدعيه ونشاطهم. وتطور الجماهير الثقافي هو مصدر صيرورة المجتمع الجديد . ولهذا فان التقدم الثقافي لكل انسان — في تفتحه الكامل — ليس امنية طيبة فقط بل هو قانون عضوي خاص بالمجتمع الاشتراكي يحتم سيره نحو الشيوعية . فالنضال من اجل ثقافة عالية ، هو النضال من أجل الشيوعية .

وتجرى خـــلال الثورة الثقافية تصفية جهل الجماهير الشعبية والاحتكار الذي تمارسه « الطبقات المثقفة » المزعومة القديمة على النشاط الفكري، ويتم التغلب على التناقض بين العمل الفكري واليدوي، وتصبح الماركسية هي المفهوم عن العالم لدى كل مواطن، ويتفتح العلم والفن ويتمتع كل انسان بالقيم الثقافية .

في ظل الشيوعية ، تصبح درجة التطور الروحي لكل فرد في المجتمع ، ولاول مرة ، المؤشر المباشر للتطور الثقافي للمجتمع كله . ولدى الثقافة كل الامكانيات لنشر طبيعتها الانسانية . والثورة الثقافية هي الانتقال الى درجة اعلى في تقدم البشرية الثقافي، عندما يتم التغلب على انعزال الانسان في حياة المجتمع الثقافية . ان الثورة تؤدي الى تفتح قوى المجتمع الخلاقة .

وتفترض الثورة الثقافية ازالة التناقضات بين التقدم الثقافي للمجتمع كله، والتفتح الثقافي لكل فرد . انها توسع دائرة تأثير الانسان على حياة المجتمع توسيعاً لا حدود له، وتسهم في تأمين اسهام الجماهير في ادارة المجتمع باسم التقدم الاجتماعي . وهـــدف الثورة الثقافية النهـــائي ، تفتح الشخصية الكامل .

ان مساواة المجتمع الشيوعي بين الناس في مجال الثقافة، لا تكمن في كون أفكارهم موحدة وتدور دوراً فريداً في اطار أقوال « المعلم العظيم » ، بل في كون كل عضو من

المجتمع بسهم اسهاماً حراً ، على قدر قواه وقابلياته ، في تطوير ثروات المجتمع الثقافية . ان الاشتراكية تجمل لدى الانسان وعياً لقيمته الروحية والفكرية .

ان محاولات خصوم الماركسية تصوير الشيوعية على انها « ثكنة شاملة » تسوي بين الخصائص الفردية وتوحد حياة الانسان الروحية مفترضين تدخل المجتمع « تدخلا عنيفاً » في عالم الانسان الروحي ، هي محاولات بدون أساس .

والثقافة الجديدة التي تظهر اثناء عملية التحولات الثورية ، هي ثقافة اشتراكية بمحتواها . انها ثقافة أممية حقة ، تجمع الثقافات القومية للشعوب . كما ان القواعد المادية للثقافة الجديدة : المؤسسات التعليمية والعلمية ودور النشر والاذاعة والمسارح والمتاحف ودور الكتب والصحافة ، كلها ملك للشعب .

والقاعدة الايديولوجية للثقافة الاشتراكية ، هي النظرية الأكثر تقدمية لدى البشرية ، اعني المذهب الماركسي - اللينيني .. ويكمن التمييز المبدئي بين الثقافة الاشتراكية والثقافة البورجوازية في طابعها الشعبي ، في الطابع الحزبي البروليتاري وفي الانسانية الاشتراكية . في الانصهار المتناسق بين المثل العليا الوطنية والاممية ، في توارث خير ما ابدعته البشرية في الماضي .

والتوارث سمة هامة في الثورة الثقافية الاشتراكية . اذ ينبغي بناء مجتمع جديد واستيعاب الماركسية - اللينينية على اساس الاستفادة من كل ما ابدعته الحضارة الانسانية من ثمين وتطوير خلاق . وقد كتب لينين ان الماركسية قد « تمثلت ورتبت من جديد كل ما كان من ثمين في اكثر من الفي عام ، من تطور الفكر والثقافة الانسانية » . ان الثورة الثقافية الاشتراكية هي نفي للثقافة البورجوازية القديمة ، ولكنه نفي ديالكتيكي . فكما ان الثورة الاشتراكية عندما تهدم الرأسمالية لا ترفض القوى المنتجة التي ابدعتها هذه الرأسمالية ، كذلك الثقافة الاشتراكية لا ترفض كل ثقافة المجتمع بل تعيد تنظيمها بصورة خلاقة ، ناقدة ، وتستخدمها .

لقد قال لينين انه يجب النظر الى ثقافتين ، في كل ثقافة قومية في ظل الرأسمالية : من جهة ثقافة البورجوازية المسيطرة ، ومن جهة العناصر المتقدمة الى هذا الحد او ذاك من الثقافة الاشتراكية ، الديمقراطية . واسترشاداً بهذه الموضوعة اللينينية يأخذ الشغيلة الذين يبنون عالماً اشتراكياً جديداً كل ما هو ثمين وتقدمي في ثقافة المجتمع البورجوازي ،

ويستخدمون جميع المنجزات الكبرى التي حققتها الثقافة ، ثمرة خبرة عقول الماضي ، بغية بلوغ اهدافهم الابداعية . فبدون تمثل منجزات العهود السابقة وتطويرها الى الحد الاقصى ، لا يمكن التقدم نحو الشيوعية .

ان الثورة الثقافية الاشتراكية عملية معقدة متنوعة لتكوين افكار جديدة وثقافة جديدة . وتقوم المهمات الرئيسية للتطور الثقافي في المرحلة الراهنة – مرحلة البناء الشيوعي – على خلق مجتمع رفيع الثقافة تزول منه الفوارق الجوهرية بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، بين ثقافة المدينة وثقافة الريف ، مجتمع يصبح فيه المفهوم الاشتراكي عن العالم ملكا لكل فرد وحيث يتمتع كل انسان بامكانيات لا محدودة لتطوره الروحي والابداعي .

ويظهر بسطوع في الظروف الراهنة ازدياد اهتمام الجماهير بمضاعفة الثروات الفكرية وازدياد رغبتها في التعلم ، وهي صفة مميزة للحياة الفكرية لدى المجتمع السوفييتي ، صفة تنبأ بها لينين في زمانه . وهكذا فان البلاد كلها تتعلم اليوم كما كانت في الفترة الاولى من الثورة الثقافية ... غير انهم اليوم لا يتعلمون الابجدية ، بل يتمثلون ذرى العلم والفن ، وتجري عملية لم يسبق لها مثيل ، عملية تحول المجتمع الاشتراكي الى مجتمع مثقف .

ان عملية تفتح كل ثقافة اشتراكية قومية ، وتقاربها فيما بينها ، واغتنائها المتبادل ، تجري اليوم على نطاق البلد الواحد كما تجري على نطاق المنظومة الاشتراكية العالمية كلها ، وتبرهن صحة التنبؤ اللينيني بان الاشتراكية تخلق قاعدة لحياة ثقافية غنية وبانها ضمانة للعملية المتسارعة ، عملية التقارب الطوعي بين الامم .

في ظروف بناء الاشتراكية والشيوعية يصبح التقدم الثقافي ظاهرة معقدة غير مضمونة ضد التعرجات والارتجاجات . وقد قال لينين : ان الثورة علم حكيم ، صعب ، معقد . وينطبق هذا ايضا على الثورة الثقافية . ولتحقيقها بنجاح لا بد من العمل وفقا لمتطلبات القوانين الموضوعية للتقدم الاجتماعي والروحي . ذلك انه بالرغم من جميع الاحتكاكات فان الهدف الرئيسي للتحولات الاشتراكية في اي مجال من الحياة الاجتماعية يظل هو الانسان .

ان تطور الفرد المتعدد الاشكال هو الهدف والقيمة العليا للثقافة الشيوعية . واذا ما خرق هذا الشرط ، واذا ما ازدري بالقوانين الموضوعية ، فان المجتمع يمكن ان يفقد الظروف التي اكتسبتها الاشتراكية سابقا .

لقد برهنت تجربة ثورة اوكتوبر الاشتراكية الكبرى وثورات اشتراكية اخرى ،

كما برهن تاريخ المجتمع السوفييتي خلال نصف قرن ، ان مصير الحضارة وآفاق التطور الاجتماعي التقدمي تتوقف اكثر من اي وقت مضى على نشاط الجماهير ، تتوقف على وعيها ، على تمثل هذه الجماهير الخلاق للثقافة والمعارف .

وقد كتب رومان رولان في حينه ، بعد ان زار الاتحاد السوفييتي : « ان التقدم العالمي الحقيقي الوحيد ، يرتبط ارتباطا لا انفصام له بالاتحاد السوفييتي » . ان قوة مثال الشعب السوفييتي الذي يسير نحو الشيوعية ، هي احد العوامل الهامة التي تسهم في تطوير التقدم الثقافي العالمي .

بين لينين وغوركي

بدر الدين عرودكي

« هوذا الرجل الذي يجب أن نصغي إليه. إنه يقدم الأجوبة الصحيحة عن أهم الأسئلة. إنه يفكر بوضوح غير عادي، ويصوغ أفكاره بصفاء وجلاء »(١).

ذلك هو رأي غوركي الذي قاله يوم التقى بلينين لأول مرة. وليس ثمة ما يدعو إلى الاستغراب عندما يلخص غوركي انطباعه عن شخصية لينين بهذه الكلمات البسيطة الواضحة، التي تنطوي على معان عميقة لابد من أخذها بعين الاعتبار في مجال دراستنا لهذه العلاقة الرائعة بين الثوري المفكر والأديب الكاتب.

(١) A. MIASNIKOV, Oeuvres et opinions № 126, P. 144

بيد أن علينا ، بادىء ذي بدء ، ألا نتقبل بغير نقاش ، الرأي القائل بأن علاقة لينين بغوركي كانت علاقة مرب قاس بتلميذ طائش يملك بعض الموهبة . ذلك أن التسليم بهذا الرأي سوف يقود الى نتائج لا تتفق على الاطلاق مع حقيقة موقف لينين من الأدب والفن بشكل عام ، ومن غوركي كأديب وفنان بروليتاري بشكل خاص .

فقبل أن يلتقي الرجلان العظيمان، عرف كل منهما الآخر . عرف لينين غوركي، من خلال أعماله وكتبه ورواياته التي كانت ترصد مشاكل العمال والفقراء في روسيا القيصرية. وعرف غوركي لينين ، منذ أن برز لينين كماركسي ينادي بفكرة تحالف العمال والفلاحين من أجل إسقاط القيصرية ونظام حكم كبار مـــلاك الأراضي والبورجوازية في أوائل العقد الأخير من القرن الماضي . كلاهما عرف الآخر ، وكان اللقاء مجرد وسيلة لعمل مشترك مباشر ، يرمي الى غاية مشتركة ، هدف اليها الاثنان ، قبل أن يتعرف الواحد منهما على الآخر .

ولقد قدر لهذا اللقاء أن يتكرر ، وقدر لهـــذه الصداقة أن تستمر ، بل وأن تستمر حتى بعد موت الرجلين الكبيرين . فلقد استحالت بعد موتهما الى نبع ثر لا ينضب ، والى نموذج من العلاقة بين المفكر الثائر والأديب الثائر أولاً ، وبين رجل الدولة والحزب وأديب الطبقة العاملة من ثم ، قل أن نجد مثيلاً له في التاريخ .

فمنذ لقائهما الأول في عام ١٩٠٥ ، ومنذ ارتباطهما الحميم في عام ١٩٠٧ أثناء انعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي الاشتراكي في لندن ، بدأت سلسلة من الرسائل المتبادلة واللقاءات والمناقشات تعمل لتنمية هذه العلاقة الفريدة ، وجعلها نموذج صداقة فريدة . ذلك أن اعجاب كل منهما بالآخر ، لم يكن لمجرد مزايا شخصية يملكها كل منهما ، كما أنــه لم يكن اعجاباً عارضاً يؤدي الى علاقة عادية تنتهي بموت الرجلين وتموت بموتهما . كان اعجاباً له ما يبرره في اهتمامات كل منهما ، وفي مشاريعهما التي كانا يحققانها يوم تعارفا ، ويوم التقيا ، ويوم عملا معاً جنباً الى جنب ، وارتبطا برابطة انسانية وفكرية ونضالية .

منذ شبابه المبكر ، كان لينين يقرأ بنهم كل تراث الأدب الروسي الذي كان في رأيه « أداة من أدوات المعرفة .. فهو يعكس الحياة بكل عمقها وتنوعها وثرائها وبساطتها (٢) » وهي معرفة كان في مسيس الحاجة اليها ، وهو يتطلع الى مستقبل يشده العمل من أجله ويهديه الى وسائل هذا العمل. فالأدب هو الحياة وقد استحالت نظاماً من الوقائع البسيطة والعميقة والمتنوعة ، نظاماً يساعدنا على ازدياد معرفتنا بها ، ويسير بنا الخطوة الأولى

---

(٢) N. K. KROUPSKAIA, Lenine et Grki, P. 339

في مشروع تغييرها ...

.. أوليس الأدب الحقيقي هو الذي يطرح ، في التحليل الأخير ، مشاكل الحياة طرحاً صحيحاً ؟

ذلك مايؤدي اليه الاعتقاد بالأدب وسيلة من وسائل المعرفة . فمها كانت التجربة المباشرة للانسان ما قادرة على منحه معرفة بالحياة أكثر قرباً من الحياة ، فان معرفة أمة بأسرها لايمكن ان تقوم على شيء قياما على تمثل أدب هذه الأمة وتراثهـا في التاريخ . واذا كان لينين اكثر معاصرية فهماً لواقع بلاده ، ولمجريات الوقائع التاريخية فيها ، فلايعود ذلك الى تجربته المباشرة في الحياة اليومية وحسب ، وانما في تمثله لأدب بلاده تمثـلاً عميقاً أيضاً . ومن هنا فان السبب الذي دفع بلينين للعمل الثوري ، هو نفس السبب الذي دفعه للارتباط بغوركي انساناً وأديباً .

لقد كانت كتابات غوركي تنصب على العمال وسكان المدن الفقراء ، سكان الحضيض . وتلك هي الأوساط التي كانت تدفع لينين الى العمل الثوري ، والتي كانت تهمه كرجل تثر اكثر من أي شيء آخر . والرؤية الثورية الـتي كانت تقدمها كتابات غوركي لهذه الطبقات المسحوقة ، هي التي كانت كلمة البدء في هذه الصداقة التاريخية ، فالتقت رؤية الأديب برؤية الثوري ، وغدتا رؤية واحدة لدى الأديب والثوري معاً على الرغم من أن كلاً منها وصول اليها بوسائله الخاصة ، وعملا على تعميقها كل بوسيلته الخاصة أيضاً : غوركي عن طريق الأدب ، ولينين عن طريق النضال والكفاح اليومي في الحزب ، وفي الكتب ، وفي الصحف ، وفي العوالم السفلى بعيداً عن انظار مباحث القيصر .

واذا كان اعجاب لينين بغوركي ينبعث من اهتام هذا الأخير بالطبقات المسحوقة التي يهتم بها الأول ، فان اعجاب غوركي بلينين ينبعث من نقطة اخرى ، وان كانت تلتقي مع النقطة التي انبعث منها اعجاب لينين بغوركي في نهاية الأمر . فعندما التقى لينين بغوركي ، وكان ذلك في شهر تشرين الثاني ١٩٠٥ ، كانت روسيا تعيش ثورتها الأولى التي تصاعدت حركتها منذ ربيع ذلك العام ، وتحيا على عتبة انتفاضة عمال موسكو المسلحة التي كانت ذروة الاحداث الثورية ، حيث وصل لينين الى مدينة بطرسبرغ ليقود نضال الحزب الثوري بشكل مباشر . غير ان النضال الثوري كان يعاني من أزمات وانشقاقات بين أعضاء الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، تجلى في

المؤتمر الثالث للحزب الذي انعقد في لندن خلال شهر نيسان ١٩٠٥ ، حيث كان المؤتمر بلشفياً محضاً ، إذ أن المنشفيك قد عقدوا مجلساً لهم في جنيف ، مما دفع لينين الى القول يومها : مؤتمران...حزبان » .

كانت الآراء اذن تتصارع ، ولم يكن ثمة في الأفق القريب مايثبت صحة هذا الرأي أو ذاك في ذلك الوقت . لكن ، وعلى الرغم من أن الأحداث القادمة التي تصاعدت حتى بلغت ذروتها الكبرى في عام ١٩١٧ قد اثبتت صحة فهم لينين لمعطيات الحركة الثورية والوضع التاريخي في روسيا القيصرية ، فان غوركي ، قد استطاع ببصيرته النفاذة ، وقدرته على سبر أعماق الناس ، أن يتعرف في لينين رجل المستقبل ، هذا الرجل الذي كان يبدو في ذلك الوقت وحيداً بين جميع رفاقه المناضلين في اوساط الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، الأمر الذي دفع رفيقاً له هو « كرجيجا نوفسكي » الى أن يقول له : « وأخيراً ، انظر يافلاديمير ايليتش أي موقف سينشأ في واقع الأمر . إن الجميع سيقفون ضدك بحزم ، وحتى بين القلائل الذين يصوتون معك ، يوجد حسب رأيي أناس يقدمون على ذلك بشكل رئيسي ولاء لشخصك ، اذن فأنت واحد ضد الجميع (٣) » . لقد كان ذلك في عام ١٩٠٣ ، أي قبل سنتين من لقاء لينين بغوركي الذي قال عنه اثر لقائه الاول به : « هو ذا الرجل الذي يجب أن نستمع اليه » لقد كان ثمة كثير من الرجال ، وكان هناك الكثير من الآراء ، ولكن لينين هو أحقهم وأجدرهم بالاصغاء والاستماع . تلك بلا جدال ثمرة بصيرة تعرف مواطن الحقيقة في الرجال .

لقد انبعث هذا الاعجاب المتبادل بين لينين وغوركي اذن من اهتمام كل منهما بالمستقبل : مستقبل الملايين المسحوقة في روسيا وفي انحاء العالم الأخرى ، وهو اهتمام كرس له غوركي كل موهبته الأدبية وحياته ، ومنحه لينين حياته ، فلم يضن عليه بلحظة واحدة منها . غير ان هذا الاعجاب مالبث ان استحال نبع صداقة ، صداقة رفيقين يعملان في نفس الميدان ، وإن اختلفت أسلحة كل منهما . ولذلك ، كان لابد من أن يوضع هذا الاعجاب موضع اختبار عملي . إذ أنه اذا كان كل من لينين وغوركي يحملان نفس الاهتمام نحو الطبقات المسحوقة ، ويتطلعان الى نفس المستقبل المشرق للذي يعملان من أجله ، فقد كانت قدرة كل منهما على الرؤية تختلف عن الأخرى ، تماماً كما تختلف وسيلة كل منهما في المعرفة ، وكما انهما في الاصل رجلان لابد من ان يختلفا ، لكي يجدا وسيلة اللقاء من بعد ، في ضوء حقيقة موضوعية هي قوانين التاريخ والواقع العيني .

(٣) مجلة « الطليعة » – العدد (٤) نيسان ١٩٧٠ ص – ٣٦ – مقال : لينين.. انسان .

غير أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي أعطى العلاقة بين غوركي ولينين هذا الطابع الخاص . إذ أن فشل ثورة ١٩٠٥ قد أدى الى نوع من البلبلة الفكرية والسياسية تفشت كالوباء ، فكثرت الاتجاهات ضمن الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وتألفت مجموعات مختلفة ومتعارضة من المثقفين والمفكرين على امتداد القارة الأوربية ، سواء بين المفكرين المقيمين في روسيا، أو المقيمين في المهجر ، وكذلك في أوساط المثقفين في المانيا وفرنسا. وكانت فلسفة النقد التجريبي ، بدعة العصر آنذاك ، فجذبت الى حظيرتها عدداً كبيراً من المثقفين البلاشفة ، كونوا مجموعة عرفت باسم « الاوتزوفست » أو المقاطعين (٤) ، وكانت هناك طائفة أخرى أيضاً دعت الى ادخال بعض (القيم الدينية والانسانية) على الماركسية لاثرائها ، وقــد عرف هؤلاء باسم « البــاحثون عن الله » . وكان عدد كبير منهم يقيم في جزيرة كابري بايطاليا حيث كان يقيم غوركي . ولقد تأثر غوركي بهم الى الحد الذي جعله يدافع عن آرائهم في عديد من مقالاته ورسائله الى لينين، الذي كان يرى في كل هذه الاتجاهات التي أعقبت فشل ثورة ١٩٠٥ نوعاً من فلسفات البورجوازية الصغيرة ، التي كان على غوركي ألا يقع في حبائلها ، وهو الفنان البروليتاري الأصيل . ذلك مايؤدي بنا أيضاً الى تأكيد الفكرة السابقة التي عرضناها، وهي أن علاقة لينين بغوركي ، لم تكن مجرد علاقة انسانية خاصة ، وانما كانت علاقة ذات جذور موضوعية في أرض الواقع ، ارتبطت بالمرحلة التاريخية التي نمت فيها ، وبالمستقبل الذي ولدت بوحي منه .

وهكذا فان الفترة ما بين ١٩٠٧ ، ١٩٢٤ ؛ أي خلال سبعة عشر عامــاً من الزمان ، حفلت بوقائع هذه العلاقة التي عكست إلى حد كبير جانباً هاماً من جوانب نضال لينين الثوري على المستويين الفكري والعملي ، وجانباً آخر من واقع الحركة الثقافية في أوساط المثقفين الماركسيين الروس قبل الثورة ، وكذلك واقــع الحركة الثقافية في روسيا الاشتراكية خلال سبع سنوات عاشها لينين بعد انتصار الثورة في أكتوبر ١٩١٧ .

واذا كنا نريد أن نتحدث عن هذه العلاقة التي قامت بين لينين وغوركي ، فان بوسعنا اتباع أحد طريقين : فاما أن نلاحق تطور العلاقة عبر رسائلها المتبادلة بينهما وفق تسلسلها الزمني ، وهو طريق سوف يبعثر طرح القضايا التي تعرض لها كل منهما ، واما أن نتابع هذه القضايا بالذات من خلال الرسائل ، دون النظر الى تسلسلها التاريخي ،

---

(٤) Lénine et Gorki , Note № (54) et (61) , P. 383

مع الإنتباه لتاريخها ودلالته ، بحيث تتمكن من تلمس رؤية لينين الفلسفية والسياسية من جهة، ورؤيته للأدب والفن من جهة أخرى. كما تتجلى في رسائله الى غوركي ومواقفه منه ، متفحصين خلال ذلك ما كتبه معاصروهما عن هذه العلاقة . وذلك هو الطريق الذي اتبعناه في هذا الحديث عن علاقة لينين بغوركي ، وما أثارته من قضايا ومواقف تحدث بها التاريخ المعاصر .

* * *

لقد كانت أصول موقف لينين من هـذه المسائل تتجلى في مرحلتين تاريخيتين مختلفتين ومتكاملتين ، بحيث أنها أسهمتا في شق الطريق أمام هذه الاصول لكي تتنامى وتتكامل من بعده . كانت المرحلة الاولى هي المرحلة التي سبقت ثورة أكتوبر ، بكل ما حفلت به من نضال وكفاح ضد جميع أنواع الممارسات الخاطئة للنظرية الماركسية ، والتي كان أحد أبرز وجوهها قدرة لينين الخارقة على ملاحظة الفروق الدقيقة في ممارسة النضال الماركسي اليومي ، تلك القدرة التي كان يستطيع بها أن يرى الحاضر من خلال المستقبل - كما قال غوركي - والتي أسرعت بالحزب الديمقراطي الاشتراكي لتحقيق الثورة على القيصرية . لقد قال لينين : « على فوارق بسيطة قد يتوقف مستقبل الحزب الديمقراطي الاشتراكي لسنوات طويلة (٥) » . ولقد أثبتت الأحداث التاريخية فيما بعد أنه خبير بهذه الفوارق ، قادر على التنبه اليها والحيلولة دونها ودون تأخير مسيرة الحزب نحو الثورة الاشتراكية الكبرى .

أما المرحلة الثانية فقد كانت المرحلة التي تلت انتصار ثورة اكتوبر ، والتي اوجدت معطيات جديدة ، كانت تحتاج الى ممارسات جديدة كل الجدة ، وخاصة خـلال مرحلة الانتقال التي تعيشها كل ثورة ، ، وتواجه فيها عملية البناء الصعب .

خلال هاتين المرحلتين ، طرح الكثير من القضايا الفكرية والأدبية ، وكانت المراسلات بين لينين وغوركي تقدم صورة متكاملة عن هذه القضايا ، وموقف لينين منها . وأبرز هذه القضايا التي حفل بها قسم لابأس به من رسائل لينين الى غوركي ، قضايا الاتجاه الفلسفي الذي جذب عدداً من المثقفين البلاشفة وعرف باسم (المفاطمون) والذي كان أثراً من آثار فشل ثورة ١٩٠٥ من جهة ، ومشاكل المثقفين وعلاقتهم بالحزب والنضال البروليتاري من جهة ثانية ، وقضية الأدب البروليتاري ، والنقد الأدبي الذي يقوم بتوجيه الأدب نحو خدمة الطبقة العاملة وملايين العاملين .

(٥) لينين : ماالعمل ؟ - المقدمة . وكذلك Lénine et la philosophie, par Althusser

ولقد كان غوركي أقرب إلى تلك الفئة من المثقفين القائلين بضرورة إدخال بعض القيم الدينية والإنسانية على الماركسية، والذين عرفوا باسم «الباحثين عن الله». وهنا يمكن أن يثور تساؤل له ما يبرره في الحقيقة. إذ ما الذي يجعل من لينين خصماً لدوداً للاوتزفست وللباحثين عن الله، وبالتالي خصماً لغوركي الذي كان يدافع عن آرائهم، ويظل في الوقت نفسه محافظاً على صداقته لغوركي ؟ ثم ما الذي حال بين غوركي، وهو الأديب الثوري، وبين رؤية تلك الفروق البسيطة التي حفلت بها المرحلة التي أعقبت فشل ثورة ١٩٠٥، وعلى الأخص الفترة الممتدة بين ١٩٠٨–١٩١٣ ؟

لابد لنا لكي نمضي في متابعة موقف لينين من اتجاه غوركي خلال هذه المرحلة، وبالتالي موقفه من «المقاطعين» الذي بدت بعض آثاره في مراسلاته معه(٦)، من أن نجيب على هذين السؤالين.

لقد قام اتجاه «المقاطعين» كما قلنا على أنقاض فشل ثورة ١٩٠٥. وكان في جملة ما دعا إليه «اتخاذ إجراءات جذرية: كسحب الممثلين من مجلس الدوما، ورفض جميع وسائل العمل الشرعية والانتقال الفوري إلى أعمال العنف»(٧). وفي حين كان هذا الموقف يبدو متطرفاً في ظاهره من حيث موقعه السياسي في اليسار: إلا أنه –كما يقول لوي ألتوسير– كان يغطي مواقع عينية قام لينين بكشفها في كتابه «المادية والنقد التجريبي».

وكان غوركي، البورجوازي الصغير، الثوري، كما كان يسميه لينين، قد ارتبط ببعض هؤلاء، وخاصة منهم الذين عرفوا باسم «الباحثين عن الله». ولقد كان ارتباطه هذا، يلبي في بنيته الفكرية والنفسية، حاجة زرعتها جدته في نفسه منذ كان طفلاً تشرف على تربيته. فقد كانت تقية ورعة منحته كل الرعاية والحب، فأحبها غوركي حباً دفعه لأن يعتقد أن الإله الذي تعبده كان إلهاً طيباً على العكس من إله جده القاسي الفظ، الذي كان بلا أي شك إلهاً شريراً (٨)!.. هذا الإله الخيّر، إله جدته، استحال إلى حاجة للدين

(٦) تقدم رسائل لينين إلى غوركي في الحقيقة إرهاصات الموقف اللينيني من المقاطعين، وفلسفة النقد التجريبي التي يعتبر (ماخ) أحد مؤسسيها. إلا أن هذا الموقف قد تبلور تماماً في كتابه عن «المادية والنقد التجريبي» الذي صدر في عام ١٩٠٩.

(٧) Lénine et la philosophie . Luis Althusser

(٨) حنا مينه: غوركي والناس. مجلة (المعرفة) – العدد (٧٥).

لم يتمكن غوركي من التخلص منها في سن نضجه . وكان هذا الارتباط يستجيب ايضاً لنزعة غوركي الشاعرية التي كانت تفيض بها رؤيته للعالم والحياة . وتؤثر حتى على علاقاته اليومية مع الآخرين .

ولقد كان لينين يعرف ذلك كله عن غوركي، ويعرف ايضاً أنه كاتب ثوري أصيل، على الرغم من انه ينطلق في آرائه السياسية والفكرية من مواقع البورجوازية الصغيرة . وبعبارة اخرى، فان أصالة غوركي الثورية، تلك التي تجلت في اعماله الادبية، لم تكن موضع شك من لينين الذي كان له فضل اكتشافها والاسهام في تطويرها وتنميتها . وبالتالي، فقد كان لينين يرغب رغبة حارة بجذب غوركي نحو المواقع الثورية البروليتارية ، بعيداً عن مواقع البرورجوازية الصغيرة . وهي رغبة كانت تتأجج في سطور رسائله اليه ، وتلمع فيا بين هذه السطور على الرغم من كل العنف الذي كانت تفيض به أحياناً . واذا كان لينين لم يتمكن من رؤية ما يراه لينين فتلك مسألة تعود الى تكوين كل من الرجلين . كان لينين رجل الفروق الدقيقة بحق . تلك عبقريته التي أثبتتها الاحداث فيا بعد ، ومنحته ميزة لم يفز بها أي من معاصريه الذين كانوا يعملون معه ، وأعني بها القدرة على رؤية الحاضر من خلال المستقبل . وكان غوركي اديباً ثورياً ، وذلك بحكم حياته القاسية التي عاشها ، وشاعراً رقيقاً تحكم الرومانتيكية علاقته بالآخرين . ومن ناحية اخرى ، فقد كان ميدان عمل لينين هو الواقع الموضوعي المباشر ، ولم تكن اعماله الفكرية والسياسية الا جزءاً من الممارسة التي كان يقوم بها يومياً في اكثر من ميدان النضال الثوري . في حين أن مجال عمل غوركي كان تحويل الواقع الموضوعي الى واقع فني . وبعبارة اخرى ، فان فعالية لينين السياسيه كانت تسمح له ، بالاضافة الى مواهبه الشخصية ، برؤية هذه الفروق التي لم يكن غوركي قادراً على رؤيتها ، بسبب اختلاف فعاليته أساساً ، باعتبارها فعالية ادبية (٩). ذلك في الواقع جوهر الاختلاف بين الرجلين ، الأمر الذي ينفي الصفة التي اطلقت على علاقتها ، واعتبارها علاقة مرب قاس بتلميذ طائش . واذا كان غوركي نفسه قد وصف هذه العلاقة بعد ذلك بأنها كانت علاقة مرب قاس بتلميذ مفعم بالحب ، فذلك لأن الاحداث قد أثبتت له فيا بعد صحة بصيرة لينين بها وقدرته على رؤيتها والتنبؤ بها قبل وقوعها .

---

(٩) أعني بالسياسة هنـــا المعنى الواسع للكلمة ، الذي كان يعنيه فلاسفة اليونان ، وخاصة أفلاطون ولذا فالفعالية السياسية بهذا المعنى ، هي ارفع الفعاليات الانسانية شأناً واكثرها نبلاً ، ذلك أن من شأنها أن تكون فعالية تتطلب الشمول ، ولذا فلا يختص بها الا الفلاسفة (بالمعنى اليوناني : محبو الحكمة) .

ونعود الآن الى الخلاف الفكري الذي عكسته الرسائل بين لينين وغوركي . لقد كان غوركي يدعو في مقالاته الى رفد الماركسية ببعض القيم الدينية لاغنائها ، الامر الذي كان يدعو اليه جماعة « الباحثين عن الله » . ولاحظ خلال لقاءاته مع لينين ، وخاصة في مؤتمر لندن الذي عقد في عام ١٩٠٧ رفضه للاتجاهات التي تحاول تشويه الماركسية ، فدعاه غوركي الى كابري لمناقشة فلسفية مع بعض (المقاطعين) ، ولكن لينين رفض ذلك بحزم ، « كنت أود لو احضر لأراك ، ولكني ارفض الدخول في اي مناقشة فلسفية (١٠) » وفي الرسالة التي ارسلها اليه من جنيف في تشرين الثاني من عام ١٩٠٨ يقول لينين : « .. وفيما يتعلق بالفلسفة ، فانني اجدني غير مهيأ بما فيه الكفاية للخوض في اي نقاش عام ، الأمر الذي يدفعني كماركسي بسيط الى أن أقرأ بانتباه فلاسفة حزبنا . وأنا اقرأ الآن الوحدانية التجريبية لبوغدانوف ، والنقدية التجريبية لبازاروف ، وأعمال لوناتشارسكي وغيرهم ... (١١) » . الا أن هذا الموقف لم يكن بطبيعة الحال موقف رجل غير مهيأ للخوض في ميدان الفلسفة ، اذ أنه في العام التالي بالضبط ، اي في عام ١٩٠٩ أصدر كتابه عن « المادية والنقد التجريبي » ، ولذا ، فان ألتوسير يذهب الى تفسير موقفه ذاك ، على اساس أنه موقف تكتيكي قبل كل شيء ، لأنه كان يرمي من ورائه الى المحافظة على وحدة المهاجرين البلشفيين السياسية وتجنب بذر الشقاق فيما بينهم بسبب المناقشات الفلسفية (١٢) .

ولكن هذا الموقف لا يمنعه من أن يكتب لغوركي في مختلف المسائل الفلسفية التي يدور عنها الحديث في تلك الآونة ، مناقشاً غوركي في رأيه بها ، فهو يكتب مثلاً في رسالة مؤرخة في ١٣ / ١١ / ١٩٠٨ قائلاً : « .. وبالنسبة للمادية ، باعتبارها مفهوماً عن العالم ، فانني اعتقد بأنني لست متفقاً معك في الاساس ، وبعبارة أدق ، فانني على خلاف معك لا حول (المفهوم المادي للتاريخ) — ذلك لأن تجريبينا لا ينكرونه — وانما حول (المادية الفلسفية بالذات) (١٣) » . لكن ذلك يأتي بعد أن أكد لغوركي في رسالة له في الشهر السابع من نفس العام بأنه لا بد « من فصل الفلسفة عن اعمال الحزب (وتقسيمها)

---

(١٠) Lénine et la philosophie : Luis Althusser

(١١) Lénine et Gorki ' (Lettres et souvenirs) , p. 24

(١٢) Lénine et la philosophie . L. A.

(١٣) Linine et Gorki , Souvenirs et lettres , P . 26

لأن قرار الحزب يلزم بذلك ايضاً (١٤) » . ذلك أنه هنا ينطلق من رفضه الاجتماع مع أناس يدعون الى اتحاد الاشتراكية العلمية مع الدين . وعلى الرغم من أن الاجتماع الموسع لهيئة تحرير « البروليتاري » الذي عقد في الشهر السابع من عام ١٩٠٩ قد ادان الاتجاه الذي يسير فيه (الباحثون عن الله)، واعلن بحزم أن البلاشفة لا يوافقون على هذه الدعوات التي تشوه الاشتراكية العلمية (١٥) ، فان غوركي قد ظل على صلته معهم . وها هو بعد ذلك بأربع سنوات في عام ١٩١٣ يكتب مقالين بمناسبة العرض المسرحي الذي جرى على خشبة مسرح الفن بموسكو لرواية دوستويفسكي « الممسوسون » ، كان المقال الاول هو «الكرامازوفية» والمقال اللاحق هو «مرة أخرى حول الكرامازوفية»(١٦). ويقرأ لينين المقالين ، ويكتب الى غوركي معترضاً بشكل خاص على مقطع ورد في المقال الثاني (١٧) .

كان غوركي ينادي بوجهة النظر القائلة بالديمقراطية بشكل عام ، في حين كان لينين يلح على مفهوم الديمقراطية ذات المدلول الطبقي . ان الدعوة الى الديمقراطية بشكل عام دعوة تنطلق من مواقع البورجوازية الصغيرة ، واذا كان غوركي يطالب به فلأنه يريد الاحتفاظ بالحرية انطلاقاً من كونه فناناً . وعلى الرغم من أن غوركي يلتزم في كتاباته الفنية مواقع الطبقة البروليتارية وقضاياها ، فاننا لانستطيع انكار أنه يغير هذه المواقع، عندما ينادي باحلال الديمقراطية بشكل عام بدلاً من الديمقراطية ذات المدلول الطبقي .

تلك الخلافات في المواقف والآراء الفكرية والسياسية بين لينين وغوركي ، تحدث عنها لينين بعد ذلك عندما شرع في عام ١٩١٧ بموافاة الحزب الديمقراطي الاشتراكي برسائله من بعيد حول القضايا الملحة في تلك الفترة التي سبقت قيام الثورة بأشهر معدودات .

---

(١٤) المرجع السابق ص (٣٨) .

(١٥) المرجع السابق هامش رقم (١٠٧) ، ص ٣٩١ .

(١٦) الكرامازوفية نسبة الى الاخوة كارامازوف ، رواية دستويفكي الشهيرة . وكان غوركي يحتج على عرض رواية « الممسوسون » لأنها رجعية في رأيه . وقد سمى مقاله بهذا الاسم على اعتبار أن المشكلة الدينية قد طرحت ايضاً في رواية «الاخوة كارامازوف». راجع ايضاً المرجع السابق هامش (١٣١) ص ٣٩٣ .

(١٧) حذف هذا المقطع فيما بعد عندما جمعت مقالات غوركي بين ١٩٠٥ و١٩١٦ في كتاب واحد صدر في عام ١٩١٧ .

وقد كتب في رسالته الرابعة من مجموعة (رسائل من بعيد) يقول : « ... لقد كان لكاتب هذه السطور ، منذ لقائه مع غوركي في جزيرة كابري ، الفرصة لأن يقوم بتوضيح الأخطاء السياسية التي وقع فيها غوركي وأن يوبخه عليها . ولقد كان غوركي يواجه هذه التوبيخات بابتسامة ساحرة لايمكن وصفها ويصرح بكل اخلاص : (أعرف انني ماركسي سيء ، ومن ثم فنحن الفنانين لانحمل الا بعض المسؤولية ...) ، والحق أنه ليس سهلاً أن يعترض المرء على ذلك . » ويقدم لينين في نفس الرسالة حكمه على غوركي فيتابع قائلاً : « ان غوركي ، دون أي شك ، كاتب ذو موهبة مدهشة ، قدم سابقاً وسيقدم خدمة كبيرة لحركة البروليتاريا العالمية . » . ويتساءل لينين : « لماذا كان غوركي يخطىء في السياسة اذن ؟ » ويجيب : « ان رسالته تترجم ، فيما أرى ، أحكاماً مسبقة تخص لبس البورجوازية الصغيرة وحسب ، وانما بعض الأوساط العمالية التي تؤثر عليه أيضاً . ان كل قوى حزبنا . وكل جهود العمال المخلصين يجب أن تتجه للنضال المستمر على جبهة عريضة ضد هذه الأحكام المسبقة » (١٨) .

لقد كان أكثر ما يقلق لينين – خلال فترة بناء الحزب واعداده للثورة – مشكلة المثقفين ولقد أبدى الى غوركي أكثر من مرة ضيقه وتذمره من الدور الذي يلعبه المثقفون في الحزب خلال تلك المرحلة ، وكتب اليه في أواخر عام ١٩٠٨ يقول : « ان أهمية المثقفين تتضاءل في حزبنا ، فهم يعلنون في كل مكان بانهم قد هجروا الحزب . فلتحمل الريح الطيبة اذن هؤلاء الاوغاد . ان الحزب الآن يتخلص من جرش البورجوازية الصغيرة ، وها هم العمال يأخذون المبادرة بأيديهم (١٩) » . الا أن لينين سرعان مايفسر في رسالة تالية موقفه هذا الذي يبدو أن غوركي قد أساء فهمه ، فيؤكد له بأن المسائل التي أشار اليها – أي غوركي – لم تكن الا سوء تفاهم ، ذلك لأنه من المؤكد « انني لا أفكر باضطهاد المثقفين كما يفعل بعض النقابيين الحمقى ، ولست أنكر ضرورتهم للحركة العمالية (٢٠) » . بيد أن لينين انما كان يعني في رسالته السابقة اولئك المثقفين البورجوازيين الذين لم يتمكنوا من التحرر من اسار نبتتهم الطبقية للاسهام في الدور التاريخي الذي كانت تقوم به الطبقة العاملة الروسية في ذلك الحين .

---

(١٨) Lettres de loin , № 4 , Lénine et Gorki , P . 205

(١٩) المرجع السابق ص (١٩) .

(٢٠) المرجع السابق ص (٢٥) .

ان اكثرية المثقفين ، إن لم نقل كلهم ، ينتمون الى البورجوازية الصغيرة . وخلال مرحلة خطيرة ، كمرحلة بناء الحزب ، ومن ثم بناء المجتمع بعد الثورة ، يبدو المثقفون وكأنهم عاجزون عن الاسهام في أي عمل ايجابي . كان ذلك ما ضايق لينين في عام ١٩٠٨ — كما كتب لغوركي — وما تذمر منه في سنوات الثورة الأولى ، وخاصة أن غوركي كان يحيا وسط هؤلاء المثقفين . ان لينين يوضح لغوركي في رسالة له مؤرخة في ١٩١٩/٧/٣١ موقفه منهم في تلك المرحلة الخطيرة من حياة روسيا الثورة ويقول له في تلك الرسالة (٢١) : « لاشك أن عدداً متزايداً من مثقفي البورجوازية يساعدون العمال والفلاحين ، وهو الأمر الذي تفتقده بتروغراد (٢٢) التي تضم عدداً استثنائياً كبيراً من البورجوازيين الذين الذين فقدوا مكانتهم في الحياة وفقدوا عقولهم . ولكن الأمر بالنسبة لروسيا كلها لم يعد موضع شك . أما في بتروغراد فمن الصعب أن تجد واحداً على درجة طيبة من الثقافة السياسية الواسعة . وهذا مالم تدركه رغم ارتباطاتك لا بالسياسة والعمل السياسي وحدهما ، بل بما هو اكثر خصوصية ، بهؤلاء المثقفين البورجوازيين الذين لايفهمون شيئاً ، وفقدوا الاتجاه ، وراحوا يتأوهون يأسهم ويؤكدون تحاملهم ويرتعدون من الموت . بل ويرعبون أنفسهم حتى الموت . واذا شئت أن تراقب الامور جيداً فعليك بمراقبتها من أسفل ، حيث يمكنك أن تتابع العمل الحقيقي لبناء الحيـــاة الجديدة في مصانع العمال ومزارع الفلاحين . هناك لن تحتاج الى البيانات المعقدة وانما الى صدق الملاحظة . ولكنك بدلاً من ذلك وضعت نفسك في موقع محرر الترجمة المحترف ، وهو الموقع الذي لاتستطيع أن ترى منه البناء الجديد لحياة جديدة . وهو أيضاً الموقع الذي يوفر لك فحسب أن تصرف همك الى مراعاة التذمر المرضي لمثقفي العاصمة . ولقد وضعت نفسك حيث لن تستطيع أن تبصر الملامح الجديدة في حياة العمال والفلاحين ، وهم يشكلون تسعة أعشار سكان روسيا . لأنك آثرت أن تعنى بهوامش الحياة في العاصمة السابقة التي تركتها زهرة شباب العمال الى الجبهة ، والى الريف ، ولم يبق فيها سوى هذا العدد الهائل من المثقفين الذين يبحثون عن مكانة بلا عمل . ان الوطن يعيش صراعاً عنيفاً ضد البورجوازية العالمية . وعلى محرر الترجمات الأدبية أن ينصت لوقع هذا الصراع على ملايين العمال والفلاحين

---

(٢١) المرجع السابق ص (١٤٠) وكذلك ص (٢١١) من كتـــاب لينين (كتابات في الفن والأدب) بالفرنسية . أما النص الذي أثبته هنا فهو موجز للرسالة أورده غالي شكري في مقاله : لينين والأدب ، الطليعة العدد ٩٧٠/٤ .

(٢٢) كانت بتروغراد عاصمة روسيا حتى آذار ١٩١٨ .

والمناضلين لبناء حياتهم الجديدة ، وهو عمل أعظم بكثير من الانصات لوقع مزيف تنبض به قلوب أبناء العاصمة .. «لقد عبرت لك عن أفكاري بصراحة في مجال الرد على رسالتك؛ ومن خلال محادثاتي معك كنت أعلم بنفس أفكارك ، ولكن رسالتك أعطت لهذه الأفكار شكلها المحدد ونتائجها . لقد بلورت لي انطباعاتي التي سبق لي أن استخلصتها من احاديثنا المشتركة . وانني لا أملك أن اقدم لك النصيحة ، ولكني أيضاً لا أملك إلا أن أقول لك: غير من الملابسات المحيطة بك ، البيئة التي تقطنها والحرفة التي تمتهنهـا .. وبغير ذلك ستنفرك حياتك من الشيء الأفضل » .

أما الرسالة الثانية التي تدور حول نفس الموضوع فقد بعث بها لينين الى غوركي إثر فضح المؤامرة التي كانت تعد لها تنظيات مضادة للثورة والسوفييتات ، والقبض على عدد من المثقفين البورجوازيين الذين احتج غوركي على سجنهم في رسالة له الى لينين . وعندما قرأ لينين الرسالة واطلع على رأي غوركي تداعت الى ذاكرته جملة كان قد سمعها من غوركي في اكثر من مناسبة وهي : « نحن الفنانين ، ممسوسون !. » إلا أن لينين يقرأ كلمات غوركي في الوقت الذي تهدد الثورة المضادة الثورة الاشتراكية ، ويذهل من تصرف غوركي ، فيكتب اليه : « انك تتفوه بكلمات مرعبة وقاسية .. وبأي مناسبة ؟. انك تفعل ذلك لأن بضع عشرات (أو مئات) من بعض السادة قد سجنوا عدة أيام بينما نقوم بملاحقة المشتركين في المؤامرة السرية الخطيرة ، الذين كانوا يملكون القدرة على تسبيب الموت لعشرات وآلاف العمال والفلاحين . قضية جملة ، أليس كذلك ؟!. حيا .. حدثني عن الظلم مرة أخرى !. (الفنانون ممسوسون !) .. إنه لمن الخطأ الخلط بين القوى المثقفة للجماهير والقوى البورجوازية المثقفة . وكمثال على هذه الأخيرة ، نأخذ كورلنكو . لقد أتيحت لي الفرصة لقراءة كتابه عن الحرب والوطن والانسانية الذي كتبه في آب ١٩٠٧ . ان (كورلنكو) منشفيكي يبرقع دفاعه المقرف عن الحرب الامبريالية بكلمات منمقة : يا له من بورجوازي تغريه أحكام البورجوازية المسبقة !. ان مقتل عشرة ملايين في حرب امبريالية لا تثير لديه غير التحفظ ضد الحرب ، أما مقتل مئات الألوف في حرب أهلية ضد الاقطاعيين والرأسماليين فلم يحظ منه إلا بالتأوهات واللهاث والهستيريا .

لا .. ليس ثمة ما يحزن اذا ما سجن أصحاب هذه المواهب لعدة أسابيع اذا بدا لنا ذلك ضرورياً للحيلولة دون وقوع مؤامرة تتسبب في ازهاق حياة آلاف الناس . لقد إكتفينا باعلان أسرار المؤامرة التي شارك فيها بعض الاساتذة ، وهذه حقيقة . ان

القوى المثقفة للعمال والفلاحين تنمو وتزداد قوة لتصبح عقل الأمة الحقيقي بدلاً من مثقفي البورجوازية الذين لم يعودوا عقلاً بل غدوا نفايات. إن القوى المثقفة التي ترغب في اثارة الشعب سوف تتلقى منا مكافآت على عملها تفوق المعدلات المعروفة. هذه حقيقة. ولسوف نحرص عليهم، وتلك حقيقة أخرى، وكذلك على عشرات وآلاف العساكر العاملين في خدمة الجيش الأحمر ويقومون بتحقيق الانتصارات ضد مئات الخونة، وتلك حقيقة ثالثة.

وفيما يتعلق بآثار مزاجك، فانني (أفهمها) بالتأكيد (ما دمت تبدو مشغولاً بمعرفة ما إذا كنت أفهمك). كم من مرة أخبرتك في كابري، وبعدها، بأنك محاط بأسوأ عناصر المثقفين البورجوازيين، وأنك مضطر لسماع تباكيهم. انك تستمع جيداً الى شكاوى بضع مئات من المثقفين في موضوع التوقيف (المرعب) لبعضهم، وتصم آذانك عن سماع صوت الجماهير وأصوات ملايين العمال والفلاحـــين المهددين من قبل المتآمرين. انني أفهم تماماً، نعم، انني أفهم تماماً أن يصل الأمر بكاتب الى أن يكتب، لا (أن الحمر هم كالبيض أعداء الشعب) فحسب، وانما ايضاً أن (الذين يناضلون لتقويض الرأسماليين وكبار الملاك لا يختلفون عن أعداء الشعب من الرأسماليين والاقطاعيين)، بل وأن يؤمن بالله والقيصر... أفهم ذلك تماماً!.

حقاً، لسوف تضيع اذا لم تربأ بنفسك عن أوساط المثقفين البورجوازيين، وانني لأود لك مخلصاً أن تفعل ذلك بأسرع ما يمكن.

لذلك أنت لا تكتب الآن.. أو ليس عاراً على الفنان أن يضيع وقته في سماع عويل المثقفين المنحلين ولا يكتب؟ أو ليس ذلك عاراً؟ »(٢٣)

من الحق أن نقول ان شخصية لينين في هاتين الرسالتين، على الأقل، لم تكن شخصية مرب قاس ازاء تلميذ طائش، بقدر ما كانت لهجة صديق يكاد يذهل لرؤية صديقه الفنان الثوري لا يرى الاخطار التي تحيق بالثورة، ويستمع بدلاً من ذلك الى شكاوى المثقفين الضائعين الذين فقدوا القدرة على المبادرة والعمل، فلم يعد بوسعهم إلا أن يتباكوا على أمجاد وهمية لم يكن لها في واقع الحياة أي ظل. لكن من الحق كذلك أن نقول إن قوة لينين هنا تبدو في محاولته الذكية لوضع غوركي أمام حقائق خفيت عنه، وبالتالي مواجهته بالأخطاء التي نتجت عن عدم رؤيته لتلك الحقائق واهتمامه بما

(٢٣) Lénine : Ecrits sur l'art et la litterature, P. 216 - 217 - 218

سواء في مجال الفكر السياسي والفلسفي ، أو في مجـال الدور الذي لعبه المثقفون البورجوازيون قبل الثورة وبعدها ضد الحزب وضد الثورة، وكذلك في مفهوم غوركي عن الديمقراطية بشكل عام (٢٤) .

* * *

استعرضنا حتى الآن بعض القضايا الأساسية التي كانت موضع الخلاف الشهيرين لينين وغوركي خلال الأعوام التي سبقت الثورة والأعوام التي تلتها . وبعبارة أخرى، فقد رأينا موقف لينين (السياسي) من غوركي الذي ارتبط بالسياسة وكانت له فيها مواقف وآراء وافقه لينين على بعضها وخالفه في غالبيتها . ونحن الآن انما نريد التعرض الى جانب آخر من علاقة لينين وغوركي ، ذلك الجانب الذي نرى فيه موقف لينين ، رجل الثورة والفكر ، من غوركي الأديب الفنان ، مؤلف رواية الأم ونذير العاصفة وأغنية الصقر .

لقد قرأ لينين أعمال غوركي في أوائل عام ١٩٠٢ كما يقول في رسالة الى شقيقته (٢٥). وتمنى اثر قراءته (الحضيض) لو يرى هذه المسرحية تمثل على خشبة مسرح الفن بموسكو . لقد قرأ لينين أعمال غوركي ، اذ ذاك ، باهتمام ، وأعارها أصدقاءه لكي تتاح لهم أيضاً فرصة قراءتها (٢٦). وعندما ظهرت رواية الأم قرأها لينين ولم يملك الا أن يهتف بفرح : « لقد جاءت هذه الرواية في الوقت المناسب » ، وعلى الرغم من بعض الملاحظات التي سجلها لينين على هذه الرواية ، فقد استمر يعتبر ظهورها حدثاً كبيراً لصالح الطبقة العاملة .

عندما التقى لينين غوركي اذن في عام ١٩٠٥ ، كان قد قرأ له كل ما كتبه حتى ذلك الحين . وكان له الفضل الأول في اكتشاف غوركي ككاتب بروليتاري (٢٧) . وهكذا فقد كان سهلاً عليهما في لقائهما الأول أن يتحدثا في المواضيع التي تهمهما مباشرة . لكن لقاءهما الأول كان سريعاً ، وانما في لقائهما الثاني ولدت العلاقة بينهما كاملة وواضحة ،

---

(٢٤) Oeuvres et opinions , № 126 , Juin 1969 , P . 144 .

(٢٥) Lénine et Gorki , P . 191

(٢٦) كان لينين في (ميونيخ) عندما قرأ كتب غوركي ، حيث لم يكن من السهل الحصول عليها كما يبدو .

(٢٧) Oeuvres et opinions, № 126 , P . 144

وهو اللقاء الذي حدث أثناء انعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي الاشتراكي في لندن عام ١٩٠٧، اذ ذاك تعرف غوركي، الكاتب الثوري، الى عشرات من مندوبي الحزب المشتركين في المؤتمر، وأغلبهم من العمال والفلاحين، والى لينين الذي اتيحت له الفرصة للاجتماع به مطولاً. يتحدث أحد أعضاء الحزب الذين شاركوا في ذلك المؤتمر وهو (ن. ف كورياكوف) عن ذلك اللقاء بقوله: « لقد ساعدتنا إجابات غوركي السهلة والواضحة على فهم الدور الاجتماعي للأدب كأداة للصراع بشكل افضل. ولقد تحدث غوركي مع المندوبين بحرارة وإخلاص عن جماعات الكتاب والاتجاه الديمقراطي وعن المواهب الشابة التي تعرف الى اصحابها المتطلعين الى خدمة الجماهير ... لقد اعطتنا تلك الأحاديث اليقين بأن الأدب التقدمي كان في خدمة الثورة »(٢٨).

أما لينين، فلقد حدثه غوركي عن (نيجيني نوفوغورود) والفولغا وطفولته وجدته (أكولينا ايفانوفنا) وشبابه ومغامراته وذكرياته عن والده، كما تحدث كثيراً عن جده، بينما كان لينين يستمع اليه بانتباه كبير: عيناه مفتوحتان براقتان كعادته. ويقول له:

« سوف تكتب كل هذا يا أبت الصغير. كل ذلك جدير بالملاحظة والتسجيل »

ويجيبه غوركي: « — سوف أكتبها... يوماً ما... »(٢٩).

كانت موهبة غوركي التي أثارت اعجاب لينين، موهبته القصصية الخارقة، وقدرته على الحديث عن رحلة أو حادثة أو انسان بكلمتين أو ثلاث كلمات. هذه الميزة، وميزته في استيحاء تجاربه الحقيقية التي عاشها في طفولته وشبابه، والتي عكس فيها حياته القاسية في اوساط مختلفة: في المعامل والمزارع ومراكب البحر، قربته الى لينين وجعلته يرى في كتاباته صورة كاتب بروليتاري حقيقي متميز، قدم للطبقـــة العاملة خدمة تفوق كل حد.

ومنذ ذلك الوقت انغرست صورة غوركي وشخصيته الساحرة المحببة في وجدان لينين الذي كان يفكر به أول ما يفكر كلما كان بازاء مشاريع أدبية يقوم بها الحزب قبل الثورة، أو يقوم بها بعد الثورة. ففي أواخر عام ١٩٠٨، حيث كان لينين في جنيف بصحبة بوغدانوف ودوبروفينسكي على وشك اصدار مجلة للحزب باسم (البروليتاري)،

---

(٢٨) Lénine et Gorki, P. 350

(٢٩) المرجع السابق ص (٣٤٤).

كتب الى غوركي يسأله عما اذا كان يستطيع ان يشارك في تحرير المجلة ، عن طريق ارساله مقتطفات من القصص التي يكتبها ، او ببعض المقالات القصيرة . وقد أوضح لينين له (٣٠) بأنه عازم على أن يترك في هذه المجلة مكاناً واسعاً للنقد الأدبي لكي تتاح الفرصة أمام الأدباء والنقاد للارتباط بالصحافة الحزبية ارتباطاً يقربهم من قواعد الجماهير في الحزب ، كما تفعل الاحزاب الديمقراطية الاشتراكية في مختلف انحاء اوربا . ويلح على غوركي في ان يكتب ويؤكد له اصراره على تحقيق هذه الخطوة على الرغم من ادراكه للمصاعب التي ستواجهه لدى شروعه في الخطوات الأولى من تحرير المجلة .

ولقد كان اهتمام لينين بالنقد الأدبي يعود الى أنه يرى فيه الموجه الأساسي للأدب والأدباء . فثمة كثير من المسائل التي تثيرها الأعمال الفنية والأدبية ، وهي تتعلق بطبيعة الحال بالمجتمع وما يطرحه من قضايا ومشاكل تحتاج الى رؤية ثورية منهجية ، تكفل لها أن تطرح طرحاً صحيحاً . من هنا فان دور الأدب الاجتماعي انما يتحقق بوضعه في خدمة الملايين . ولقد سبق لينين أن عبر عن هذا المفهوم بشكل مفصل ، في مقال له كتبه في عام ١٩٠٥ عن « التنظيم الحزبي والأدب الحزبي » (٣١) . ومن هنا فان دور النقد يجب أن يقوم على أساس تقويم الأدب وتوجيه مسيرته الوجهة التي تحقق الغرض الأساسي والجوهري فيه ، وهو أن يكون في خدمة ملايين الناس .

على أن اهتمام لينين بمشاركة غوركي في تحرير « البروليتاري » ، لم يكن أقل من حرصه على استمرار غوركي في أعماله الفنية الكبيرة ، وهو حرص مبعثه ايمان لينين بأن على الفنان أن يبدع أولاً ، ومن ثم يشارك في نضال الحزب ثانياً . ولذلك فهو يلح على غوركي الا يقطع عملاً كبيراً يقوم به « لأنه سيكون اكثر فائدة » (٣٢) كما أنه يكرر في رسالته الى أندريه لونا تشارسكي بأنه اذا كان غوركي « مشغولاً بعمل جدي كبير ، واذا كان ذلك — أي مشاركته في تحرير البروليتاري — سيحمله على قطع هذا العمل من أجل المجلة والصحفيين ، فسيكون من الحماقة والاجرام إيقافه وتعطيله .. هذا ما أفهمه وما أدركه تماماً . » (٣٣)

---

(٣٠) المرجع السابق ص (١٩) .

(٣١) المقال منشور في كتاب لينين « كتابات في الفن والأدب » ص — ١٩ — الطبعة الفرنسية ، وكذلك في مختارات من مؤلفات لينين باللغة العربية ، الجزء الأول . (الطبعة المؤلفة من ٤ أجزاء فقط) .

(٣٢) Lénine et Gorki P. 19

(٣٣) المرجع السابق ، ص (٢٣) .

وكثيراً ما كان لينين يقوم بدور الوسيط بين هيئة تحرير صحيفة (البرافدا) وبين غوركي . فقد كان يحـدث أن ينقطع غوركي عن الكتابة الى البرافدا لفترة طويلة لانشغاله ، فتكتب هيئة تحرير البرافدا الى لينين طالبة منه أن يلح على غوركي بالكتابة إليها مشيرة الى أنها تخصه بمكافأة غير عادية عن السطر الواحد ، ويقوم لينين بالكتابة الى غوركي موضحاً له ضرورة المشاركة في تحرير البرافـــدا التي لم تكن تدفع لغيره سوى مكافآت رمزية بسيطة ، بل انها لم تكن تدفع شيئاً في غالب الأحيان . ويعتذر غوركي عن عدم مشاركته بسبب مشاغله الكثيرة ، ثم يسارع الى تلبية طلب البرافدا فيرسل لها فصولاً من رواية كان يكتبها (٣٤) .

وهكذا فقد شارك غوركي في تحرير البرافدا والبروليتاري ، وكان لينين يكتب له واصفاً سعادته العميقة لرؤيته له قادراً على المشاركة في تحرير (البروليتاري)دون أن يصرفه ذلك عن أعماله الفنية الكبيرة .

تلك صورة العلاقة بين لينين وغوركي قبل الثورة ، حيث لم تكن تتاح لهما فرصة الاجتماع سوياً الا نادراً ، فكانت الرسائل تقوم مقام اللقاء في أغلب الأحيان .

وعندما تحققت الثورة ، كان من أوائل المشاريع الفكرية التي اقدم لينين على وضعها موضع التنفيذ أنه طلب اعادة نشر (المؤلفات الكاملة) لغوركي في طبعة جديدة، وعمل من ثم على تحقيق أحلام غوركي التي راودته منذ زمن بعيد في ترجمة ونشر الأدب العالمي باللغة الروسية، وتأسيس دار النشر ترعى انتاج الكتاب والأدباء الروس . ويتحدث غوركي بهذا الصدد عما دار بينه وبين لينين حول الأدب البروليتاري قائلاً :

« لقد قلت له – أي لينين – بأنني انتظر من الأدب البروليتـــاري الكثير ، ولكني أرى أن من الضروري تأسيس معهد عال للأدب وعلوم اللغة واللغات الأجنبية – الغربية والشرقية – والفولكلور وتاريخ الأدب العالمي وبخاصة الأدب الروسي .

فقال لي غامزاً بعينيه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة :

– م.... م .. انه مشروع كبير وعريض.. ولست ضده.الا أنه يحتاج إلى الكثير. اذ ليس لدينا أساتذة في هذه الميادين ، وسيجعلنا الاساتذة البورجوازيون نطلع على تاريخ ....لا ، هذا ليس ممكناً الآن ، وعلينا أن ننتظر ثلاث أو خمس سنوات.»(٣٥)

لقد كان اهتمام لينين بالأدب – كما يبدو مما سبق – ينطلق من ادراك عميق لدوره

---

(٣٤) المرجع السابق ص (٨٢) .

(٣٥) المرجع السابق . مقال غوركي عن لينين . ص (٢٨١)

النضالي في مسيرة الثورة ، ولذلك فانه لم يكف حتى أواخر حياته عن متابعة أعمال الكتّاب الذين يحبهم والذين كثيراً ما كان يعيد قراءة أعمالهم . ولقد كان يتابع مؤلفات غوركي بشكل خاص . اذ قبل موته بليلة واحدة كان كتاب غوركي (جامعاتي) موضوعاً بالقرب من سريره .

كان اعجاب لينين بغوركي الأديب ، له ما يبرره . ومنذ زمن طويل عبر عن هذا الاعجاب في مقالة له نشرت في عام ١٩١٤ (٣٦) بمناسبة صدور قصيدة لغوركي بعنوان « أغنية الصقر » ، وتحدث في هذه المقالة عن نموذجين من الفنانين الذين عرفهم في عصره ، نموذج لا ينقاد الا الى نزواته ومزاجه ، وهو لذلك « غريب عن قضية البروليتاريا ، ذلك أنه اذا كان صديقاً للعمال في يوم ما ، فانه سيكون واحداً من المائة السود في اليوم التالي ، حسب مزاجه » . أما النموذج الآخر فهو الذي يرى العمال أنفسهم في كتاباته . انه يحمل المسؤولية ، لا تجاه نفسه فحسب، وانما تجاه الذين منحوه ثقتهم وعضوه ولامهم . ولذلك فقد « اعتاد العمال على اعتبار غوركي واحداً منهم ، ذلك لأنه يشعر أن قضية البروليتاريا هي قضيته الخاصة ، وقد وضع موهبته في خدمتها » (٣٧) .

ونحن نلاحظ هنا أن لينين ، بعيداً عن كل الاعتبارات الشخصية التي تربطه بغوركي ، قد ظل مخلصاً لمبادئه الأساسية في تقييمه له كأديب أولاً ، وكشارك في النضال السياسي ثانياً ، وهو تقييم لا يمكن أن ينفصم بحال من الأحوال عن فكر لينين وممارساته في كل الحالات .

* * *

لقد كان غوركي أحب رجل الى قلب لينين ، ومع ذلك فلم يكن هذا الحب ليقف عقبة أمام مسيرة المبادىء التي كان يعمل انطلاقاً منها ومن رؤيته لها في مجال التطبيق العملي والنضال اليومي . ولقد آثرت أن أؤخر الحديث عن الجانب الانساني في هذه العلاقة الفريدة لكي أتيح للجوانب الموضوعية فيها فرصة البروز أكثر فأكثر ، هذه الجوانب التي كانت على الرغم من قسوتها وعنفها في كثير من الأحيان لا تطغى على البعد الانساني في هذه العلاقة .

ان القضية الكبرى ، قضية الملايين من الناس ، أقدس من كل ما عداها من

(٣٦) Lénine : Ecrits Sur l'Art et la Litterature, P. 105

(٣٧) المرجع السابق ص (١٠٠) .

الأمور . ولم تكن قضية النضال البروليتاوي الذي خاضه لينين لتحول بينه وبين الاعجاب بغوركي ما دام هذا الاعجاب يخدم هذه القضية . وعلى الرغم من الأخطاء التي اعتورت نظرات غوركي في بعض مراحل هذه العلاقة ، فان بوسعنا القول هنا : ان وجهة نظر لينين حول الديمقراطية بمدلولها الطبقي تجد تجسيدها الكامل في علاقته كرجل ثوري ، وكقائد للحزب والثورة ، بغوركي ، ذي الثقافة البروليتارية والرؤية الثورية . لم يكن لينين ليشك لحظة واحدة في ولاء غوركي لقضية الطبقة العاملة والثورة الاشتراكية بل وفي تكريسه كل حياته وموهبته لخدمتها . ومع ذلك فإن غوركي كان يخطىء ، وكان لينين على استعداد لقبول هذه الاخطاء ، دون عقاب فعلي ، علـى أساس تقويمها عن طريق الحوار الحر . ومن هنا فقد أثبت لينين — على الأقل في علاقته بغوركي منذ ١٩٠٥ وحتى وفاته — صواب رؤيته للديمقراطية ومدلولها الطبقي . لم يكن غوركي ليرتكب جريمة التآمر ضد الثورة ، ولذلك فان أخطاءه التي يرتكبها في مجال السياسة لا تنسف منطلقاته الثورية التي تجلت في أعماله الفنية . الا أن كاتباً كـ (كورلنكو) الذي تحدث عنه لينين كمثال على القوى البورجوازية المثقفة ، يمكن ان يرتكب جريمة التآمر على الثورة ، ما دامت منطلقاته تقع في مواقع البورجوازية .

الديمقراطية ؟ نعم ، شريطة أن يؤخذ مدلولها الطبقي بعين الاعتبار . تلك ناحية أساسية لا يمكننا اغفالها ، ما دمنا بصدد تحقيق الثورة وبناء أسسها ، والا فانها تستحيل الى مفهوم فضفاض يحتوي على كل شيء ، ولكنه لا يؤدي الى شيء .

ولذلك ، فاننا اذا أنعمنا النظر قليلاً في ذلك الحب الذي كان لينين يختص به غوركي لوجدنا له إساسه الموضوعي . كان حلم لينين أن تتحقق الثورة البروليتارية في روسيا ، ولكي تتحقق هذه الثورة فلابد لها من ثوار . وبما أن الأدب جزء من عمليـة الاعداد للثورة ، وجزء من مسيرتها ، فقد حلم كذلك بالأديب البروليتاري ، ولقد تحقق هذا الحلم الأخير قبل أن يتحقق حلمه الأول ، منذ قرأ لينين مؤلفات غوركي في ١٩٠٢ . وبعبارة اخرى فقد كان امل لينين كبيراً عندما التقى غوركي .. فهذه نظرية الأدب البروليتاري وقد تجسدت في « غوركي » !

كان غوركي إذن ، حلم لينين الذي تحقق في عام ١٩٠٢ .

وكانت الثورة الاشتراكية حلمه الذي تحقق في عام ١٩١٧ .

ولعل هذا هو — فيما أرى — مصدر الحب الشديد الذي افعم بـه قلب لينين تجاه غوركي .

ولكن لينين كان ، بالنسبة لغوركي ، رجل اللحظة التاريخية . وهذا هو السبب في تعلق غوركي به وحبه له ، ورجوعه اليه في كل مايفعله .

كان رد غوركي عندما التقى لينين ، يشبه رد فعل الطفل امام اتساع العـالم من حوله ، فلقد صرخ من ذهوله : يا إلهي انه مدهش !..

وكان رد فعل لينين عندما التقى غوركي أقرب الى رد فعل العالم الخبير بمعادن الرجال ، اذ قال عنه : انه رجل نادر .

وشعور غوركي بالدهشة إزاء شخصية لينين الخلاقة هو مادفعه للقول بأن لينين هو الرجل الوحيد الذي يجب أن نصغي اليه .

وشعور لينين بتفرد غوركي وتميزه ، هو ماجعله يحرص عليه ويهتم به .

ومنذ التقيا في لندن ، كان لينين يهتم بغوركي الذي كان يمكن ان يقع مريضاً لسوء صحته لمجرد تعرضه الى البرد . فحرص على أن يدخل معـه غرفته الى الفندق ، وأن يتحسس الفراش الذي سينام عليه ، ويطمئن الى المكان الذي سيؤويه .

وفي كل مرة كان يكتب فيها اليه ، كان يبدؤه بالسؤال عن صحته ، ويرجوه أن يعتني بنفسه ، فينظم أوقات عمله ، دون أن يعرض نفسه للارهاق . بل ان رسائله العنيفة التي قرأنا بعضاً منها لم تخل من مثل هذا الاهتمام ، ومن ان يحييه بحرارة ويشد على يديه في نهاية كل رسالة .

وحين مرض غوركي في عام ١٩٢١ ألح عليه لينين بالسفر الى الخـارج للمعالجة وللراحة . فلقد كان لابعبأ براحته الشخصية ، بما كان يضطر لينين الذي يعرف ذلك الى الاهتمام بأدق التفاصيل المتعلقة بها وهو الأمر الذي لم ينقطع عنه حتى خلال سنوات الحرب الأهلية الصعبة (٣٨) .

ولقد غادر غوركي روسيا في عام ١٩٢١ ، وزرع قلبه في وجدان لينين الذي مالبث أن غادر الحياة بعد ذلك بسنتين أي في أوائل عام ١٩٢٤ ، فـلم تتح لغوركي الفرصة في أن يلقي عليه النظرة الأخيرة ، لكنه كتب الى صـديق له يقول : « كان فقدان لينين بالنسبة لي ضربة قاتلة ، ولكنه كان بالنسبة لروسيا اكبر كارثة تصاب بها منذ مئة سنة » (٣٩) .

* * *

(٣٨) Lenine et Gorki , P. 360

(٣٩) Lenine et Gorki , P. 238

في عام ١٩٣٣ كتب غوركي الى الاستاذ غروز ديف يقول :

« من الثابت أن لينين النظري كان يعرف حقيقة روسيا أكثر مني بكثير، ويبدو لي أن اختلاف الرأي بيننا لم يكن في اتساع فهم وحكمة النظرية التي لاتتزعزع فقط ، بل في شيء يمكن ان يكون علو نقطة الملاحظة ، وهذه لاتكون ممكنة الا بموهبة نادرة هي معرفة النظر الى الحاضر اعتباراً من المستقبل » (٤٠) .

---

(٤٠) غوركي والناس – حنا مينه ، مجلة المعرفة – العدد (٧٥) .

لينين والكتاب (١)

ان لينين مؤسس حزب طبقة العمال ، الثائر النظري العبقري ، ناشر الماركسية على نطاق واسع في فترة تطور الرأسمالية وتقدمها نحو ذروة المجد ، الكاشف في عهد الثورات العالمية عن مفاسد القيصرية مبيناً أسباب انهيارها المحتوم ، الرجل الذي وحد الذكاء في صوره الرفيعة وقوة الادراك بالحواس في أشكالها السامية، قد أعار الادب انتباهاً كلياً وعشقه عشقاً اكيداً .

---

(١) ترجم الأب أميل مرقدة هذا المقال من اللغة الرومانيـــة عن مجلة Viâta Romineâscâ Bucuresti , Aprilie 1956 p. p. 5 — 8 .

فهذا المثقف المتغذي بالمطالعات الكثيرة المتنوعة ، ألوف المجلدات في الفلسفة والاقتصاد السياسي ، أحد أقطاب الطبقة المثقفة ، وجد في فن الأدب حليفاً من أقوى حلفاء النضال لنصرة الأفكار الثورية . فانتدب الأدباء لحمل رسالة لها خطورتها بمثابة ما لرفاقه المناضلين من أهمية : كعمال بوليتياوف وبحارة كرونستد وفلاحي الأرياف والجنود المرابطين على الحدود .

قال لينين : « ان قضية الأدب يجب أن تصبح الجزء المتمم لمصلحة طبقة العمال العامة » . قال هذا وهو متيقن بما لسحر بيان الكلمة وبلاغتها من تأثير في النفوس البشرية . فبتقدم العمال نحو السلطة يتقدم الأدب هو أيضاً تمشياً معهم ، لأن الأديب يتتبع بصراحة وعزم الهدف الذي تتوخاه البشرية ألا وهو : الاشتراكية .

ان لينين بتحضيره نفسية الحزب لقبول الأدب ، وربط مصير الأدب بمصير الطبقة العمالية ، جاعلاً الأدب يمثل دوراً كبيراً في نشر مبادىء الحزب ، ان من يطالع ما كتبه لينين في صدد الأدب ، لا يمكن الا أن يتأثر بشدة بقوة تفكيره وحذاقته في معالجة معضلات الكتابة .

حارب لينين الصورة المنحطة عن الفن ونفى التهمة التي ألصقها به بعض البرجوازيين الأدباء نفياً عنيفاً ، ومفادها ان لينين يرغب في حصر نشاط الأدباء في بحث موحد وحول شخص محدد وان ينهجوا حسب اسلوب مفروض . بينما كان يردد مراراً عديدة أنه من الواجب النظر الى الظواهر الأدبية - بما فيها من ألوان الكتابة الدقيقة - باجلال واكبار . لا مجال للشك بأن القضية الأدبية تتطلب مستوى رفيعاً ، بمثابة هيمنة الاكثرية على الأقلية .

قد لا نجد نفسية لينين بارزة في ناحية ما ، كما هي متجلية في مقالاته التي

كتبها عن تولستوي ، حيث نقد مؤلفات هذا الكاتب المشهور فأصبح تحليله مثالا يقتدى به . واجه لينين كتابات تولستوي بفهم كامل ، وبادراك من اختبر المجتمع القيصري حتى أعماقه، وعرف نظمه التي يسلك بجسها، واكتشف خفاياه ووقف على المتناقضات التي مزقت شمل هذا المجتمع ، فكان تقدير لينين لكتابات تولستوي بروح الصراع البروليتاري الثوروي الذي أصبح ـ لهذا السبب ـ نموذجاً ماركسياً رائعاً لتحليل الانتاج الأدبي . ان كارنسين و آنا و فرونسكي و بوزوهوف وروستوف وأندريه و بولكوفسكي، هم في نظره أشخاص يصفون بتمثيلهم عالماً له نفسيته وطريقة معيشته وتقاليده . يشير كل واحد منهم الى ناحية من حياة هذه الطبقة المسيطرة ، وينظر الى النظام القيصري من وجهة نظره ، ولكنهم يتفقون على الطعن في هذا النظام المبني على الكذب والرياء . انهم يمثلون رواية هزلية ومأساة يعيشونها ، متتبعين ببصر الفنان المحدق الى أعماق حياتهم . يبين لينين أن تولستوي هو الذي يعرض بغض جماهير الفلاحين للنظام البيروقراطي الطفيلي القيصري كانت مؤلفات تولستوي في يد لينين وسيلة للوصول الى معرفة حياة الطبقة الراقية ، وهي أيضاً بمثابة باب يطل منه جيش العمال على حصن أعدائهم الظالمين . وفي نفس الوقت يرفض لينين بعزم أفكار الكونت ليون تولستوي الصوفية وتعليمه الرجعي الخطر ، متهجماً عليه بصراحة دون أية رحمة . انه يميز بدقة بين ما هو ـ في الحقيقة ـ بديع في كتب الأديب (خلافاً للظواهر) ، وما هو ركيك ومثار هزء من ناحية السعادة البشرية. قال لينين : « اذا درست طبقة العمال في روسيا مؤلفات ليون تولستوي عرفت أعداءها . أما الشعب الروسي ، فانه اذا تعمق في فحص عقيدة تولستوي ، فيجب عليه أن يدرك أين تقع نقطة ضعفه » .

ان كتابات تولستوي كثيرة جداً ومتنوعة ومعقدة ، وبالرغم من ذلك فقد طالعها لينين ولم يشرد أو يضل في مجرها الكبير .

لم يكن لينين في جميع ميادين نشاطه غامض الأفكار أو خاملا ، بل كان ذا نفس وقادة نشيطة تحب الانسان ، فبهذه الروح الطيبة كانت علاقاته خارقة العادة مع غوركي . ان غوركي مدين للينين ، ليس فقط بالمساعدة الهامة لفهم الثورة وطرقها الخاصة ، بل وبالعناية الأخوية والمحبة الاكيدة . لقد تابع نشاطه بكل انتباه ، وطالع كتبه بدقة ، وشمل حياته بالعطف والحنان . ان هذه الانسانية المتواضعة التي تكره تعابير التفخيم والتقاليد الرسمية نجدها ظاهرة في كتابات لينين ، نضرب مثلاً على عدم تكلفه في الكتابة ، وبساطته في التعبير ، ما جاء في رسالته الى (ا . م) قائلاً : « ولكن ما هذا ياعم ! تعبت من اعمالك كثيراً ، فهل تزعجك اعصابك؟ هذا ما يفوق الحد ! انت في كابري والناس هناك قلائل في فصل الشتاء ، فيجب أن تعيش حياة طبيعية ... أيضعف أحد في هذه الأيام ؟ هذا غير مقبول ! » . ولما علم ان غوركي طريح الفراش في حالة خطرة ، قلق واضطرب حتى أنه كتب في أمر اداري يقول : « يجب أن يعالج غوركي بسرعة ، لقد أقعده المرض وعاد لا يستطيع السفر الى الخارج ، وهو مصاب بنزيف رئوي » .

إننا نشاهد ذلك الذي تسلم السلطة ، الاستراتيجي الكبير الذي رسم خطة المعركة ضد البورجوازية ، يجد لنفسه وقتاً لتقرير التدابير اللازمة التي يجب أن تؤخذ لنجاة غوركي من مرضه في حين كانت البلاد منغمسة في اضطرابات سنة ١٩٢١ ، والدمار يشملها ، والفوضى مسيطرة في كل ناحية منها ، والمعركة ضد مقاومي الثورة لم تنته بعد . يقول لينين : « أرجوكم أن تعينوا شخصاً ما (والأفضل أن

أن يكون طبيباً يعرف البـــلاد الاجنبية ومشهوراً هناك) لارسال فيوروبا وكورايف وغوركي وكورولنكو وغيرهم خارج البلاد ... الى المانيا ، وان تعتنوا بالمرضى اعتناء بالغاً .. ».

كان لينين يعتني بحياة الكتاب الخاصة عن كثب ، ويشاركهم مراحل حياتهم بكل اعتناء . نلمس هـــذه العاطفة السامية في رسالته الى سيراموفتش بعبارات بسيطة دون تكلف ، حين كان هذا في أصعب أيامه لما فقد ابنـــه : « أطلعتني أختي على المصيبة الكبرى التي ألمت بكم ، فاسمحوا لي ان اصافحكم بعزم كلي وأن أتمنى لكم شجاعة وقوة نفسية » تبدو هذه الكلمات كأنها معانقة صامتة، تضيق النفس من شدة التأثر .

إن صداقة لينين للكتاب تعني بالدرجة الأولى احتراماً لأفكارهم القيمة التي تجمعه وإياهم ، أما التراجع عن فكره في سبيل انقاذ صداقة ما فهو في نظره أمر لا يطاق . لا حاجة لذكر صداقته المتينة لغوركي ، ومع ذلك نراه يؤنبه بقساوة حين يجده مخطىء ، فيبادره بقوله : « ماذا تعمل ، يا للشيطان ، انهـــا غلطة » ، إنه يعاقبه . وفي توبيخه صلابة شيوعية لا تتزعزع . وفي نفس الوقت تجد فيه محبة لا تخفى عن الانظار . ان لينين ، الذي يجل الكتاب ، لم يسمح لنفسه بفرض آرائه عليهم واعتبارها جازمة نهائية . إنه بقي على الدوام مخلصاً لقناعته أن ليس لأحد حق التسلط عليهم .

كتب مرة يقول : « لقد قرأت على سبيل الصدفة قصيدة ذات موضوع سياسي لمايكوفسكي في جريدة أزفستيا . أنا لست من المعجبين بأريحيته الشعرية ، وان كنت أعترف بعدم كفاءتي في هذا المضمار ، انني لم أجرب منذ زمن طويل أن أقتنع بقراءة الشعر لكثرة مشاغلي السياسية والادارية » .

وبالرغم من أن للينين شيئاً من التحفظ تجاه بعض أبيات مايكوفسكي ، فهو لم يسمح لنفسه بنطق كلمة ما قــد تحمل على غير محملها ، فتكون من باب التوبيخ للمعجبين المتحمسين لشعره .

إن الصلة بين لينين والأدب عميقة جداً ، فهي أكثر مما تظهر لأول وهلة . ولا يمكن أن تكون على غير هذا النمط . فمن رأس قائد العمال ولدت خواطر هذا المفكر العظيم : الشاعر ، العالم في شؤون الثورة ، الموهوب بشعور هائل لمس الحقائق . كان بعيد النظر ، كثير النشاط ، جمع كل قواه وحولها الى هدف موحد . وكان يشعر بنفسه مرتبطاً بمودة مع هؤلاء الأدباء المبدعين الخياليين .

إن لينين الذي تنبأ عن حوادث المستقبل ، كان شاعراً جعل من تصوراته الخيالية منهاجاً للكفاح السياسي . كان لينين قارئاً مخلصاً يتتبع صدور أهم المؤلفات الأدبية ، ورغم ان الشرطة القيصرية كانت تلاحقه ، من جراء نضاله غير المشروع ، كان يتابع المطبوعات لمطالعتها ، وكان يجد لنفسه وقتاً للمطالعة .

روت نادجدا كروبسكايا أموراً عديدة عن لينين ، يظهر منها أنه كان محباً للأدب ، وله ذوق دقيق ، وكان يكره الفخر المبالغ فيه ، وتعجبه الرصانة والاتزان . كان محباً للمسرحيات جداً ، غير انه حضر ذات ليلة مسرحية غوركي « الملجأ الليلي » فلم تعجبه وأثارت أعصابه ، حتى انــه حرم على نفسه حضور الروايات مدة طويلة ، الى أن اشتاق اليها أخيراً ، ولم يستطع المقاومة ، وحضر تمثيلية « العم فانيا » لتشيخوف .

ولكن كم كان يتألم لآلام البطل الذي كان يعارك الحياة ، وتطحنه يوماً بعد يوم دون أي أمل ولا تخلّص من الحالة السيئة التي هو فيها .

ولما كان لينين في سيبيريا كانت توجد على طاولته ، المسرحية الشعرية « فاوست » لغوته .

فلنتصوره لحظة في كوخه الذي يكتنفه الجليد يطالع على ضوء مصباح المكتب الابيات المتعلقة بالمتمرد المتألم بسبب طموحه السامي ، تـدفعه اهواء المعرفة ، في مقارنة نفسه مع الكون :

هبوا أيها الأجراء والكادحون باجمعكم
اعملوا بجرأة حتى أرى ما قد تصورته
إمسكوا بالرفش والمعول
لينتصر المخطط منذ البداية
أسمع الحشد يفلح الأرض بكد
مرضياً نفسه بنفسه

لا بد أن عقله كان متقداً ، على ضوء المصباح . وتقول كربسكايا أنها قرأت له ـ قبل وفاته بيومين ـ « محبة الحياة » لجاك لندن . ولم يزل هذا الكتاب على طاولته حتى اليوم . لقد ادهشته هذه القصة بشجاعة بطلها ، ومغامرات ذلك البطل الذي اخترق سهول الاسكا ، مقاوماً الثلوج الكثيفة ومتحملاً الم الجوع .

ان افق لينين الأدبي كان واسعاً جداً ، فكان يطالع مؤلفات تولستوي وشكسبير وهاين وغوركي وعدد كبير من الكتاب الذين كان يتغذى عقله من انتاجهم الفكري . كان اثر لينين في معالجة امور الأدباء فائقاً جداً ، غير انه مارسه بكل تواضع وبساطة .

هذا الرجل الذي عرف العالم جيداً جاد بآراء قيمة فيما يتعلق بالابداع الأدبي ، وبنتيجة ذلك اثرت الآداب الواقعية الاشتراكية .

وقد تنبأ لينين بفوز هذا الأدب ودعا اليه يوم كتب : « ان على دعاة الاشتراكية ان يقاوموا ادب الرياء المرتبط بالبرجوازية ، بادب حر ، أدب الطبقة العاملة » .

القسم الثاني

حياة لينـــين

لينين في يوم عمل

ليديا فوتيفا

حياة لينين

ولد فلاديمير ايليتش أوليانوف (لينين) في ٢٢ نيسان عام ١٨٧٠ في مدينة صغيرة على نهر الفولغا تدعى سيمبيربك . وكان والده مدرساً يعمل في حقل التربية والتعليم .

تميز فلاديمير ايليتش منذ صغره باجتهاده وذكائه ودأبه على الدرس . وقد شغف في سن مبكرة بقراءة التراث الكلاسيكي الأدبي لأدباء روسيا العظام ، كما شغف بقراءة مؤلفات الديمقراطيين الثوريين من أمثال بيلينسكي وغيرتسن وتشيرنيشيفسكي . أما ميوله الثورية فقد بدأت تتضح في أواخر مراحل دراسته الثانوية . وكان تعرف لينين على الفكر الماركسي عن طريق أخيه الأكبر الكسندر الذي كان عضواً في جمعية « ارادة الشعب » السرية . وكان الكسندر هذا يؤمن بالعنف الثوري ، حتى أن هذا العنف أدى به الى الاشتراك في محاولة لاغتيال القيصر الكسندر الثالث . ولكن المحاولة فشلت وانتهى الأمر به الى الاعدام عام ١٨٨٧ . ولكن لينين كان يؤثر طريقاً آخر في الثورة ، غير العنف والاغتيال .

وفي آب عام ١٨٨٧ التحق فلاديمير بكلية الحقوق في جامعة قازان . وفي الجامعة بدأ نشاط لينين الثوري الجدي . ولكن لم تكد تمضي بضعة شهور على انتسابه الى الجامعة حتى طرد منها للنشاطه الثوري . والتحق فلاديمير في قازان باحدى حلقات

« فيدوسييف » الماركسية ، حيث درس الماركسية على أصولها . وفي أواخر عـــام ١٨٨٩ انتقل لينين الى سمارا حيث عكف على العمل والدراسة وتعلم اللغات الأجنبية . كما عكف على قراءة مؤلفات ماركس وانغلز بالألمانية . واستطاع في الفترة ذاتهـــا أن يفرغ من قراءة برنامج كلية الحقوق وأن ينال شهادة الحقوق من جامعة بطرسبرغ .

وبدأ لينين منذ عام ١٩٨٢ يزاول مهنة المحاماة في مدينة سمارا ، متابعاً في الوقت نفسه نشاطه الثوري .

واستطاع لينين في فترة قصيرة بفضل نشاطه الثوري ودأبه واطلاعه الواسع على الماركسية أن يصبح قائداً للماركسيين في مدينة بطرسبرغ ، بعد أن انتقل اليها عـــام ١٨٩٣ ، وكانت هذه من أكبر مراكز تجمع الصناعة والعمال . وكان لينين أول ماركسي يطرح فكرة تحالف العمال والفلاحين من أجل اسقاط الحكم القيصري وبناء المجتمع الاشتراكي الجديد ، وفكرة توحيد الحلقات الماركسية وتكوين حزب ثوري واحـــد يقود حركة العمال . وقد ضمن لينين هذه الآراء في كتابه الأول : « من هم أصدقاء الشعب ، وكيف يناضلون ضد الاشتراكيين الديمقراطيين ؟ » .

وخلال سنوات نشاط لينين الثوري حكم عليه بالسجن الانفرادي وبالنفي الى سيبريا . ولكن السجن والمنفى لم يفتا في عضده . واستمر في قيادة نضال الماركسيين، كما عكف خلال السجن والمنفى على كتابة عدد من مؤلفاته ورسائله القيمة . وقد شهدت الاشهر الاخيرة من المنفى ولادة مشروع انشاء حزب ماركسي في روسيا .

ويضطر لينين في عام ١٩٠٠ الى مغادرة البلاد بعد ان باتت حياته مهددة بالخطر والملاحقة من قبل الشرطة الروسية . وفي ميونيخ بألمانيـــا ، يشرع لينين بنشاط ثوري واسع . ويصدر من هناك جريدة « الشرارة ». وجاء صدورها في وقت كانت تتصاعد فيه الحركة الثورية في روسيا . وامكن « للشرارة » ان تصل الى روسيا سراً وان تنشر في اوساط العمال .

وفي عام ١٩٠٢ اصدر لينين كتابه « ما العمل ؟ » الذي شرح فيه اسس مشروع الحزب البروليتاري القائم على النظرية الماركسية ، واهداف هذا الحزب .

اما عام ١٩٠٣ فقد شهد احداثاً هامة بالنسبة لتطور الحركة الاشتراكيـــة في روسيا . فقد عقد في هذا العام المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي — الديمقراطي الروسي في بروكسل ، ثم في لندن ، وكان هذا المؤتمر بداية الانشقاق داخـــل الحزب وظهور

الاتجاه البلشفي (الاغلبية) برئاسة لينين ، والاتجاه المنشفي (الاقلية) . وقد شهدت السنوات التالية صراعاً حاداً بين الاتجاهين . وعمل لينين خلال هذه السنوات على تعرية انتهازية « المناشفة » ، وعلى تقوية وحدة البروليتاريا . وجاء كتاب لينين « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء » الذي صدر عام ١٩٠٤ ، ليرسخ هذه الافكار .

وكان عام ١٩٠٥ حافلا بالاحداث . ففيه عقد المؤتمر الثالث للحزب الاشتراكي الديمقراطي بحضور البلاشفة وحدهم . وفيه اصدر لينين كتابه « خطة الاشتراكية — الديمقراطية في الثورة الديمقراطية ». وفيه ايضاً اندلعت انتفاضة الدارعة «بوتومكين» في البحر الاسود . كما شهد هذا العام العديد من الاضرابات الكبيرة في المراكز الصناعية وشملت الاضرابات كثيراً من مناطق البلاد . ووقعت في العام نفسه انتفاضة عمال موسكو المسلحة ، كانت ذروة هذه الاضرابات السياسية ضد الحكم القيصري . وكانت هذه الانتفاضة مدرسة للثوريين وتجربة نضالية عملية لهم استقوا منها دروساً بالغة العظة .

ومن جديد يضطر لينين الى مغادرة البلاد تحت ظروف التعقب والملاحقة . فقد باتت شخصية « لينين » خطراً على النظام القيصري كله . وهنا تبـــدأ فترة طويلة من المنفى الاضطراري بالنسبة للينين بــدأت عام ١٩٠٧ بهروبه من فنلندة تحت ظروف الملاحقة . وانتهت بعودته الى البلاد عام ١٩١٧ . وعاد لينين الى متابعة النضال في العواصم الاوروبية والاتصال بالاحزاب الاشتراكية والعمالية فيها . واهتم باصدار جريـــدة « البروليتاري » البلشفية التي صدر العدد الاول منها في شباط عام ١٩٠٨ . كما عكف لينين خلال هذه الفترة على التأليف والعمل الفكري النظري . فقد وضع في عام ١٩٠٩ كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » ، وفيه يفضح لينين اعـــداء الفلسفة الماركسية التحريفيين ، ويبين الطابع الرجعي للفلسفة البورجوازية المعاصرة . كما عمل لينين خلال هذه الفترة على تلخيص نتائج الثورة الروسية الاولى (١٩٠٥ — ١٩٠٧) ودراسة الخبرة الناشئة من نضال الجماهير . وبين لينين أهمية دور البروليتاريا القيادي وأهميـــة تعزيز التحالف بين طبقتي العمال والفلاحين . وكرس لينين جهداً كبيراً لدراسة المسألة الزراعية في روسيا ، انتهى بوضع مؤلفه الهام «برنامج الاشتراكية — الديمقراطية الزراعي في الثورة الروسية الاولى ١٩٠٥ — ١٩٠٧ » .

ويتابع لينين من اوروبا قيادة نضال الحزب وتعزيز صفوفه والوقوف في وجه العناصر التصفوية والاستسلامية والانتهازية . وقد عمل لينين على تشجيع جريـــدة « البرافـــدا » التي اصدرها البلاشفة في بطرسبرغ عام ١٩١٢ . كما شجع البلاشفة على

الاشتراك في انتخابات مجلس « الدوما » ووضع بنفسه برنامج حملة البلاشفة الانتخابية . وراح يوجه عمل النواب البلاشفة ويكتب معهم مشروعات الخطابات في القضايا السياسية الهامة . لقد كان لينين ينطلق في موقفه من الانتخابات، من أن الاشتراك في الحملة الانتخابية سيساعد الحزب على توثيق صلاته بالجماهير وينشط عمل المنظمات الحزبية . وكان يقول : « على نتيجة الانتخابات تتوقف امور كثيرة تتعلق ببناء الحزب » .

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤، وقف لينين ضد هــذه الحرب الوحشية مديناً الطابع الامبريالي لهذه الحرب. ورفع لينين والبلاشفة في هذه الفترة العصيبة راية الاممية ، ونادى لينين باعلان الحرب على الحرب . وبين لينين أن شعار (الدفاع عن الوطن) هو شعار خداع، فالحرب انما اشعلها الرأسماليون ، من اجل مصالحهم وارباحهم . ودعا لينين جميع الثوريين والاشتراكيين الى العمل على هزيمة حكوماتهم في الحرب . وخاض لينين نضالاً عنيفــاً ضد البورجوازية الروسية التي ناهضت شعارات البلاشفة واتهمت لينين والبلاشفة بعدم الاهتمام بمصالح الوطن . كما ناضل لينين من اجل أن يكشف خيانة زعماء الاحزاب الاشتراكية في أوروبا الغربية الاستعمارية ، الذين غدروا بمصالح العمال وجعلوا يبررون سياسة الحكومات الاستعمارية في بلدانهم ، ويدعون العمال وشعوبهم الى تأييد الحرب . والواقع أن الحرب العالمية الامبريالية كانت امتحاناً صحيحاً للجوهر الاممي الحقيقي للاحزاب الاشتراكية والاشتراكيين ، نجح فيه لينين والبلاشفة وسقط فيه كثير من الاحزاب الاشتراكية والاشتراكيون في أوروبا وروسيا . فقــد خدع بعضهم بشعار « الدفاع عن الوطن » ، وراح بعضهم الآخر يضلل - عن قصد - العمال والجماهير البسيطة بهذا الشعار .

وقد اصدر لينين عام ١٦١٥ كتابه « افلاس الاممية الثانية » فضح فيه خيانة زعمــاء الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، والتفاهم مع البلاشفة الروس في التخلي عن مصالح الطبقة العاملة والجماهير الكادحة. ثم اصدر بعد ذلك كتاب « الاشتراكية والحرب » الذي بين فيه موقف الحزب الاشتراكي — الديمقراطي الروسي من الحرب .

وفي عام ١٩١٦ وضع لينين مؤلفه الضخم « الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية » الذي قدم فيه تحليلاً لجوهر الرأسمالية وتناقضاتها واهدافها الامبريالية .

وفي عام ١٩١٧ وصلت الحركة الثورية في روسيا الى مرحلة متقدمة من النضج والقوة . ففي شباط من هذا العام استطاع عمال (بتروغراد) اعلان الاضراب السياسي العام ورفع شعارات « فليسقط القيصر » ، « فليسقط الحرب » ، « نريد الخبز » .

وانضم جنود الجيش الى العمال الثائرين في مواجهة القيصرية ، وسقط النظـــام القيصري ، واستطاعت الثورة الديمقراطية البورجوازية في روسيا ان تنجح . وانبثقت خلال الثورة سوفيتات (مجالس العمال والجنود . ولكن المناشفة والاشتراكيين الثوريين استطاعوا الحصول على الاغلبية في هذه المجالس ، وبالتالي شكلت هذه العناصر الحكومة المؤقتـــة . وظهرت آنذاك ازدواجية في السلطة . فقد تجسدت سلطة البورجوازية في الحكومة المؤقتة ، وتجسدت سلطة العمال والفلاحين في السوفيتات .

بعد سقوط الحكم القيصري ووصول الحكومة المؤقتة الى الحكم ، خرج حزب البلاشفة الى مسرح النضال العلني . ولكن الحكومة البورجوازية الجديدة لم تسمح للينين وبعض رفاقه البلاشفة بالعودة الى روسيا . وراح لينين يبحث منذ ذلك الحين عن طريقة للوصول الى روسيا ليقود نفسه نضال البلاشفة والكادحـــين ضد الحكومة المؤقتة . واستطاع لينين فعلاً الوصول الى مدينة بتروغراد ليلة الثالث من نيسان عام ١٩١٧ ، بعد عزلة طويلة دامت قرابة عشر سنوات . وفي الرابع من نيسان طرح لينين « مبادىء نيسان » التي تحدد أسس النضال في سبيل الانتقال من الثورة الديمقراطية ـ البورجوازية الى الثورة الاشتراكية التي تضع السلطة في أيدي الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين . وبين لينين أن الحكومة المؤقتة تدافع عن مصالح الرأسماليين وكبار ملاك الأراضي . وطرح لينين شعار « السلطة كلها بيد السوفيتات » . ولكنه لم يلبث أن نبذ هذا الفكر بعد أن أصبحت السوفيتات ألعوبة في يد الحكومة المؤقتة .

أدى موقف البلاشفة المتصلب من الحكومة المؤقتة الى انقضاض هـــذه الحكومة بالسلاح على مظاهرات العمال في شوارع بتروغراد ، والى القيام بحملة اعتقالات وقمع ارهابية ضد البلاشفة . وأصدرت الحكومة المؤقتة أمرها بالقبض على لينين حياً أو ميتاً . وقررت اللجنة المركزية لحزب البلاشفة اخفاء لينين حفاظاً على سلامته . وتابع لينين من مخبئه قيادة نضال البلاشفة والاستعداد للثورة المسلحة لإسقاط السلطة البورجوازية .

استطاع البلاشفة بنضالهم العنيد ضد الجنرال كورنيلوف ، الذي قام بحركة عسكرية معادية للثورة ، وبانتصارهم الكاسح على هذه الحركة والقضاء عليها ، أن يحظوا بتأييد الجماهير الشعبية الواسع . ونال البلاشفة الأغلبية الكاسحة في سوفيتات موسكو وبتروغراد . وطرح الحزب من جديد شعار « السلطة كلها بيد السوفيتات » . وكان طرح هذا الشعار بمثابة نداء الى جماهير الكادحـــين للانقضاض المسلح على الحكومة البورجوازية . وكان لينين يصر بقوة في رسائله التي بعث بها من مخبئه في فنلندة الى اللجنة

المركزية للحزب ، على ضرورة القيام بالثورة المسلحة بدون انتظار أو تردد . واعتبر لينين أن الفرصة مواتية لنجاح الثورة ، كما اعتبر التواني عن الثورة ضربة قاصمة للثورة في حد ذاتها .

وفي السابع من تشرين الاول عام ١٩١٧ استطاع لينين أن يصل متخفياً الى بتروغراد ، وراح يشرف بنفسه على التحضير للثورة المسلحة . لقد أمكن للينين بالحجة والمنطق أن يقنع اللجنة المركزية بضرورة إعلان الثورة المسلحة . واتخذت اللجنة المركزية بالفعل هذا القرار بالأغلبية ، ولم يشذ عن ذلك سوى كامنيف وزينوفيف .

وطالب لينين أن تعد الثورة المسلحة في الخامس والعشرين من اكتوبر (تشرين الأول) قبل افتتاح المؤتمر الثاني لمجالس السوفييت ، حتى يقطع الطريق على القوى المعادية للحزب والثورة . وهذا ما حدث بالفعل . ففي صباح ٢٥ تشرين الاول (٧ تشرين الثاني حسب التقويم الجديد) استولى الثائرون من العمال والبحارة والجنود على أهم المرافق العامة في العاصمة . وفي المساء احتلت وحدات الثوار « قصر الشتاء » . وانتصرت ثورة اكتوبر المسلحة ، وسقطت الحكومة المؤقتة ، وانتقلت السلطة الى السوفييتات . وفي مساء اليوم ذاته ألقى لينين خطاباً في مجلس سوفييت بتروغراد قال فيه : « الآن يبدأ عهد جديد في تاريخ روسيا . وإن من شأن هذه الثورة الروسية الثالثة أن تفضي في نهاية المطاف الى انتصار الاشتراكية » .

وانتخب المؤتمر الثاني لمجالس السوفييت ، الذي انعقد في بلدة سمولني في ٢٦ تشرين الأول ، « لينين » رئيساً لمجلس مفوضي الشعب . وتم تشكيل اول حكومة للعمال والفلاحين بزعامة لينين .

واقترح لينين بعد استلام حكومة السلطة بأيام عقد صلح مع المانيا بصورة منفردة . وقبل الألمان بالصلح ، ولكنهم وضعوا شروطاً قاسية له . فقد طالبوا باقتطاع قسم كبير من الأراضي السوفييتية . وكانت فكرة عقد الصلح مثار خلاف حاد بين الحكومة ، وبين الاشتراكيين اليساريين والمناشفة الذين كانوا يرفضون فكرة الصلح . وأدى موقف هؤلاء —ومؤامرة اغتيال السفير الألماني التي دبروها — الى أن تعلن ألمانيا الحرب على روسيا في شباط عام ١٩١٨ . وإزاء أوضاع البلاد العسكرية المهلهلة وضعف الجيش الذي انهكته الحروب ، لم يجد لينين بداً من التوجه بندائه الشهير «الوطن الاشتراكي في خطر» . وسرعان ما تشكلت فصائل الحرس الأحمر الجديدة من العمال والفلاحين الثوريين . وقد بلغ عدد أفراد هذه الفصائل في نهاية ١٩١٨ قرابة ١٠٧ مليون رجل ،

حيث لتقف في وجه الجيش الألماني النازي . وتلى ذلك توقيع معاهدة الصلح مع المانيا في شهر تشرين الثاني عام ١٩١٨ .

وما كادت حكومة لينين الثورية تفرغ من مشكلة الحرب مع المانيا، حتى ابتدأت تواجه الصعوبات التي خلفها الحكم القيصري الاستبدادي والحرب الامبريالية . ولكن الدول الامبريالية لم يسرها نجاح السلطة السوفييتية ، وخشيت من تأثير نجاح الثورة الاشتراكية على النظام الرأسمالي . وهكذا شنت ١٤ دولة رأسمالية الحرب على روسيا الاشتراكية الفتية في ربيع عام ١٩١٨ ، للاطاحة بهذه الجمهورية الوليدة . وبات على حكومة لينين الثورية أن تواجه أعداءها في الداخل – وهم الرأسماليون والاقطاعيون والحرس الأبيض – وفي الخارج ، وهم الدول الرأسمالية الغازية . وتعرضت البلاد – نتيجة للحرب والحصار – للمجاعة ونقص الحبوب والمواد الضرورية الاخرى . وأصبح الحكم الثوري في روسيا كريشة في مهب الريح . في تلك الأوقات الحرجة، عمل لينين كما لم يعمل من قبل، من أجل توحيد الصفوف وتقوية العزائم للوقوف في وجه الغزاة والتغلب على صعوبات التموين ونقص الغذاء . ولم يكن لينين يخف الصعوبات التي كانت تواجه الوطن . كما كان الشيوعيون يتحدثون بصراحة عن الأوضاع في البلاد السوفييتية ، ويدعون العمال والفلاحين والجنود الى تعزيز السلطة السوفييتية .

في تلك الأيام العصيبة ، تعرض لينين لمحاولة اغتياله للمرة الثانية . وكانت محاولة الاغتيال هذه المرة برصاصات مسمومة أصابته في صدره . وقد بذل الأطباء جهوداً كبيرة لانقاذه من الموت . واستطاع لينين بما عرف عنه من قوة ارادة أن يصارع الموت وأن يعيش في النهاية ليتابع نضاله من أجل بناء الدولة السوفييتية الناشئة . ومع كل مشاغله الجبارة كان يجد متسعاً من الوقت لاستقبال وفود العمال والفلاحين وممثلي الأحزاب الشيوعية في البلدان الاخرى ، والساسة البورجوازيين الاجانب . كما كان يجد الوقت للعناية بالأمور الداخلية التفصيلية ، كبناء المصحات ومؤسسات الأطفال وتحسين البرامج التعليمية .

استمرت حرب التحرير ضد الغزاة الامبرياليين قرابة أربعة أعوام، انتهت في عام ١٩٢٢ . وكانت الحرب الاهلية قد انتهت في نهاية عام ١٩٢٠ ، بالانتصار على جيش فرانغيل الأبيض . وخرجت روسيا الاشتراكية تحت زعامة لينين منتصرة على أعدائها في الداخل والخارج .

وفي آذار عام ١٩٢١ وضع لينين أمام المؤتمر العاشر للحزب أسس السياسة

الاقتصادية الجديدة للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . كما طرح لينين في العام نفسه مهمة تطهير الحزب من العناصر الانتهازية والاتكالية والبيروقراطية . وأوكلت مهمة التطهير الى لجان حزبية خاصة مؤلفة من الحزبيين القدماء .

وفي عام ١٩٢٢ اشتدت وطأة المرض على لينين بتأثير الرصاصات المسمومة في جسده وتأثير العمل والاجهاد المتواصلين . وكان آخر خطاب للينين هو خطابه في جلسة عامة لمجلس السوفييت في موسكو في تشرين الثاني عام ١٩٢٢م ، الذي أشار فيه بصفة خاصة الى دور الحزب في بناء المجتمع الاشتراكي .

وكان لينين قد اهتم في اخريات أيامه بمهمة توحيد الجمهوريات السوفييتية – وفق مبدأ الحرية والاختيار – في دولة اتحادية واحدة . واتخذ المؤتمر الاول لمجالس السوفييت لعموم الاتحاد السوفييتي قراراً في كانون الاول عام ١٩٢٢ بتأسيس « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية » .

وفي مساء ٢١ كانون الثاني عام ١٩٢٤ توفي لينين .. تاركاً وراءه سجلاً حافلاً من النضال النظري والكفاح العملي سيظل نبراساً لاجيال الثورة بعده .

لينين في يوم عمل

للكاتبة السوفييتية

ليديا فوتييفا (١)

ترجمة : ظافر عبد الواحد

يعلم الناس قابلية (فلاديمير إيليتش لينين) الجبارة للعمل . كانت هذه القابلية تمتح أولاً من معرفة تامة بطريقة الديالكتيك الثوري ، وتجربة عملية واسعة في قيادة نضال الطبقة العاملة . وعلى المرء أن يرى قدرة استثنائية على ترتيب أموره ، ومعرفة توزيع وقته توزيعاً عقلانياً ، والاستفادة من كل دقيقة استفادة تامة .

كان لينين يصقل مواهبه منذ نعومة أظافره ، كما تشهد بذلك أخته (ماريا إيليتشنا أوليانوفا) .

وتتيح لنا المواد المنشورة في (آثار) لينين — في المقتطفات وغيرها

(١) ولدت عام ١٨٨١ ، وما تزال تناضل مع الحركة الثورية منذ عام ١٩٠١ . كانت أمينة سر لينين منذ عام ١٩١٨ . — المترجم —

من المطبوعات – وتلك المحفوظة في معهد الماركسية – اللينينية ، وضع قائمة بالمسائل والمشكلات التي كانت تشغل لينين في يوم عمل .

بيد أن هذه الوثائق لاتستنفد كل مضمون وحجم أعماله ، لأن صور أعماله كانت مختلفة الى أقصى حد ، وتجاوز نشاطه اليومي كثيراً إطار الوثائق التي كتبها بنفسه .

كان لينين يستمع في الصباح ، منذ قدومه الى المكتب ، الى تلخيص أمين سره لوضع الأمور الراهنة العاجلة وتنفيذ الأوامر التي صدرت بالأمس . ويتصفح الرسائل والمواد ويصدر بموجبها الأوامر ، ويخابرهاتفياً ، ويستقبل زائرين ويكلف أمين سره ورئيس الشؤون الادارية القيام بمهات متعددة بصدد المشكلات التي تبرز في مجرى المقابلات أو فحص الوثائق . ويدرس جدول أعمال اليوم ومواد الاجتماع المقبل ، ويمارس دور الرئيس ويتحدث في اجتماعات مجلس مفوضي الشعب (سوفناركوم) ، ومجلس العمل والدفاع ، والمكتب السياسي ، ومختلف البعثات ، ويسهر على عمل السوفناركوم الصغير ، ويستعرض ويؤيد قرارات الاجتماع الاداري لمجلس العمل والدفاع أو السوفناركوم الصغير ، ويكتب رسائل وبرقيات ، ويتابع الوضع الدولي باهتمام ، ويتصفح الصحف والمجلات والمؤلفات الروسية والأجنبية مسجلاً غالباً ملاحظات على هوامشها .

وكثيراً ما كان لينين يتحدث في الاجتماعات ولقائه مع العمال وجنود الجيش الأحمر والفلاحين ، ويقدم التقارير الى الندوات والمؤتمرات . وكلما هيأ تقريراً ، كتب مخططاً أو خلاصة لايكاد يرجع اليها عندما يأخذ في الحديث :

وكان لينين – أثناء إنجاز هذا العمل اليومي الكثيف – يكتب مقالات سياسية للصحافة ، وفصولاً من مؤلفات سياسية هامة .

وكانت مؤلفاته النظرية وثيقة الصلة بالمسائل العملية لأحداث السياسة الداخلية أو الدولية التي تواجه السلطة السوفيتية .

والخلاصة ، فان فلاديمير إيليتش كان يدير العمل من مكاتبه . ولم يمارس أحد من العاملين في أمانة سره الخاصة - التي كانت في الوقت نفسه أمانة سر السوفنار كوم ومجلس العمل والدفاع - العمل المكتبي قبل الالتحاق بالسوفنار كوم . كان لينين يعلمنا أن نعير أشد انتباه الى أدق التفاصيل في وظائف أمانة السر كافة . ويرشدنا كيف يجب إرسال الرسائل لتصل الى المرسلة إليهم بأسرع ما يمكن ، وكيف يحضر جدول الأعمال اليومي ومواد الاجتماعات ، وكيف تكتب الضبوط ، وكيف تنظم إذاعة القرارات المتخذة على المؤسسات ، وكيف يدعى المقررون الى الاجتماعات كيلا يضيعوا وقتهم في الدهاليز . ولم تكن إرشاداته - التي غالباً ما تكون شفوية - تعليمات مجردة أعدت مسبقاً ، بل كانت تحوي دائماً مسألة عملية مشخصة أو إحدى الأخطاء في عملنا .

ان هذه القائمة وحدها ، بأشكال وأنواع الأعمال اليومية لفلاديمير إيليتش ، تعطي فكرة ما عن كمية العمل الذي كان ينجزه كل يوم . ومن البديهي في الوقت نفسه أن جانباً هاماً من عمله ، لايمكن تسجيله لا من حيث الكم ولا من حيث المضمون . فلا يمكن - مثلاً - حساب الزمن الذي تأخذه منه محادثاته الهاتفية وتكليفه أعوانه شفوياً بالمهات ، والذي يقتضيه لاستقبال زائرين أو وفود ، ولا تبقى هذه اللقاءات الا في ذاكرة المشتركين بها ، أصحاب المحادثات أو المسائل المثارة في مجرى هذه اللقاءات .

فلما كان فلاديمير إيليتش يغادر موسكو ، ولكنه كان مرتبطاً بجماهير الشعب الواسعة بآلاف الخيوط المرئية وغير المرئية . ويعلم - خيراً من أي كان -

الشعور بحالة فكر الجماهير الشعبية ومعرفة حاجاتها . وقد اكتسب لينين هذه الموهبة خلال سنوات الهجرة الطويلة الأليمة ، عندما كان ينشيء حزبنا ويقوده دون أن ينفك عن الشعور – بصواب – بحالة الفكر الثوري للطبقة العاملة والفلاحين ، وقد فصلته المسافة والرقابة القيصرية عن روسيا ، ولكنه ظل مرتبطاً بها بكل أفكاره ومشاعره .

كان لينين يكرس جانباً كبيراً من وقته لاستقبال الزائرين . لم تكن لديه أيام معينة للاستقبال ، ولكن ما أندر اليوم الذي لا يستقبل فيه أحداً . وعلى من يشاء أن يرى لينين ، أن يسجل اسمه عند أمين سره الذي يعرض عليه كل صباح أسماء الأشخاص الراغبين في مقابلته والمسائل التي يرغبون في معالجتها معه . وغالباً ما يبادر لينين نفسه بعض المقابلات . فعندما كان يعالج – مثلاً – في شباط (فبراير) ١٩٢١ مسألة الانتقال الى السياسة الاقتصادية الجديدة ، استدعى الى موسكو فلاحي حارة (أوفا) من حي (بولغانوف) من قرية (بيكتيتوف) ، لمناقشات حاجات الفلاحين . وعندما صودر فائض القمح في ١٤ شباط ١٩٢١ قبل انتهـــاء المهلة المتوقعة في اقليم (تامبوف) ، استدعى (ن . غمتزيف) أمين سر اللجنة الاقليمية الى لينين ليقدم تقريره عن ذلك . وفي اليوم نفسه ، استقبل لينين وفداً من فلاحي اقليم تامبوف . وأخذ ملاحظات منهم .

كان لينين يسجل على تقويمه ساعة كل موعد بالضبط (الساعة والدقيقة) .

وقد يضبط فلاديمير إيليتش ساعته على ساعة الرفيق الذي يتفق معه هاتفياً على موعد . يروي الرفيق (غولتزمان) في مذكراته كيف حدث له مرة أن طلب هاتفياً موعداً من لينين .

وسألني فلاديمير إيليتش : كم ساعتك ؟ وأذكر أن الفرق بين ساعتي

وساعة فلاديمير إيليتش كان ثلاث دقائق ، وحدد لي فلاديمير إيليتش الموعد حسب ساعتي » .

كان لينين يستقبل غالباً ، شخصين الى ثلاثة في اليوم . ولكن عدد الزائرين كان أكثر من ذلك أحيانا . وهكذا استقبل ثمانية أشخاص في ٩ شباط ١٩٢١ . واقتضى هذا منه أكثر من أربع ساعات .

فقد استقبل لينين في ذلك اليوم الرفيق (دزيرجنسكي) رئيس اللجنة العليا لروسيا ، والرفيق (بوكروفسكي) نائب مفوض الشعب للشؤون التعليمية ، والرفيق (بيلا كون) أمين سر اللجنة التنفيذية للكومنترن ، والرفيق (أ . تشيرنوف) وهو فلاح سيبيري ، وعضواً في الهيئة التفتيشية للعمال والفلاحين للمسائل المتعلقة بالانتقال الى السياسة الاقتصادية الجديدة ، ونائب مفوض الشعب للشؤون الزراعية ، والممثل فوق العادة لاتحاد جمهوريات روسيا السوفيتية الاشتراكية في ليتوانيا ، والرفيق روي عضو الحزب الشيوعي الهندي الذي تباحث معه ساعة ونصف . ويعبر تشيرنوف في مذكراته تعبيراً حياً عن الانطباع الذي أحدثه فيه لينين . وهذا ما كتبه :

« ما الذي يجعل من لينين رجلاً عظيماً ؟

هذا هو . لاشك أنه لم يكن ينصت إلي أنا كشخصية استثنائية ، وإنما كان ينصت عبري الى كل الفلاحين ، ويرصد من خلالي كل تعقيد وضع القاعدة . »

كان لينين يرأس كل يوم تقريباً اجتماعات الاجهزة او مفوضيات الحكومة والحزب (السوفنار كوم ، مجلس العمل والدفاع ، المكتب السياسي ، المفوضية الاقتصادية ، اللجنة المالية ، مفوضية القمح الخ . .) . وقد انشئت هذه الاخيرة

في كانون الثاني (يناير) ١٩٢١ للسهر على شحن القمح الى مركز البلاد ولإزالة العقبات التي تعترض سبيله .

من المستحيل عزل يوم من ايام عمل لينين عزلاً تاماً عن الأيام السابقـة واللاحقة ، عن المسائل الهامة التي كانت تشغل الحزب والدولة السوفييتية ورئيسها لينين .

فمن المفهوم أنه ما كان لتلك المسائل أن تخرج من ساحة لينين ، حتى ولو لم تتخذ صورة مشخصة لوثيقة مكتوبة ، في ذلك اليوم .

ويمكن أن يُضرب مثل ٢ شباط ١٧٢١ - وهو يوم عمل عادي - لأخذ فكرة أكمل عن موهبة لينين الجبارة للعمل .

كان على الحزب والحكومة السوفييتية - في هذه المرحلة - حل مجموعة من المسائل الهامة جداً التي طرحها الانتقال من اقتصاد الحرب الى بناء اقتصاد سلمي . كانت مرحلة من أصعب مراحل الدولة السوفييتية . انهيار تام للاقتصاد القومي ، مصانع متوقفة ، مجاعة ونقص في المنتجات الغذائية والوقود والحاجات الضرورية ، استياء متزايد للفلاحين الذين أغاظتهم السياسة الشيوعية أثناء الحرب ، تمرد الكولاك[1] والاشتراكيين الثوريين في أقاليم عديدة من البلاد ، شل حركة الجيش في ظروف التدمير التام لوسائل النقل برمتها ، الوضع الدولي المتوتر .

أما في داخل الحزب ، فمناقشة تنظيمية فرضها عليه التروتسكيون[2] وشيعة بوخارين[3] وعناصر اخرى معارضة ، مناقشة حرفت الحزب عن المسائل اليومية .

---

(١) البورجوازية الفلاحية - المترجم -

(٢) اليساريون - المترجم -

(٣) اليمينيون - المترجم -

وكانت عبقرية لينين تهتدي الى الصراط المستقيم وسط كل هذه المسائل والحاجات والمقتضيات المختلفة والمتداخلة ، والتي تبدو متناقضـــة للوهلة الأولى أحياناً ، فتقود عبقريته الحزب والحكومة السوفيتية بحزم .

كان لينين يهيء – في الأشهر الأولى من عام ١٩٢١ – ويمهد للانتقال الى السياسة الاقتصادية الجديدة ، ويسهر على تحقيق الخطة العامة لإنارة روسيا – التي أقرها مؤتمر السوفيتات الثامن في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٠ ، وهي خطة ضخمة لإعادة بناء وتطوير الاقتصاد القومي على أسس اشتراكية – ويستعد للمؤتمر الثالث للكومنترن ، ويكتب مشروعات قرارات المؤتمر العاشر للحزب . وكان على لينين – في الوقت نفسه – أن يحل يومياً مجموعة من المسائل العملية الفورية ، مستجيباً الى الحاجات اليومية الملحة .

لقد انجز لينين في ذلك اليوم (٢ شباط ١٩٢١) العمل التالي ، كما يمكن أن نرى في وثائق وملاحظات أمين سره : رأس لينين أربع اجتماعات : من الساعة الحادية عشرة الى الثانية بعد الظهر ، اجتماع المفوضية الاقتصادية . ومن الثانية الى الرابعة ، اجتماع المكتب السياسي لمجلس المفوضين . وفي الثالثة – أثناء هذا الاجتماع – تلقى لينين رسالة هاتفية من أمين سر اللجنة الاقليمية لبطرسبورغ تعلمه بأن بطرسبورغ مستفزة ، وان مصانع (بوتيلوف) و (بالط) وغيرهما قد توقفت عن العمل لأن العمال لم يتلقوا وجبتهم الغذائية وينقصهم الوقود . فأجاب لينين برقياً : **« قرر مجلس الدفاع أمس شراء ١٨ مليوناً ونصف مليون وزنة من الفحم الحجري من الخارج . وقد عدّل التزويد ، لأنه تقرر اليوم تخصيص قطارين إضافيين لشحن قمح القوقاز » .**

ومن الساعة السابعة مساء ، رأس لينين اجتماعاً لمجلس مفوضي الحزب

الشيوعي البلشفي ، كُرِّس لإعادة تنظيم مفوضية الشعب لشؤون التعليم الرسمي .
وتلقى خلال هذا الاجتماع رقعة كتبها أمين السر : « هل يمكنكم أن تستقبلوا اليوم سوكولوف (عضو اللجنة الثورية السيبيرية) ؟ يقول أن لديه أمراً فورياً ، إنه يلح ، ويخابر مرات عديدة كل يوم . » وكتب فلاديمير إيليتش خلف الرقعة : « حسناً . لدي اليوم : ١ - كرجيجانوفسكي ، ساعة من الزمن ٢ - ثم سوكولوف . خذ رقم هاتفه » . واستمر اجتماع اعادة تنظيم مفوضية الشعب لشؤون التعليم الرسمي الى وقت متأخر .

وقام لينين في اليوم نفسه بالعمل التالي :

كتب رسائل ١ - الى مدير معهد ماركس - أنغلز مرفقاً الطبعة الألمانية لرسائل ماركس وأنغلز ، طالباً أن تذكر له مصادر الرسائل التي أشار اليها ، أين نشرت كاملة ، وعما اذا كان من الممكن شراء رسائل ماركس وأنغلز كافة (أو صور عنها) من (شايدمان وشركاه) وجمع كل ما نشر - في هذا المجال - في موسكو ؛ ٢ - إلى (ن . غوربونوف) رئيس الشؤون الادارية للسوفناركوم ، موضحاً له أنه كان لابد من مساعدة ممثلنا في أمريكا (ل . مارتنز) في عمله لتنظيم المساعدة الفنية لمصانعنا ومعاملنا ؛ ٣ - الى نائب رئيس السوفناركوم الصغير ، بشأن التقارير التي قدمها مفوضو الشعب الى السوفناركوم ، مقترحاً إعارة انتباه خاص الى تنفيذ أهم القرارات ، ولاسيما مايتعلق منها بزيادة المساكن والغرف في موسكو زيادة تتناسب مع زيادة عدد المستخدمين ، ومنع زيادة عدد المستخدمين السوفييت .

وتصفح (مسجلاً الملاحظات) : ١ - رسائل لويز بريانت (ريد) وهي صحفية أمريكية ، كانت تطلب مقابلة وتعلن تتويج كتبها باهداء الى لينين ؛

٢ - برقية من روستوف على الدون يخبر فيها رئيس أركان جيش الفرسان أن عاصفة ثلجية غمرت الفرقة السادسة عشرة .

وتلقى رسالة من (سيرومولوتوف) تتضمن قرار مجلس العمل والدفاع بشأن تعبئة عمـال المناجم ، فرد عليه تحريرياً : « **اعرض على مجلس المفوضين ١٠ - ١٥ سطراً واضحاً ودقيقاً** » .

ووقع المهمة المحررة لسيرومولوتوف ، الذي أوفد الى الأورال ليفتش وضع الصناعة ويعرف السبيل الى رفع انتاجيتها بسرعة .

وتلقى رسالة من (سياشكو) الذي كان يسأل عن الطرق التي يجب اتباعها لتسيير القطارات التي تنقل العمال الى القرم .

وتبادل مع أمين سره رقاعاً بشأن اشتراك (بوكروفسكي) في اجتماع إعادة تنظيم مفوضية الشعب لشؤون التعليم الرسمي ، وكتب رداً على كلمة بعث بها أمين سره يطلب موعداً للرفيق (فلاديميروف) : « **لست فلاديميروف يعطيك رقم هاتفه ؛ أرجو أن أتحرر اليوم حوالي التاسعة أو العاشرة** » .

وأجرى تعديلات على مشروع قرار المكتب السياسي لمجلس مفوضـي الحزب الشيوعي البلشفي الروسي ، بشأن المساعدة التي يجب تقديمها الى الفلاحين المتضررين بسوء الموسم .

وتصفح تقرير ومشروع قرار (سوكولوف) - عضو اللجنـة الثورية السيبيرية - المتضمن تنظيم استثمار الأرض والسياسة التموينية في سيبيريا ، وقرأ برقية من (أومسك) عن الوضع في سيبيريا . وسجل ملاحظات .

وعدل وأقر ووقع محضر الاجتماع الاداري لمجلس العمل والدفاع الذي كان يتضمن ٥٩ نقطة و ١٥ قراراً مختلفاً لمجلس العمل والدفاع بشأن مسـائل

الوقود (الاستخراج ، الشحن ،التسليم) ، واخصائيي النقل بالسيارات ، وملاكات العمال لاصلاح وبناء السفن ، ووضع مهندسين مساحين - يخدمون في الجيش الأحمر - تحت تصرف إدارة المساحة التابعة لمجلس الاقتصاد القومي في روسيا الخ ...

وأقرّ ووقّع بروتوكول المفوضية الاقتصادية .

ووقّع قرارات السوفناركوم واللجنة التنفيذية المركزية بشأن مكافحة فرار الجنود ، وقرارات السوفناركوم بشأن « أسرى الحرب البولونيين » ، و « وضع سلفة قدرها ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥٠٠ روبل تحت تصرف اللجنة الثورية لاقليم (فوتسك) ذي الحكم الذاتي لموسم ١٩٢١ » .

ووقّع القرار الاحتياطي بشأن الجوائز العينيّة .

لقد كتب فلاديمير إيليتش خلال ٣ شباط ١٩٢١ ، وقرأ ، وسجل ملاحظات ، ووقع أربعين وثيقة على الأقل عدا مواد الاجتماعات التي رأسها .

واستقبل لينين في اليوم نفسه (كرجيجانوفسكي) رئيس هيئة التخطيط، و (فلاديميروف) مساعد مفوض الشعب للشؤون المالية ، و (سوكولوف) عضو اللجنة الثورية السيبيرية ، والرفيق التشيكي (روزيكا) .

هكذا كان يوم العمل العادي عند فلاديمير إيليتش لينين .

إن دراسة تنظيم مضمون يوم العمل عند لينين - رئيس الدولة السوفيتية والحزب الشيوعي - تطلعنا على الصفات المميزة لاسلوب العمل اللينيني وعلى موهبة العمل - التي لانظير لها - لدى الرئيس العبقري والمعلّم الممتلىء بحكمة الطبقة العاملة .

القسم الثالث

صورة لينين في قصائد الشعراء السوريين — د. غريغوري شرباتوف

مراجع

العفوية والوعي والحزبية في فكر لينين — ميشيل كيلو

صورة لينين

في قصائد الشعراء السوريين

المستشرق السوفييتي

الاستاذ د. غريغوري شرباتوف

كتب شعراء سورية ـ مثلما كتب اخوانهم ورفاقهم الشعراء في كل ربوع العالم العربي ـ قصائد رائعة عن فلاديمير ايليتش لينين ، قائد ثورة اكتوبر وزعيم المناضلين في العالم كله من أجل الحرية وحياة أفضل .

ويجب القول ان هذه القصائد ليست بمثابة تحف شعرية بديعة فحسب ، وانما هي تعبير عن مشاعر الجماهير الشعبية العربية ، مشاعر المودة والاعجاب بشخصية لينين قائداً ومفكراً ثورياً وانساناً متواضعاً بسيطاً .

ونرى ذلك مثلاً في قصيدة « صورة صبح » للشاعر نذير الحسامي ، وقدنظمها ـ كما نقرأ في المقدمـــة ـ « في الذكرى السادسة والثمانين لولادة لينين معلم الاشتراكية وقائد موكب الانسانية نحو الحرية والديمقراطية والسلام » . ويرسم الشاعر صورة لينين برموز وألوان شعرية رائعة :

يا صديقي هجت في دماني   وتنزى عليك قلبي طروبا
طلبتك الآلام، ياطالب البرء ،   تمجدت ، طالبا مطلوبـــا

يا عدو الطغيان ، ثرت عليه فتردى ، مخالبا ونيوبــا
يا حبيب الانسان في كل ارض نازف الجرح ، جاهداً مغلوبا
وطبيب الحرمـان في كل دار لم يجـد قبل ان يراك طبيبـا
يا ابا الثورة الجيدة ، في الدنيا ، لظاها يدب فيها ، دبيبـا
ثورة الحق ، لم ير الناس احلى من سناها ، ولا احب لهيبـا

ومن المواضيع الرئيسية الهامة التي يعالجها الشعراء ، موضوع لينين وثورة اكتوبر . في قصيدة كبيرة « تحية لثورة اكتوبر » التي نشرت في مجلة « الطريق » في سنة ١٩٥٠ ، بيراع وصفي البني ، نرى ان الشاعر يسمي ثورة تشرين «بنت لينين» ، مشيراً الى الصلة العضوية بين زعيم الجماهير الثوري وثورة الجماهير . ويتحدث الشاعر عما قدمته الثورة الاشتراكية لشعب روسيا من مكتسبات ثورية عظيمة في الحرية والرخاء والعمل والمساواة :

بنت لينين ، وما احلى النداء ! انت صيّرت من الأرض سماء
شدت للعدل اساسا راسخا وجعلت القيصر الطاغي هباء
صحت بالظلم وبالحرب : كفى ! ورفعت السلم للنـــاس لواء
ووضعت الشعب في اعلى الذرى بعد ان أرخص بذلاً وفداء
قلت للانسان اذ حررتـه : لك هذي الارض ، فاملأها هناء
لك ، يا كادح ، ما يثمره جهدك الخصب ، نعيماً وثراء
لك انت السلطة العليا ، فكن سيد الدار ، واكملها ارتقاء

ثم يشير شاعرنا الى التأثير الحاسم لثورة اكتوبر وافكار لينين في الحركة الثورية والتحررية العالمية والثورات التحررية الوطنية ويقول :

بنت لينين ، وما احلى النداء ! يا منارا في الدياجير اضاء
منك في كل طريق صاعـــد حافز يغري ، نشيدا ودعاء

منك في كـل فؤاد ثائر نابض يخفق صبحا ومساء
منك في كل ذراع كادح همة تجزل للنصر العطـاء
كم شعوب انت قد ايقظتها من سبات جرعت فيه الشقاء
كم شعوب انت قد علّمتها كيف يبني الوطن الحر بناء

وفي قصيدة « ولادة لينين » (١٩٦٩) يصف الاديب ، الثائر والشاعر ، شوقي بغدادي لينين كشخصية فريدة تاريخية عظيمة ، فريدة العصر الثوري التحرري، الذي اصبح مثلا لكل مناضل شريف :

لا لست مؤمنا
بان طلقة الرصاص
تثقب صدغي
منفذ الى الخلاص
فانت في ذاكرتي
كالريح في هبوب
وانت في ذاكرة الشعوب
كالماء مشتاقا الى الوثوب
وعندما الكلام يبتذل
ويغلب المنتظر الملل
ينتصب المثل
مثلك المضروب
للعالم المغلوب

وفي الختام اود ان اقدم بعض الأبيات من قصيدة الشاعر محمد الحريري وعنوانها « المرأة ولينين » (نظمت في آذار ١٩٧٠) ويتحدث الشاعر فيها عن خلود لينين ،

وخلود افكار لينين العظيمة واهميتها الملحة اليوم وللعصور الآتية.وتخاطب المرأة لينين — وهي رمز البشرية والحياة — بقولها :

هيا تقدم : الشمس تجلس في انتظارك
حتى تقبل بعض نارك
هيا تقدم : ان الحصان بدون مهازيك يبقى الدهر ملجم
وانظر فقربك من تسمى « الأم » في مكسيم غوركي
منشورها لما يزل يشدو ويبكي
خذها وراءك انها تعبت كثيرا
من طول ما سكبت على الاجيال نورا
منشورها حملته فيتنامية اعلان دم
وبزوغ نجم
منشورها صوت الفدائية في الارض السليبة
تحنو على القدس الخضيبة
بضفائر مجدولة بالجمر ، بالنار العجيبة
ولأنت يا نيران قلبي في الحريق
هل تسمحين لشاعر يطوي الطريق
ان يستريح ولو قليلاً في ظلالك تحت شعرك
ليذوق قبل رحيله معسول ثغرك
فله وراء حنينه احلى حبيبة
ليست على شكل امرأة
لكن لها شكل الضمير اذا تجاوز منشأه
او شكل موج لم يخن مهما تناءى مرفأه

مراجع

صدر في موسكو

من كتب لينين باللغة العربية

(١) المختارات ٣ أجزاء ٦ مجلدات

(٢) ما العمل

(٣) التحالف بين العمال والفلاحين

(٤) اليسارية مرض الطفولة في الشيوعية

(٥) خطوة الى الامام خطوتان الى الوراء

(٦) الدولة والثورة

(٧) خطتان للاشتراكية الديمقراطية

(٨) حق الأمم في تقرير مصيرها

(٩) بصدد الحملة الثورية

(١٠) من هم أصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين

(١١) مهات منظمات الشباب

(١٢) الاشتراكية والحرب

(١٣) في الرقابة العمالية وتأميم الصناعة

(١٤) الدولة

(١٥) الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية

(١٦) مسألة الأرض والنضال في سبيل الحرية

(١٧) الى الفلاحين الفقراء

(١٨) موجز سيرة حياة لينين

(١٩) مسائل السياسة القومية والاممية البروليتارية

(٢٠) حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية

(٢١) مسائل بناء الاشتراكية والشيوعية في الاتحاد السوفييتي

(٢٢) ضد الجمود العقائدي والانعزالية في الحركة العمالية

(٢٣) موضوعات نيسان

(٢٤) ماركس انجلز الماركسية

(٢٥) رسالة الى العمال الاميركيين

(٢٦) مختارات في اربعة مجلدات

اصدرت وكالة نوفوستي
الكراريس التالية باللغة العربية

(١) لينين ، عن الماركسية

(٢) لينين ، عن الشبيبة

(٣) لينين ، عن الثقافة البروليتارية

(٤) لينين وبناء القوات المسلحة

(٥) لينين والفلاحين

(٦) سيرة لينين

العفوية والوعي والحزبية في

فكر لينين (١)

ميشيل كيلو

أ ـــ مقدمة عامة :

مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كانت الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية الأوروبية قد فقدت روحها الثورية الى حد كبير . ففي انجلترا كانت الحركة العمالية « متأخرة عشرات السنين حسب مفهوم الصراع الثوري للبروليتاريا » حسب تعبير لانجلز ، وفي ألمانيا كان الحزب العمالي الماركسي « يجد نفسه تحت قيادة قبضته من الانذال »(٢) ، وفي فرنسا كان « الاتجاه » الماركسي لايزال يتلمس طريقه بصعوبة بالغة ، رغم مساعدة انجلز الدائمة له (٣) .

---

(١) Henri Lefebvre. pour connaitre LA PENSEE DE LENINE , Editions Bordas , Paris ,

ترجمة د. كمال الغالي واديب اللجمي . منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٦٩ .

(٢) لينين : الأممية الثالثة ومركزها في التاريخ . المؤلفات المختارة . الجزء الثاني صفحة ٥٧٠ .

(٣) تبدو صعوبة هذا التلمس في رسائل فريدريك انجلز الى بول لافارج بشكل خاص .

. لقد تبرجزت قيادة الحركة العمالية الانجليزية وتحولت الى ارستقراطية عمالية ، وتسللت أفكار وعناصر برجوازية صغيرة الى الحركة العمالية الألمانية ، وألقت ظلها على برامج الحزب وسياسته وأفكاره وتركيبه ، وهنالك عديد من الشواهد التاريخية التي تدل على أن ماركس وانجلز لم يكونا راضيين عن سياسة الحزب وبرامجه ؛ ومن يقرأ نقد ماركس وانجلز لبرنامجي غوتا وايرفورت ، والرسائل التي تبادلها انجلز مع ليبكنخت وببيل حول الطريقة التي نشر وعومل بها رده على دوهرنج ، وآراء ماركس وانجلز في رسائلها الشخصية المتبادلة بينها حول بعض قادة الحزب ، يجد أن قائدي الاشتراكية لم يكونا مرتاحين للوضع الذي وصل الحزب اليه ؛ بل انها كثيراً ما خاضا ضد بعض قادته وافكاره معارك حامية كتلك التي سبق لها وخاضاها ضد البرودونية خلال فترة الأممية الأولى .

في تلك الفترة ، وبشكل خاص بعد فشل كومونة باريس ، بدأ ماركس وانجلز يوليان روسيا اهتماماً خاصاً . وبناء على شهادة انجلز فان ماركس كان عند موته « يدرك ببصيرته قرب ميلاد عصر تاريخي جديد يتصف بشكل خاص بانتقال مركز الثورة العالمية الى الشرق »(١) ؛ كما كتب كاوتسكي ، وكان لفترة طويلة المنظّر الأول للحركة العمالية : « ان مركز الثورة ينتقل من الغرب الى الشرق »(٢) ، فكيف كانت أوضاع هذا الشرق ، أوضاع روسيا القيصرية ؟

كانت الامبراطورية الروسية اوتوقراطية عسكرية — اقطاعية تستعبد العديد من الشعوب الأجنبية كما تستعبد شعوبها . لقد كانت « امبريالية اقطاعية عسكرية ، لا امبريالية بالمعنى الدقيق الذي أعطاه لينين لها عام ١٩١٧ ، معنى يقوم على سيطرة رأس المال المالي ، على تصدير رؤوس الأموال ... الخ »(٣) ، كما لم تكن روسيا ذلك العهد دولة صناعية كبيرة ، بل كانت تخضع للامبريالية بمعناها اللينيني السابق الذكر ، فقد تسربت رؤوس الأموال الأجنبية اليها وسيطرت على فروع صناعية كاملة ، وخاصة الصناعة الثقيلة . هكذا كان الشعب الروسي يعاني بآن واحد من « امبريالية دولته الاقطاعية — العسكرية ، ومن الامبريالية الاجنبية المالية وهو لم يجن من التوسع

---

(١) فكر لينين ، صفحة ١٧ .
(٢) فكر لينين ، صفحة ٣٨ .
(٣) فكر لينين ، صفحة ٤١ .

الرأسمالي أقل فئات أو مغنم ، ولم يكن في روسيا بروليتاريا متبرجزة ولا أريستقراطية بروليتارية ، بل ولا طبقة متوسطة هامة كما في الغرب »(١) .

أما تاريخ الحزب الشيوعي (البلشفي) فيصف وضع الطبقات المضطهدة آنذاك كما يلي :

« دخلت روسيا في وقت متأخر طريق النمو الرأسمالي . وحتى عام ١٨٦٠ لم يكن فيها إلا عدد قليل من المصانع ، وكان الاقتصاد الإقطاعي مسيطراً ... وفي عام ١٨٦١ اضطرت الحكومة القيصرية الى الغاء نظام القنانة ... وبعد الغاء القنانة كان على الفلاحين أن يستأجروا الأرض من المالك العقاري بأقسى الشروط ، فبالاضافة الى قيمة الايجار ، بالنقد ، كان المالك غالباً ما يلزم الفلاحين بالعمل مجاناً ، مع أدواتهم وخيولهم في أرض السيد ... وبالتالي فقد بقيت الحالة على وجه التقريب على ما كانت عليه في ظل القنانة ، مع فارق أن الفلاح أصبح حراً فيما يتعلق بشخصه ، إذ لم يعد ممكناً بيعه أو شراؤه كشيء ... وكانت رواسب الاقتصاد الاقطاعي ، والضرائب الباهظة ، وتعويضات الفدية المدفوعة الى المالكين العقاريين ، والتي كثيراً ما كانت تتجاوز دخل الاستثمارات الزراعية ، تسبب خراب جماهير الفلاحين وتجبرهم على مغادرة قراهم للسعي في مكان آخر عن مورد رزق ، لقد كانوا يذهبون ويؤجرون أنفسهم في المعامل والمصانع ، وبذلك كان أرباب المعامل يحصلون على يد عاملة رخيصة ... وبعد الغاء القنانة كان نمو الرأسمالية الصناعية سريعاً في روسيا ، وفي مدى خمس وعشرين سنة من ١٨٦٥ الى ١٨٩٠ ارتفع عدد العمال في المصانع الكبرى والمعامل والسكك الحديدية وحدها من ٧٠٦ آلاف الى ١,٤٣٣,٠٠٠ ؛ أي أنه زاد الى أكثر من الضعف ... هذه البروليتاريا الصناعية الحديثة ، تتميز كلياً عن عمال المصانع في عهد القنانة ، كما تتميز عن عمال الصناعة الحرفية الصغيرة أو غيرها ، سواء بتركزها في المشروعات الرأسمالية الكبرى أم بنزعتها النضالية الثورية ... وكان يوم العمل في المصانع والمعامل لايقل عن اثنتي عشرة ساعة ونصف ، وقد بلغ في صناعة النسيج أربع عشرة الى خمس عشرة ساعة ... وكانت اليد العاملة النسائية والأطفال تستغل على نطاق واسع ... وكانت أكثرية العمال تكسب من ٧ الى ٨ روبلات في الشهر ، وكان العمال الأفضل أجراً في معامل التعدين والمصاهر لايكسبون أكثر من ٣٥ روبلاً في الشهر ... وكان يجثم على صدر العمال والفلاحين جيش بكامله من رجال الدرك والشرطة والحراس يتولون حماية القيصر والرأسماليين والمالكين العقاريين

(١) فكر لينين : صفحة ٤٢ .

ضد العمال ، ضد المستغلين»(١).أما القوميات فكانت«محرومة من أي حق تقاسي جميع صنوف الاذلال والمهانة . وكانت الحكومة القيصرية تعوّد السكان الروس على النظر الى السكان الأصليين في المناطق القومية كأجناس ادنى مرتبة ، وتسميهم رسمياً « الغرباء » وتسلط ضدهم الازدراء والحقد ، وكانت الحكومة القيصرية تذكي عن عمد الاحقاد القومية، وتحرض الشعوب ضد بعضها ... وفي المناطق القومية كانت مناصب الدولة كلها تقريباً يشغلها الموظفون الروس ، وكانت الأعمال كلها تجري باللغة الروسية ، وكان محرماً اصدار صحف وكتب باللغات القومية ، كما كان استخدام اللغة الأم للتعليم محرماً في المدارس . كانت الحكومة القيصرية تسعى الى خنق جميع مظاهر الحياة القومية ، وتتابع سياسة « ترويس تفرضها على القوميات غير الروسية » (٢) .

مسألة عمالية ، مسألة زراعية ، مسألة قومية أو مسألة قوميات ، مسألة اضطهاد سياسي عام . تراكب نظام اقطاعي – عسكري محلي مع دخول الرأسمالية والامبريالية (من الخارج) ، وبكلمة واحدة تراكب ثورتين تنتظران الانجـاز : ثورة ديمقراطية برجوازية وثورة اشتراكية .

موضوعياً كانت هذه هي الظروف الروسية حين بدأ لينين نشاطه السياسي الثوري. لقد كانت روسيا مهيأة لثورة برجوازية على غرار ثورة ١٧٨٩ الفرنسية . ذلك ما لم يكن يشك به احد ، فهل كانت مهيأة ايضاً للثورة الاشتراكية ؟ ان لينين سيجيب بنعم على هذا السؤال ، وبذلك سيفترق طريقـه عن طريق الاشتراكيين – الديمقراطيين و « الماركسية السائدة » في اوروبا . ولن ينتظر لينين طويلا حتى يطرح على الطبقة العاملة الروسية وحزبها الماركسي مهمات المستقبل :التحالف مع **طبقة الفلاحين ككل** لانجاز الثورة الديمقراطية البرجوازية ، ثم التحالف مع **الفلاحـــين الفقراء فقط** لانجاز الثورة الاشتراكية.والقيادة في الثورتين ستكون للطبقة العاملة : « ان البرجوازية تدعي أنها ثورية ، الا انها لم تعد برجوازية ١٧٨٩ . انها تريد السلطة ، ولكنها مستعدة للتحالف مع الرجعية ضد البروليتاريا . وهذه الاخيرة ، وهي وحدها الثورية حقاً ، ستجد حلفاءها الحقيقيين لا في البرجوازية الليبرالية ، بل بين الفلاحين . ومع ذلك فإن الفلاحين لايستطيعون تحريك الثورة وتحديد أهدافها السياسية ... ان الطبقة العاملة يجب

---

(١) فكر لينين : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .
(٢) فكر لينين : صفحة ٤٤ ، ٤٥ .

أن تمسك مصيرها بيدها ، وتقود الثورة وتدفعها الى ابعد ما يمكن ، جارة معها الفئات المتأخرة او المتبرجزة من الفلاحين »(١) .

ومن اجل الوصول الى هذا الهدف سيدرس لينين المجتمع الروسي من كل جوانبه، وسيبحث في ظواهره وخفاياه عن عوامل الصراع والانفجار وسيربطها جميعاً في نظام نظري متكامل للثورة ، وذلك على ضوء الاطروحة الماركسية القائلة : « ان مسألة السلطة هي المسألة المركزية في كل ثورة . ». بهذا المعنى سيدرس لينين المسألة الزراعية ، والمسألة القومية ، ومسألة الثورة البرجوازية ، والمسألة العمالية ، وهو لن يقصر دراسته على روسيا فقط ، بل سيوسعها بحيث تشمل العالم ، كما أنه لن يقصر نظريته على روسيا لوحدها ، بل سيعطيها بدورها طابعها وأبعادها العالميين . انه سينطلق اصلا من تزاوج الماركسية ، ابنة المجتمع الاوروبي الغربي الصناعي، مع روسيا الزراعية المتخلفة التي تعاني من آلام مخاض الرأسمالية ، وسيصل الى اعادة تركيب الهيكل الماركسي النظري الذي فككته الاتجاهات الاصلاحية والانتهازية في الاشتراكيــة – الديمقراطية الاوروبية ، وسيدافع عن الماركسية ضد كل الجهات باعتبارها « دليل العمل » الوحيد الصحيح ، كما سيطورها في جميع المستويات ويغنيها ، مؤكداً باستمرار على جوهرها الثوري العملي . ان ماركسية لينين لا تتقهقر وتنحط مع تنامي الممارسة العملية ، كما حدث للماركسية في اوروبا ، بل ستشهد ، كما في ايام ماركس وانجلز ، تصاعداً وتنامياً مستمرين يتعمقان باضطراد مع تصاعد النضال الثوري .

ب ـــ الاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية في مطلع القرن :

اشار لينين في كتاب « ما العمل ؟ » الى أن الاشتراكية – الديمقراطية الروسية قد مرت قبل نشوء البلشفية في مراحل ثلاث :

أ – من ١٨٨٣ – ١٨٩٤ . وهي مرحلة التطور الجنيني ، وفيها تكونت نظرية وبرنامج الحركة الاشتراكية – الديمقراطية الروسية

ب – من ١٨٩٤ – ١٨٩٨ . وهي مرحلة الانتشار الافقي لأفكار الاشتراكية في اوساط المثقفين والشباب. في هذه المرحلة ظهرت الاشتراكية – الديمقراطية كحركة اجتماعية وكحزب سياسي .

(١) فكر لينين : صفحة ٨٦ .

ج – المرحلة الثالثة وتبدأ بعام ١٨٩٨ ، وفيها تتفسخ الحركة وتتشتت وتسيطر عليها القيادات الانتهازية والاصلاحية ، مع ان الاشتراكية – الديمقراطية تتقدم وتخطو إلى الأمام على الصعيد الجماهيري .

في هـــذه الفترة الزمنية القصيرة (من ١٨٨٤ وحتى ١٩٠٣) سادت الحركة الاشتراكية – الديمقراطية اتجاهات مختلفة وتيارات متباينة ، ومع أن مؤتمراً عقد في عام ١٨٩٨ لتوحيد الاتجاهات والزمر المختلفة ، فان اعلان تشكيل «حزب العمال الاشتراكي الروسي » الذي تمخض المؤتمر عنه لم يستطع أن ينهي الانقسامية والانشقاقية . هذا الجو التنظيمي المائع كان السبب في عدم تمايز الاتجاهات الاشتراكية – الديمقراطية ، وفي غلبة الطابع النظري البرجوازي الصغير عليها ، خاصة وأن قضية الاشتراكية – الديمقراطية الروسية لم تكن بعد قضية الطبقة العاملة ، بل قضية شبيبة مثقفة يغلب عليها الطابع التمردي الفردي وانعدام الخبرة السياسية العملية .

لقد التقط لينين العناصر الايجابية في هذا الوضع ، ومنها تلاقي كل الاتجاهات على الأخذ بالنظرية الماركسية ، فصاغ اطروحته : « ان السؤال : ما العمل ؟ يطرح نفسه في السنوات الاخيرة أمام الاشتراكيين – الديمقراطيين الروس بشدة . وليس المقصود اختيار الطريق ، كما كان الحال في اواخر القرن التاسع عشر واوائل العقـــد العاشر ، بل المقصود أن نعرف أي خطوات عملية يتعين علينا أن نخطوها في الطريق المعروف ، وبأية طريقة على وجه التحديد ، ان المقصود هو منهج وخطة النشاط العملي . إن المطلوب منا في الوقت الحاضر ليس الحل المبدئي للمسألة ، بل الحل العملي لها » (١) .

ولكن هذا الحل العملي لم يكن ممكناً في الحقيقة دون حل المسألة مبدئياً ، اي دون المعركة التاريخية التي خاضها لينين في كتاب « ما العمل؟ » ضد الاقتصاديين والتحريفيين ، والمعركة التي خاضها بعد ذلك بعام في مؤتمر الحزب الثاني وفي كراسته لعـــام ١٩٠٤ « خطوة الى الأمام ، خطوتان الى الوراء (الازمة في حزبنا) ضد المناشفة والبونديين . وقد تركزت هذه المعركة حول جملة من القضايا النظرية والعملية كان على رأسها قضيـــة « مراجعة الماركسية باسم حرية النقد والانفتاح على معطيات العصر الجديدة » ، ومسألة تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، وهما مسألتان ارتبطتا اشـــد الارتباط بكل استراتيجية وتاكتيك الحركة العمالية الاشتراكية ليس في روسيا وحدها ، بل وفي الحركة العمالية – الاشتراكية في العالم بكامله ، في ذلك الوقت وفيما بعد ايضاً .

(١) لينين : بماذا نبدأ ؟ الايسكرا ١٩٠١ .

في كتاب : « ما العمل؟ » الذي وقفه لينين على حل المهمات الملحة أمام الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية في مطلع القرن العشرين ، يركز لينين نقـده على مطلب « حرية النقد » الذي كان الاقتصاديون يرفعونه ، وعلى برنامجهم العملي الذي يقوم على أن النضال العمالي هو أصلاً نضال اقتصادي نقابي ، ويجب أن لا يتجاوز هذه النقابية — الاقتصادية، مع العلم بـأن الاقتصاديين رفعوا شعار « حرية النقد » كشرط لموافقتهم على توحيد الاشتراكيين — الديمقراطيين الروس .

يشير لينين بصدد « حرية النقد » إلى أن «نظرية ماركس ليست شيئاً كاملاً لا يجوز المساس به ، بل انها لم تفعل سوى إرساء حجر الأساس لذلك العلم الذي يتعين على الاشتراكيين الانطلاق به في جميع الاتجاهات ، لو ارادوا أن لا يتخلفوا عن ركب الحياة. ونحن نعتقد أنه من الضروري بصفة خاصة أن يدرس الاشتراكيون الروس ويطوروا نظرية ماركس بصورة مستقلة ، لأن هذه النظرية لا تعطي سوى موضوعات توجيهية عامة تطبق مثلاً في بريطانيا على خلاف ما تطبق في فرنسا ». (١) ثم يكشف المطمح الفعلي لمن يطالبون « بحرية النقد » : ألا وهو « التحرر من أي نظرية متكامـلة ، والانتقاء وانعدام المبادىء » (٢)،وهو ما كان سائداً كاتجاه عالمي في حركة الاشتراكية — الديمقراطية الأوروبية . وينتقل إلى وضع النقاط على الحروف فيسمي أصحاب هذا الاتجاه « ديمقراطيين — برجوازيين » و « أناس من ذوي الآراء المعتدلة جداً » (٣)

حـ — الاقتصادية والعفوية والوعي :

اما النقطة الثانية التي ركز لينين عليها إنتقاده فكانت اعتبار الاقتصاديين النضال العمالي نضالاً اقتصادياً — نقابياً بالأصل لا يجوز أن يطمح لتجاوز النقابية - الاقتصادية. لقد اكتسبت هـذه المسألة اهتماماً خاصاً في نظر لينين ، فانتصار الاقتصاديين كان يعني، أن لا تقوم للاشتراكية الديمقراطية الروسية قائمة ، وكان لينين يعتقد أن جذر هذه المسألة يكمن في الفصل بين السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وهي بالنسبة له كل يجب على الثوري أن يبحث عن التفاعلات المتعددة فيما بينها وعن الحركة التي تنجم عنها . وكان لينين يرى أن « الاقتصادي يسيطر في الفترات الهادئة نسبياً على الاجتماعي والسياسي

(١) لينين : برنامجنا (١٨٩٩) .
(٢) لينين : ما العمل ؟
(٣) لينين : ما العمل ؟

ويجددها . ثم تعقب ذلك فترة أزمة طويلة أو قصيرة . وعند ذلـك يحدث العكس ، فالعامل السياسي يجد بدوره العامل الاقتصادي ويصبح أساسياً في هـذه الفترة في التشكيل الاقتصادي - الاجتماعي » (١) . إن من يتجاهل هذه الحقائق يتجاهل عملياً المبدأ السياسي المطلق والأساس السياسي المطلق بالنسبة للينين ، ألا وهو البروليتاريا، هذه الطبقة التي « تزداد قوة مع ازدياد قوة الطبقة المسيطرة الخصم ، البورجوازية» (٢) والتي هي « مضطهدة ، محكومة ، مستغلة ، وهو ما يجعل منها الطبقة الثورية الوحيدة حتى النهاية » (٣) .

إن المسألة المطروحة ليست هي إذن مسألة الحقوق الاقتصادية للطبقة العاملة على أهميتها، بل هي مسألة الدور التاريخي الذي يجب على البروليتاريا أن تضطلع به حيال نفسها وحيال المجتمع ككل . فالبروليتاريا كاحدى القوتين الحاسمتين في المجتمع ، إلى جانب البرجوازية، يجب أن تنظم نفسها وتطور وعيا بحيث تستطيع حل مسألة السلطة السياسية ، لتكون قادرة على إعادة صياغة الحياة الاجتماعية وفق مصالحها الخاصة . فالخلاف بـين لينين والاقتصاديين ليس خلافاً حول مسائل تكتيكية ،بل هو خلاف عـلى الدور الاستراتيجي الذي كان يتصوره كل طرف حول مستقبل روسيا ودور مختلف القوى الطبقيـة في صياغته . فبينما كان الاقتصاديون يرون أن نضال البروليتاريا هو أصلاً نضال تاكتيكي يستهدف تحسين وضعها الاقتصادي وحصولهـا على اصلاحات اقتصادية ، كان لينين يرى أن الاشتراكية - الديمقراطية تخضع « الصراع من أجل الاصلاحات خضوع الجزء الكل . إلى الصراع الثوري من أجل الحرية والاشتراكيـة . » (٤) إن الاقتصاديين يتجاهلون إذن ميدان المعركة الفعلي وإبعادها التاريخية ، فالطبقة العاملة لا تناضل في منظورهم كأحد قطبي الرحى في المجتمع ، وهي لا تفتش عن حلفاء لها ، ولاتدرس عوامل الانفجار والصدام فيه لتستغلها ضد البرجوازية ، ولا تطمح لتغيير علاقات الانتاج والسلطة السياسية ، بل تقصر نضالها على نقابية أنانية لن تلبث أن تمزقها ككل اجتماعي

---

(١) لينين : المؤلفات المختارة ، المجلد الأول ، صفحة ٦٤٣ والمجلد الثاني صفحة ٧٧. منقولة عن كتاب « فكر لينين » صفحة ٣١١ .

(٢-٣) لينين : تكتيكان - المؤلفات المختارة ، المجلد الأول صفحة ٤١٨ منقولة عن كتاب فكر لينين : ص ٣١٤ .

(٤) لينين : ما العمل ؟

إلى مصالح اقتصادية متضاربة حسب المهن والحرف والفروع الصناعية . ومن الطبيعي أن هذا المنظور السياسي لا يترك للطبقة العاملة اي حق في ممارسة سياسة خاصة بها ، كما ينكر اي دور النظرية الثورية ، ناهيك من تجمع إرادتها في حزب يعبر عن مطالبها السياسية – الاجتماعية . إن برنامج الاقتصاديين لا يتجاوز الحاجات اليومية للعمال ، ولا هدف له « سوى بيع قوة عملهم بشروط افضل » ؛ وهذا ما يؤدي في نظر لينين إلى اخفاء الواقع الاقتصادي نفسه بصيرورته وقوانينه ، وإلى « انكار الثورة الاجتماعية وديكتاتورية البروليتاريا » (١) ، وإلى الاسفاف الليبرالي او الاصلاحي ، وخلق لبس مفاده « ان الاشتراكية – الديمقراطية ترجع إلى المستوى الخلفي المسائل السياسية والنضال السياسي » (٢) ولم يكن شعار « السياسي يتبع الاقتصادي » الذي رفعه الاقتصاديون في الحقيقة ، سوى تمجيد للتسيب النظري والتنظيمي للطبقة العاملة وتمجيد لعفويتها .

يعيد لينين المنشأ الاجتماعي للعفوية إلى يقظة الجماهير العمالية والشبيبة المسلحة بالنظرية الماركسية بدءاً من عام ١٨٨٥ ، ويؤكد على أن هؤلاء الثوريين قد انصرفوا بنشاط إلى اثارة الاضطراب على الصعيد الاقتصادي ، كما كانوا يوكلون الى الاشتراكية – الديمقراطية اعظم المهام التاريخية ، الا وهي اسقاط الحكم الفردي القيصري . إلا ان نقص إعداد هؤلاء المثقفين ، ونقص إتصالهم الفعلي مع الطبقة العاملة ، والقمع الذي تعرضوا له قد ادخل الحركة في مرحلة عصيبة ... ومع ان هذا الفشل لم يكن في البداية سوى شر صغير ، لأن التجربة الثورية والنشاط التنظيمي يكتسبان مع تنمية النقد الذاتي ، فإن هذا الشر الصغير تحول الى خطر دائم حين حاول بعض الناس قلب الاخطاء إلى مزايا ، اي لتبرير انعدام النظرية وجدواها بصورة نظرية ، وللتبشير بالانقياد للعفوية وعبادتها .

يميز لينين إذن بين عفوية الحركة العمالية من جهة ، و« نظرية العفوية » لدى الاقتصاديين من جهة ثانية ، ولم يسلط لينين في البدء نقده على عفوية العمال ، بل اعتبرها « غريزة طبقية » لا ينبغي تمجيدها ولا اعتبارها معصومة من الخطأ ، وان كانت ذات محتوى حقيقي ، في حين نقد بلا هوادة « تنظير العفوية » ، فاتهم أصحابها بالحط من قيمة النظرية وبتدعيم نفوذ

(١) لينين : المؤلفات المختارة – المجلد الأول صفحة ١٨٦ .

(٢) لينين : المؤلفات المختارة – المجلد الاول صفحة ١٦١ .

الايديولوجية البرجوازية على العمال ، ويجر الحركة الاشتراكية - الديمقراطية الى الوراء. كما قال أن من ينتقدون المبالغة في تقدير الايديولوجية يقعون في خطأ عميق ، « فالحركة العمالية البحتة غير قادرة بحد ذاتها على اعداد ايديولوجية مستقلة » ، (١) اذ « لايمكن قيام ايديولوجية مستقلة عن البرجوازية تعدها الجماهير العمالية خلال حركتها ، وليس في الميدان الا ايديولوجيتان : الايديولوجية البرجوازية والايديولوجية الاشتراكية ، وليس من وسط ، ولا من سبيل آخر ، ولا ايديولوجية ثالثة » . (٢) صحيح أن «للاشتراكية تذهب جذوراً بالبداهة في العلاقات الاقتصادية الراهنة ، بقدر ما لصراع الطبقات لدى البروليتاريا» (٣) ، ولكن النمو العفوي للحركة العمالية قد يفضي بالضبط الى اخضاعها للايديولوجية البرجوازية ، لأن هذه « أقدم من الايديولوجية الاشتراكية وأكمل منها في جميع أشكالها ، وتملك مالانهاية له من وسائل الانتشار » (٤) . ان النظرية الاشتراكية أقرب الى العمال من الايديولوجية البرجوازية ،فهي تفسر وضعهم وتحدد آلامهم ،ولكنها لن تسيطر عليهم اذا ما استسلمت للعفوية . ان لينين لاينكر ان المصالح الاقتصادية تلعب دوراً حاسماً ، ولكن ذلك لايستتبع في رأيه ان يكون الصراع الاقتصادي المهني ذا اهمية اولية ، فالمصالح الاكثر جوهرية و« الحاسمة » للطبقات لايمكن اشباعهـــا بصورة عامة الا بتغيرات سياسية جذرية .

الوعي والحزبية :

ماالسبيل الى تجاوز العفوية في حركة الطبقة العاملة ؟ إنه الوعي أولاً والتنظيم ثانياً . اما الوعي فيكتسب عن طريق معرفة التطور الموضوعي الذي « يخلق او يرسخ ، يعدم او يضعف هذه الطبقات او تلك ، هذه الفئات والجماعات والامم ومجموعات الامم ... محدداً بذلك هذا التجمع السياسي الدولي للقوى او ذاك ، هذا الموقف او ذاك للاحزاب الثورية » (٥) فهل يمكن للطبقة العاملة ان تعرف بقواها الخاصـــة التطور الموضوعي

---

(١) ما العمل : ص ٢٠٤

(٢) فكر لينين : ص ٣٢٠ .

(٣) كاوتسكي مشاراً اليه في لينين : ما العمل ؟ ص ٢٠٥ .

(٤) لينين : ماركس - انجلز - الماركسية : ص ٢٠٧ . فكر لينين : ص ٣٢١

(٥) لينين : ماركس - انجلز - الماركسية : ص ٢١٥ . منقولة عن فكر لينين : صفحة ٣٢٢ .

وقوانينه ؟ على هذا السؤال يجيب لينين بالنفي ، فالطبقة العاملة بقواها الذاتية ، بغريزتها ، بعفويتها وصراعاتها العفوية ، لاترتفع الى الشعور بالتناقض الموضوعي العميق الذي لايقبل التحوير بين مصالحها ومصالح البرجوازية . انها لاتتجاوز مرحلة اولية ، جنينية من صراع الطبقات . وهي لاتبلغ الوعي الطبقي الحقيقي ، الوعي السياسي الذي هو شكل متفوق من الشعور . « إن الوعي السياسي لايمكن ان يـ الى البروليتاريا الا من الخارج من مذهب . من نظرية ، من معرفة »(١) . وقد اكد لينين في كتابه ما العمـــل ان « المذهب الاشتراكي ولد من النظريات الفلسفية والتاريخية والاقتصادية التي اعدها الممثلون المتعلمون للطبقات المالكة ، المثقفون . لقد كان مؤسسو الاشتراكية العلمية العصرية انفسهم بحكم مركزهم الاجتماعي ، مثقفين برجوازيين » (٢) . وما ذا بشأن العمال الذين يسهمون في اعداد النظرية الاشتراكية ؟ على هذا التساؤل يجيب لينين : « انهم يشاركون فيها بقدر مايتوصلون الى اكتساب معرفة عن عصرهم كاملة قليلاً او كثيراً ، والى زيادتها »(٣) أي انهم لايمارسون عملهم المعرفي هذا كعمال ، بل كمثقفين . ويستشهد لينين في هذا الصدد بنص لكاوتسكي ، « ان للاشتراكية كمذهب جذوراً بالبداهة في العلاقات الاقتصادية الراهنة ، بقدر ما لصراع الطبقات لدى البروليتاريا . انها ، كهذا الصراع ، تنشأ من الصراع ضد فقر الجماهير وبؤسها الناجمين عن الرأسمالية . غير ان الاشتراكية وصراع الطبقات ينبثقان بشكل متواز ولايولد احدهما الآخر ، انهما ينبثقان من مقدمات مختلفة.

ان الوعي الاشتراكي الراهن لايمكن أن ينبثق الا على أساس معرفة علمية عميقة ... ان الوعي الاشتراكي عنصر مستورد من الخارج في الصراع الطبقي للبروليتاريا ، وليس شيئاً ينبثق عنها بصورة عفوية »(٤) .

هذا الدرس الثوري لم يستخلص من التجربة الروسية وحسب ، بل من التجربة العمالية في انجلترا ايضاً ، وبصورة خاصة .

على اي شيء ينصب الوعي السياسي ؟ على معرفة المجتمع البرجوازي في كليته ، وعلى معرفـــة علاقات طبقاته فيما بينها ومع الدولة . إن الاشتراكية الديمقراطية لاتكتفي ببحث وكشف شروط الحياة العمالية ، وبفضح العمل المضني

---

(١) فكر لينين : ص ٣١٨ .

(٢) لينين : ما العمل ؟ ص ١٩٨ .

(٣) كاوتسكي مشاراً اليه في ما العمل ؟ ص ٢٠٥ .

(٤) كاوتسكي مشاراً اليه في ما العمل ؟

في المعامل ، بل هي « تمثل الطبقة العاملة في علاقاتها لا مع جماعة معينة من المستخدمين وحسب ، بل ومع جميع طبقات المجتمع المعاصر ، ومع الدولة كقوة سياسية (١) ، ولأن الطبقة العاملة مؤهلة تاريخياً لقيادة جميع المضطهدين في المجتمع ضد العسف الواقع عليها ، فان الاشتراكية الديمقراطية لن تشرح للعمال « اضطهادهم السياسي وحسب ، بل ويجب أن تثير الاضطراب بمناسبة كل تجل محسوس لهذا الاضطهاد الذي يمارس ضد طبقات المجتمع على اختلافها ، ويتجلى في مختلف مجالات الحياة والنشاط المهني ، والمدني ، والخاص ، والعائلي ، والديني والعلمي ... » (٢)

ان المجتمع الطبقي لا يقصر اضطهاده على طبقة واحدة فقط ، بل هو ، وخاصة في مرحلة الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية ، يضطهد طبقات مختلفة الاصول والمطامح ، وفي روسيا كان ثقل الاستغلال والاضطهاد الاساسي يقع على عاتق العمال ، ولكن الفلاحين الصغار والحرفيين وابناء القوميات كانوا يرزحون أيضاً تحت نير استغلال فظيع ، والطبقة العاملة ، اذا كانت لا تريد أن تقع روسيا بين براثن ثورية بورجوازية قادمة ، يجب أن تتبنى مطالب هذه الطبقات وترفع راية تحريرها ؛ هذا لا يعني فقط أن النضال الاقتصادي هو جزء صغير من نضال أعم وأشمل ، بل يعني أيضاً أن الاكتفاء بـه يقطع انفاس الثورة البروليتارية حتى قبل بدايتها ويفصلها عن جيش الفلاحين والقوى الديمقراطية الثورية الأخرى ، ولأن برنامج لينين واستراتيجيته الثورية كانا يقومان على شمولية النضال العمالي من أجل الاشتراكية ، فقد ربط مطالب هـذه الطبقات ، وكانت ديمقراطية بورجوازية ، بالنضال الاشتراكي والثورة الاشتراكية التي تحمل الطبقة العاملة لواءها . ان توجهه لم يكن مقصوراً على الطبقة العاملة فحسب ، بل كان يؤكد باصرار أنه : « ليس اشتراكياً - ديمقراطياً كل من ينسى عملياً أن واجبه يقتضيه أن يكون أول من يطرح ويشحذ ويحل أية مسألة ديمقراطية عامة » (٣) ، لقد كان تراكب الثورتين الديمقراطية - البرجوازية والاشتراكية يقتضي أن يوضع برنامج قادر على التجاوب مع مطالب وآمال جميع الطبقات المظلومة ، وعلى إقناع الفلاحين بأن خلاصهم ليس مرتبطاً بالرأسمالية ، فهذه ستجد ولا بد حلاً يبقى على الاستغلال في الريف ، وقادر

---

(١) لينين : المرجع السابق ، صفحة ٢٢٠ .

(٢) = : = = .

(٣) = : = = ، صفحة ٢٤٢ .

على رفع مستوى وعي الطبقة العاملة الى اقصى الدرجات بحيث تستطيع مجابهة الايديولوجية البرجوازية التي يصفها لينين بأنها : « أقدم وأكمل في جميع أشكالها من الايديولوجية الاشتراكية»(١)،غير أن البرنامج بمفرده لايستطيع كل شيء، والماركسية هي قبل كل شيء علم الممارسة الثورية ، وتوجه الاشتراكيين - الديمقراطيين الى جميع طبقات السكان سينعكس في قدرتهم على رفع وعي الطبقة العاملة بشكل خاص ، وفي قدرتهم على دراسة السياسة العامة الداخلية والخارجية ، والحالة الاقتصادية والاجتماعية . والاشتراكي الذي يعمل على تنمية الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة يجب أن يتعرف على كل شيء دون أن يتخلى عن وجهة نظر البروليتاريا . انه سيدخل في حسابه حتى ادق عناصر الاحتجاج، وسيجد ، كمعبر عن المصالح الديمقراطية ، مستمعين في كل مكان ، لأنه « يكشف أمام الجماهير العمالية خفايا واسرار المجتمع البرجوازي ، ويفك آلياته المعقدة ، ويحلل بصراحة وعلناً العمليات التي تتداخل في الخفاء كالدسائس والمناورات » (٢) . وهذا ما يتطلب من عضو الحزب الاشتراكي الديمقراطي أن « يتصور بوضوح الطبيعة الاقتصادية والشكل السياسي والاجتماعي للمالك العقاري المكتنز والكاهن ، للوجيه والفلاح ، للطالب والمتشرد ، وأن يتعرف على جوانبهم القوية والضعيفة ، وأن يعرف كيف يميز معنى الصيغ الجارية والسفسطات من كل نوع التي تغطي بها كل طبقة ، وكل فئة اجتماعية شهواتها الأنانية و « طبيعتها » الحقيقية ... ان هذا الكشف السياسي الذي يشمل جميع المجالات هو الشرط اللازم والاساسي لاعداد الجماهير من أجل نشاطها الثوري » . (٣)

هذه هي الخطوط العامة التي وضعها لينين للخروج نظرياً من أزمة الاشتراكية - الديمقراطية الروسية ، فما هو السبيل الى الخروج عملياً من الأزمة ؟ ان لينين سيقترح الانتقال الى درجة أعلى من العمل ومن التنظيم .

لقد سبق وعرضنا كيف كانت الاشتراكية-الديمقراطية الروسية تعاني من مظاهر الولادة والنمو ، وذكرنا بايجاز بعض اتجاهاتها النظرية وخلافاتها التنظيمية ، وقلنا أنها كانت تعاني في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين من التسيب التنظيمي ، الذي ألحق بها اضراراً كبيرة على يد الشرطة واجهزة القمع القيصرية، فهل كان الوضوح النظري الذي ادخله لينين الى الحركة كاف بمفرده لوضع حد لتدهور الحركة ؟ . إن لينين الذي كان يردد دون كلل بأن الماركسية هي دليل للعمل ، اقترح بناء حزب من نمط

(١) ماركس - انجلز - الماركسية ، صفحة ٢٠٧ .

(٢) فكر لينين ؛ صفحة ٣٢٥ .

(٣) لينين ؛ ماركس - انجلز - الماركسية ، صفحة ٢٣٠ .

جديد ، « فالعمال قادرون على اظهار طاقة وتفان خارقين في الاضراب ، في معركة بالشوارع مع الشرطة أو الجيش ، وهم قادرون (وحدهم) أن يقرروا مصير حركتنا كلها غير أن النضال ضد الشرطة السياسية بالذات يقتضي صفات خاصة ، إنه يقتضي ثوريين محترفين »[1]. إن لهذا التنظيم ميزات عديدة في نظر لينين ، فهو سيضاعف من جدوى النضال الاقتصادي والعفوي ، وسيقود النضال ضد الشرطة خلال الاضرابات ، وسيمحو كل تمييز بين العمال والمثقفين ، وسيقدم للطبقة العاملة الزعماء والقادة السياسيين الذين « لا يمكن لأية طبقة في المجتمع العصري أن تقود بدونهم المعركة بتصميم »(٢) ، كما سيقدمون للحركة العمالية ، وقد تمثلوا المعارف النظرية ودمجوها بالممارسة ، الحفز الخارجي الذي تفتقر إليه ، وسيحققون بصورة عملية مشخصة اندماج النظرية الاشتراكية بالحركة العمالية .

مثل هذا الحزب الذي يضم « رجالا مجربين مهيئين مهنياً ومثقفين نتيجة ممارسة طويلة ومتفقين تماماً فيما بينهم »(٣) سيكون تنظيماً سرياً وضيقاً ، إذ لا يمكن الحفاظ على السرية في تنظيم واسع ، وبدون السرية لا يمكن النضال ضد الحكم بعزيمة واستمرار . فهل هذا التنظيم بعث للبلانكية ؟

أن لينين سيجيب بالنفي ، وسيقول أن الحزب ليس هو الطبقة ولا يمكن أن يكونها ، إنه محركها وموجهها وقائدها ، وهو لا يعتبر نفسه بديلا عن التنظيمات الجماهيرية كالنقابات والاتحادات ، كما لا يريد الغاء عملها ، بل توسيعه وتوجيهه واغناءه . « إن تمركز أكثر الوظائف سرية بين منظمة الثوريين يغني بدل أن يضعف ، ويوسع عمل مجموعة من المنظمات الاخرى التي تخاطب الجمهور الكبير » (٤) . ان الحزب الجديد لن يكون منظمة للتآمر ، بل هو « منظمة للارتفاع بالنضال العفوي للبروليتاريا والجماهير الى مستوى صراع طبقي حقيقي » (٥) يمثل الضمانة الرئيسية لصمود الحزب الذي لا يمكن التوصل اليه الا بالتفاعل بين نواة الثوريين هذه والجماهير التي ستحميها على الدوام من

(١) لينين في مسألة الحرب ، ومسألة الفلاح المتوسط ، منقولة عن فكر لينين : ص ٣٣١ .

(٢) فكر لينين : ص ٣٣٢.

(٣) لينين المرجع السابق ، منقولة عن فكر لينين : ص ٣٣٢

(٤) لينين : المرجع السابق . ص ٢٧٧ .

(٥) لينين : المرجع السابق : ص ٢٨٦ .

الشرطة وقدها باستمرار بالمناضلين. بهذا المعنى سيصبح الحزب مدرسة للطبقة العاملة بكاملها، فيستمد منها خيرة عناصره، ويقدم لها ثوريين متفرغين لا هم لهم سوى دراسة قضاياها وقيادة نضالها وتمثيل مصالحها. هذا الحزب سيكون الخبرة التي تركز كل جهودها على تهيئة الطبقة العاملة لحل مسألة السلطة في المجتمع البورجوازي.

إن الفكرة المركزية في تنظيم الحزب اللينيني تكمن اذن في الفصل بين الطليعة والطبقة، فالحزب ليس الطبقة، وهناك فروق كبيرة بين درجة تنظيمه ودرجة تنظيمها، وبين وعيه ووعيها. صحيح أنه يحاول ضغط هذه الفروق إلى أدنى حد (وهذه مهمة أساسية من مهامه)، ولكنه ليس بالمستطاع ان تبلغ الطبقة في ظل الرأسمالية درجة الوعي والنشاط التي بلغتها طليعتها (الحزب). «ان بين الحزب والطبقة فرقاً، ووحدة وتفاعلاً مستمراً. والحزب الماركسي هو بأن واحد جزء من الطبقة العاملة، وطليعتها، وهو مزود بهذا السلاح الجوهري: النظرية، اي معرفة قوانين النمو والتحول الاجتماعي. والنظرية ترشد وتقود الصراع العمالي عبر الحزب. ان الحزب لا يستطيع شيئاً دون الطبقة، والطبقة لا تستطيع شيئاً كثيراً بدون الحزب، غير أن العلاقة بين الحزب والطبقة لا تحدد بصورة تجريبية، بل ديالكتيكيا بوصفها علاقة الوعي العفوي بالوعي الذي يشكله المعرفة، علاقة غريزة الطبقة بالعلم» (١).

هذا الحزب يلزم أعضاءه بانضباط صارم، ويخضع أقليته لأغلبيته، وقاعدته لقيادته، وهو يقيم حياته الداخلية على أساس السرية الصارمة، كما يملك من الامكانات ما يمكنه من تفريغ أعضائه للعمل في خدمته فقط، وهو ليس منظماً على أساس مهني او اقليمي، بل على النطاق الوطني، كما ان له صحفه ومطابعه وهيئاته القيادية الوطنية المنتخبة ومؤتمراته، اما من حوله فيجب أن توجد منظمات عديدة بعضها ثوري وبعضها الآخر غير ثوري، وحول الحزب والمنظمات التابعة له توجد الجماهير غير المنظمة التي تتبعه، «غير أن حدود الحزب يجب ألا تظل غير محددة، والا فقد دوره بوصفه شكلاً على التنظيم، مزوداً بالنظرية الثورية، وبتجربة الحركة الثورية» (٢).

* * *

يقول كارل ماركس في مقدمة مقاله «حول نقد فلسفة الحق لهيجل»: «ان سلاح النقد لا يمكن أن يقوم، بالطبع، مقام النقد بالسلاح، لأن القوة المادية لا يمكن أن

(١) فكر لينين: صفحة ٣٥٤.

(٢) فكر لينين: صفحة ٣٥٤.

يطاح بها الا بقوة مادية ، ولكن النظرية حين تتغلغل في الجماهير تصبح ، هي أيضاً ، قوة مادية » ، ويستطرد :« وكما تجد الفلسفة في البروليتاريا **سلاحها المادي** ، كذلك تجد البروليتاريا في الفلسفة **سلاحها الفكري** ».(١)

في روسيا حقق لينين هذا الدمج بين الايديولوجية الماركسية كسلاح فكري للبروليتاريا ، وبين قوة البروليتاريا كسلاح مادي للايديولوجية الماركسية ، فطور استراتيجية الثورة البروليتارية تستجيب للمهمات التاريخية التي كان المجتمع الروسي يطرحها على نفسه ، وخلق الحزب القادر على تحقيق هذه الاستراتيجية عملياً . وقد أكد اكثر من مرة على ان الحزب البروليتاري هو نقطة البداية في كل نشاط ثوري : « ان البروليتاريا لا تملك في نضالها من اجل السلطة سوى سلاح التنظيم . ان البروليتاريا المنقسمة نتيجة للمنافسة الفوضوية التي تسود المجتمع البرجوازي ، الرازحة تحت وطأة الكد الذليل لرأس المال ، الملقاة باستمرار في اغوار البؤس الأسود ، والمحرومة من الثقافة بشكل بربري ، هذه البروليتاريا يمكن ان تصبح،وستصبح حتماً ، قوة لاتقهر لهذا السبب الوحيد ، وهو ان اتحادها الايديولوجي القائم على مبادىء الماركسية تعززه الوحدة المادية للتنظيم الذي يضم ملايين العمال في جيش واحد للطبقة العاملة . » (٢)

---

(١) كارل ماركس : حول نقد فلسفة الحق لهيجل ، المؤلفات الأولى ، مطبعة ألفريد كرونر . شتوتجارت ١٩٥٣ .

(٢) لينين : المختارات ، المجلد الأول ، صفحة ٤١٤ .





يجري سحب الاصدار العادي الخامس

بتاريخ ٥ أيار ١٩٧٠